

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

محمّد بن
محمّد بن الفضل بن حسين

دار الكتب والوثائق
بيروت - لبنان

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد



الجزء الخامس عشر

دار النجاة العامة
عيسى الباني الجاني وشركاه



منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
تم - اعلان ١٤٠٤ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) وبه تمنى الحمد لله الواحد العدل

القول في أسماء الذين تعاقدوا من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وما أصابوه في المعركة يوم الحرب

قال الواقدي^(٢) : تعاقد من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن شهاب الزهري وابن قميصة^(٣) أحد بني الحارث بن فهر ، وعتبة بن أبي وقاص الزهري ، وأبى بن خلف الجصبي . فلما أتى خالد بن الوليد من وراء المسلمين ، واختلطت الصفوف ، ووضع المشركون السيف في المسلمين ، رمى عتبة بن أبي وقاص رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أحجار ، فكسر رباعيته ، وشججه في وجهه حتى غاب حلق المغفر في وجنتيه^(٤) ، وأدى شفتيه^(٥) .

قال الواقدي : وقد روي أن عتبة أشطى^(٦) باطن رباعيته السفلى . قال : والثابت عندنا أن الذي رمى وجنتي رسول الله صلى الله عليه وآله ابن قميصة ، والذي رمى شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص .

قال الواقدي : أقبل ابن قميصة يومئذ وهو يقول : ذلوني على محمد ، فوالذي يحلف به؛ لئن رأيته لأقتلنه ، فوصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلعه بالسيف ، ورماه عتبة

(١-١) ١ : « وبك امتدادي يا كرم » .

(٢) انظر أخبار غزوة أحد في الجزء الرابع عشر من ص ٢١٣ إلى ص ٢٨١ من هذا الكتاب .

(٣) قميصة : كفيصة ، وهو عمرو بن قميصة ، ذكره صاحب تاج العروس ، وقال : « شاعر » وهو الواقدي كسر رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد » . (٤) كذا في ١ ، وهو الوجه الواقدي في ب « وجنته » ؛ تحريف .

(٥) منازي الواقدي ص ٢٤٦ وما بعدها .

(٦) أشطى رباعيته : كسرها .

ابن أبي وقاص في الحال التي جَلَّه ابنُ قَيْمَةِ فيها السيف ، وكان عليه السلام فارساً ، وهو لابسُ دِرْعَيْنِ مُثْقَلِ بهما ، فوق رسول الله صلى الله عليه وآله عن الفرس في حُفْرَةٍ كانت أمامه .

قال الواقدي : أصيب ركبته ، جُحِشَتْ^(١) لما وَقَعَ في تلك الحفرة ، وكانت هناك حُفْرٌ حَفَرَهَا أبو عامر الفاسق كالخنادق للسلدين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً على بعضها وهو لا يَشْعُرُ^(٢) ، فجُحِشَتْ رُكْبَتَاهُ ، ولم يصنع سيفُ ابنِ قَيْمَةِ شيئاً إلا وهز^(٣) الضربة يثقل السيف ، فقد وقع رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم اتَّهَضَ وطلعةٌ يَحْمِلُهُ من ورائه ، وعلى عليه السلام آخِذٌ بيديه حتى استوى قائماً .

قال الواقدي : لَخِذْنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عَمَّانٍ عَنْ هَمَزَةَ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي بَشْرِ الْمَازَنِيِّ ، قال : حضرتُ يومَ أُحُدٍ وأنا غلامٌ ، فرأيت ابنَ قَيْمَةِ عِلَّاءَ رسول الله صلى الله عليه وآله بالسيف ، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وَقَعَ على ركبته في حفرةٍ أمامه حتى توارى في الحفرة ، فجعلت أصيح وأنا غلامٌ حتى رأيت الناس نابوا إليه .

قال : فأنظر إلى طلعة بن عبيد الله آخِذاً بِحُضْنِهِ حتى قام .

قال الواقدي : ويقال : إن الذي شجَّ رسول الله صلى الله عليه وآله في جبهته ابنُ شِهَابٍ ، والذي أَشْطَى رِبَاعِيَّتَهُ وَأَدْمَى شَفْتَيْهِ عَنبَةُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ ، والذي أَدْمَى وَجْهَتَيْهِ حتى غاب الخلق فيهما ابنُ قَيْمَةِ ، وإنه سال الدم من الشجرة التي في جبهته حتى أخضل لحيته . وكان سالمٌ مولى أبي حذيفة يغسل الدم عن وجهه ورسول الله صلى الله عليه ، يقول : كيف يُفْلَحُ قومٌ فُسلوا هذا بنيهم ، وهو يدعوهم إلى الله تعالى ! فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۚ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ... ﴾^(٤) الآية .

(١) الجَحَشُ : الخدش ، أو فوقه .

(٢) الواقدي : « ولا يشعر به » .

(٣) كذا في الواقدي . ويقال : وهزه ، أي ضربه بثقل يده ، وفي الأصول : « وهن » تحريف .

(٤) سورة آل عمران ١٧٨ .

قال الواقدي : وروى سعد بن أبي وقاص قال ^(١) : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ : اشتد غضب الله على قوم دموا فأرسل الله صلى الله عليه وآله ، اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله ، اشتد غضب الله على رجل قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال سعد : فلقد شغاني من عتبة أخى دعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد حرصت على قتله حرصا ما حرصت على شيء قط ، وإن كان ما علمت لعاقبا بالوالد ، سبي الخلق ، ولقد تخرقت صفوف المشركين مرتين أطلب أخى لأقتله ، ولكنه راغ منى روغان الثعلب ، فلما كان الثالثة قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا عبد الله ما تريد ؟ أتريد أن تقتل نفسك ؟ فكففت . قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم لا تحولن الحول على أحد منهم . قال سعد : فوالله ما حال الحول على أحد ممن رماه أو جرحه . مات عتبة ، وأما ابن قبيصة فاختلِف فيه ، [فقاتل يقول : قتل في المعركة و] ^(٢) قاتل [يقول] ^(٣) : إنه رمى بسهم في ذلك اليوم فأصاب مصعب بن عمير فقتله ، فقال : خذها وأنا ابن قبيصة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أقاه الله ، فمَدَّ إلى شاة يَحْتَلِبُها فتَنطَحُ بقرنها وهو مَحْتَلِبُها ^(٤) فقتلته . فوجد ميتا بين الجبال لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبَكَتْ عذوة الله رجع إلى أصحابه فأخبرهم أنه قتل محمدا . قال : وابن قبيصة رجل من بني الأدرم من بني فهر .

وزاد البلاذري في الجماعة التي تعاهدت وتعاهدت على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد عبد الله بن محمَّد بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصى ^(١) . قال : وابن شهاب الذي شجَّ رسول الله صلى الله عليه وآله في جهته هو عبد الله

(١) الواقدي : « سمعته يقول : اشتد » .

(٢) من الواقدي . والممرك والممرك : موضع القتال .

(٣) كذا في وهو الصواب ، والقي في ب « مخطئا » ، تصحيف .

(٤) أسباب الأشراف ١ : ٣١٩ .

ابن شهاب الزهري ، جد الفقيه المحدث محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب^(١) ، وكان ابن قتيبة أدرم ناقص الذن ، ولم يذكر اسمه ولا ذكره الواقدي أيضا .

قلت : سألت النقيب أبا جعفر عن اسمه فقال : عمرو ، فقلت له : أهو عمرو بن قتيبة الشاعر ؟ قال : لا ، هو غيره . فقلت له : ما بال بني زهرة في هذا اليوم فعلوا الأفاعيل برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أخواله ، ابن شهاب وعتبة بن أبي وقاص ؟ فقال : يا ابن أخي ، حرّكهم أبو سفيان وهاجهم على الشر لأنهم رجعوا يوم بدر من الطريق إلى مكة فلم يشهدوها ، فاعترض غيرهم ومنعهم عنها ، وأغرى بهاسفها أهل مكة ، فغيرهم برجوعهم ، ونسبهم إلى الجن وإلى الإذهان في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، واتفق أنه كان فيهم مثل هذين الرجلين ، فوقع منهما يوم أحد ما وقع .



قال البلاذري : مات عتبة يوم أحد من وجع اليم أصابه ، فتعذب به ، وأصيب ابن قتيبة في المركة ، وقيل : نطحته عنزقات .

قال : ولم يذكر الواقدي ابن شهاب كيف مات ، وأحسب ذلك بالوهم منه . قال : وحدثني بعض قريش أن أقي نهشت عبد الله بن شهاب في طريقه إلى مكة ، فأت . قال : وسألت بعض بني زهرة عن خبره ، فأنكروا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله دعا عليه ، أو يكون شج رسول الله صلى الله عليه وآله . وقالوا : إن الذي شجّه في وجهه عبد الله بن حميد الأسدي^(٢) .

فأما عبد الله بن حميد الفهري ، فإن الواقدي وإن لم يذكره في الجماعة الذين

تَمَاقَدُوا عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ كَيْفِيَّةَ قَتْلِهِ .
 قال الواقدي : وَيُقْبَلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُمَيْدٍ بْنُ زُهَيْرٍ حِينَ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ - يَعْنِي سَقُوطَهُ مِنْ ضَرْبَةِ ابْنِ قَبِيثَةَ - يَرْكُضُ فَرَسَهُ مَقْنَعًا فِي الْحَدِيدِ يَقُولُ : أَنَا ابْنُ زُهَيْرٍ ، دُثِّنِي عَلَى مُحَمَّدٍ ، فَوَاللَّهِ لَا أَقْتُلُهُ أَوْ لَأَمُوتَنَّ حُونَهُ ! فَتَعَرَّضَ ^(١) لَهُ أَبُو دُجَانَةَ فَقَالَ : هَلُمَّ إِلَى مَنْ يَبْقَى نَفْسَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِنَفْسِهِ ، فَضَرَبَ فَرَسَهُ فَعَرَّ قَبْهَا ، فَاسْتَسَمَتْ ، ثُمَّ عَلَاهُ بِالسَّيْفِ وَهُوَ يَقُولُ : خَذْهَا وَأَنَا ابْنُ خَرَّشَةَ ، حَتَّى قَتَلَهُ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ ارْضَ عَنِ ابْنِ خَرَّشَةَ كَمَا أَنَا عَنْهُ رَاضٍ . هَذِهِ رِوَايَةُ الْوَاقِدِيِّ ، وَبِهَا قَالَ الْبَلَاذُرِيُّ : إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُمَيْدٍ قَتَلَهُ أَبُو دُجَانَةَ ^(٢) .

فَأَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي قَتَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُمَيْدٍ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٣) . وَبِهِ قَالَتِ الشَّيْخَةُ .



وَرَوَى الْوَاقِدِيُّ وَالْبَلَاذُرِيُّ أَنَّ قَوْمًا قَالُوا : إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُمَيْدٍ هَذَا قَتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ . فَأَلَّوْا الصَّحِيحَ أَنَّهُ قَتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ . وَقَدْ رَوَى كَثِيرٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ سَقَطَ ثُمَّ أَقْبَمَ : أَكْفَيْتَنِي هَؤُلَاءِ - لِمَجَاعَةٍ قَصَدَتْ لِحُومِهِ فَحَمَلَتْ عَلَيْهِمْ فَهَزَمَهُمْ ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ حُمَيْدٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ، ثُمَّ حَمَلَتْ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ أُخْرَى ، فَقَالَ لَهُ : أَكْفَيْتَنِي هَؤُلَاءِ ، فَحَمَلَتْ عَلَيْهِمْ فَاهْزَمُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي حَذِيفَةَ بْنِ الْمَغِيرَةِ الْخَزَوْمِيُّ .

قال : فَأَمَّا أَبِي بَنِي خَلْفٍ فَرَوَى الْوَاقِدِيُّ أَنَّهُ أَقْبَلَ يَرْكُضُ فَرَسَهُ ؛ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، اعْتَرَضَ لَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ لِيَقْتُلُوهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : اسْتَأْخِرُوا

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٤ .

(١) الواقدي : « ليعرض » .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٨٢ .

عنه . ثم قام إليه وحرَّبته في يده ، فرماه بها بين سابلة البَيْضَةِ والدُّرْعِ ^(١) ، فطعنه هناك ، فوقع عن فرسه ، فانكسر ضلع من أضلاعه ، واحتمله قومٌ من المشركين ثقيلًا ^(٢) حتى ولَّوا قافلين ، فبات في الطريق ، وقال : وفيه أنزلت : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ ^(٣) ، قال : يعني قذفه إنياء بالحربة .

قال الواقدي : وحدثني يونس بن محمد الظفري ، عن عاصم بن عمر ، عن عبد الله ابن كعب بن مالك ، عن أبيه ، قال : كان أبي بن خلفٍ قدم في فداء ابنه ، وكان أمير يوم بدر ، فقال : يا محمد ، إنَّ عندي فرسًا لي أعطفها قرًا ^(٤) من فرة كل يوم لأتلك عليها . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : بل أنا أقتلك عليها إن شاء الله تعالى .



ويقال : إنَّ أبيًا إنما قال ذلك بمكة ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة كلمته فقال : بل أنا أقتله عليها إن شاء الله . قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله في القتال لا يلتفت وراءه ، فكان يوم أحد يقول لأصحابه : إني أخشى أن يأتي أبي بن خلف من خلفي ، فإذا رأيتموه فاذنوني ، وإذا بأبي يركض على فرسه ، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله فمرَّفه ، فجعل يصيح بأعلى صوته : يا محمد لا نجوت إنَّ نجوت ! فقال القوم : يا رسول الله ما كدت صانما حين يفشاك أبي ؟ فاصنع ، فقد جاءك ، وإن شئت عطف عليه بعضنا ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وآله ، ودنا أبي ، فتناول رسول الله صلى الله عليه وآله الحربة من الحارث بن الصمة ، ثم انتفض كما ينتفض البعير . قال : فتطأرنا

(١) الدرع السابلة : التي تيرها في الأرض وعلى كميك طولاً وسدً ، وسبلة البيضة : ما توصل به البيضة من حلق الدروع فستر المنق .

(٢) ثقيلًا : مضروبًا على اللوت .

(٣) الفرق ، يسكون الراء ويضمها : مكبال ضخم لأهل المدينة معروف .

(٤) سورة الأخال ١٧ .

عنه تطاير الشعاريير^(١) ، ولم يكن أحد يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله إذا جدَّ الجدَّ ، ثم طلعته بالحربة في عنقه وهو على فرسه لم يسقط ، إلا أنه خار كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : أبا عامر ، والله ما بك بأس ، ولو كان هذا الذي بك بعين أحدنا ماضته . قال : واللات والعزى ، لو كان الذى بي بأهل ذى الحجاز لما تواركلهم أجمعون ، أليس قال : لأقتلنه ! فاحتملوه ، وشغلهم ذلك عن طلب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى التحق^(٢) بعظم أصحابه في الشعب .

قال الواقدي : ويقال : إنه تناول الحربة من الزبير بن العوام . قال : ويقال إنه لما تناول الحربة من الزبير حمل أبى على رسول الله صلى الله عليه وآله ليضربه بالسيف ، فاستقبله مصعب بن عمير حائلا بنفسه بينهما ، وإن مصعبا ضرب بالسيف أبيًا في وجهه ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وآله فرجة من بين سافة البيضة والدرع ، فطعنه هناك ، فوقع وهو يخور .

بِرَحْمَةِ كَلْبِ بْنِ حَسْبِ

قال الواقدي : وكان عبد الله بن عمر يقول : مات أبى بن خلف ببطن رابغ^(٣) منصرفهم إلى مكة . قال : فأتى لأسير ببطن رابغ بعد ذلك ، وقد مضى هوى من الليل إذا نارًا تاجج ، فنهبتها ، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذبها بصيح : العطش ، وإذا رجل يقول : لا تسقه ، فإن هذا قتيل رسول الله صلى الله عليه وآله ، هذا أبى بن خلف ، فقلت : ألا سحقا ! ويقال : إنه مات بسرف^(٤) .

(١) الشعاريير : الذباب . (٢) الواقدي : « لحق » .

(٣) بطن رابغ : واد من دون الجلفة ، قال الواقدي : هو على عشرة أميال من مكة . ياقوت .

(٤) سرف ، كسكف : موضع على سبعة أميال من مكة ، تزوج به رسول الله صلى الله عليه وسلم مبيونة بنت الحارث ، وهناك بنى بها ، وهناك توفيت — ياقوت .

القول في الملائكة نزلت بأحد وقاتلت أم لا

قال الواقدي : حدثني الزبير بن سعيد ، عن عبد الله بن الفضل ، قال : أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله مصعب بن عمير اللواء فقتل ، فأخذه ملك في صورة مصعب فحمل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له في آخر النهار : تقدم يا مصعب ، فالتفت إليه الملك ، فقال : لست بمصعب ، فصرف رسول الله صلى الله عليه وآله أنه ملك أيدي به .
قال الواقدي : سمعت أبا معشر يقول مثل ذلك .

قال : وحدثني عبيدة بنت نائل ، عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص ، عنه ، قال : لقد رأيتني أرمي بالسهم يومئذ ، فبرذه على رجل أبيص حسن الوجه لا أعرفه ، حتى كان بعد ، فظننت أنه ملك .

قال الواقدي : وحدثني إبراهيم بن سعد ، عن أبيه ، عن جده سعد بن أبي وقاص ، قال : رأيت ذلك اليوم رجلين عليهما قلاب بيض : أحدهما عن يمين رسول الله صلى الله عليه وآله ، والآخر عن شماله يقاتلان أشد القتال ، مارأيتهما قبل ولا بعد . قال : وحدثني عبد الملك بن سليمان ، عن قطن بن وهب ، عن عبيد بن عمير ، قال : لما رجعت قريش من أحد جعلوا يتحدثون في أيديتهم بما طفروا ، يقولون : لم نر الحليل الملق ولا الرجال البيض الذين كثر نراهم يوم بدر .

قال : وقال عبيد^(١) بن عمير : لم تقل لملائكة يوم أحد .

قال الواقدي : وحدثني ابن أبي سبرة ، عن عبد الحميد بن سهيل ، عن عمر بن الحكم ، قال : لم يمد رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد بملك واحد ، وإنما كانوا يوم بدر . قال : ومثله عن عكرمة .

(١) و أ « عبيدة » ؛ تحريف والتصويب عن ب .

قال : وقال مجاهد : حضرت الملائكة يوم أُحُد ولم تقاتل ، وإنما قاتلت يوم بدر .

قال : وروى عن أبي هريرة أنه قال : وعَدَّهم الله أن يُمَدِّمَ لوَصَّوهم ، فلما انكشفوا لم تقاتل للملائكة يومئذ .

القول في مقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه

قال الواقدي : كان وَحْشَى عبداً لابنة الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، ويقال : كان الحخير بن مُطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، فقالت له ابنة الحارث : إنَّ أبى قتل يوم بدر ، فإن أنت قتلت أحد الثلاثة قاتلَ حرٍّ : محمد ، وعلى بن أبى طالب ، وحمزة^(١) بن عبد المطلب ، فإنى لا أرى في لقوكم كفوًّا لأبى عيهم . فقال وحشى : أما محمد فقد علمت أنى لا أقدر عليه ، وإن أسماه ابن يسلموه ، وأما حمزة فوالله لو وجدته ماأما ما أيقظته من هيبته ، وأما على فأنتم . قال وحشى : فكنت يوم أُحُد ألتبس به ، فبينما أنا في طلبه طلعت على ، فطلع رجلٌ حديرٌ مرس^(٢) كثيرُ الالتفات ، فقلت : ما هذا بصاحبى الذى ألتبس ، إذ رأيت حمزة يقرى الناسَ قريباً ، فكشيتُ له إلى صحرة وهو مكبسٌ له كتيبت^(٣) ، فاعترض له سباع بن أمُّ بيار ، وكانت أمه حَتَامَة بركة ، مولاة لشريف بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفى ، وكان سباع يكتى أبا بيار ، فقال له حمزة : وأنت أيضاً إنَّ مقطعة البُطور ممن يكتر علينا ا هلم إلى ، فاحتمله ، حتى إذا برقت قدماه رمى به فبرك عليه ، فشحطه شحط الشاة ، ثم أقبل على مكباً حين رآنى ، فلما

(١) كذا في أ ، وهو الوجه ، وفي ب « أو » تحريف .

(٢) المرس : الذى قد مارس الأمور وعالجها .

(٣) الكتيبت : صوت في صدر الرجل كصوت البكر من شدة البيط .

بلغ للسيل ، وعلى على جُرفٍ فرقت قدمه ، فهزئت حريقى حتى رضيت منها ، فأضرب
بها فى خاصرته حتى خرجت من مئاته ؛ وكرت عليه طائفة من أصحابه فاستمهم يقولون :
أبا عمار ، فلا يجيب ، فقلت : قد وثقت الرجل ، وذكرت هندا وما لقيت على
أيها وعمها وأخيها ، وانكشف عنه أصحابه حين أيقنوا بموته ، ولا يرونى ، فأكرت عليه
فشقت بطنه ، فاستخرجت كبده ، فحنت بها إلى هند بنت عتبة ، فقلت : ماذا لي إن
قتلت قاتل أهلك ؟ قالت : سئلى ؛ فقلت : هذه كبد حمزة ، فضمتها ثم لفظتها ، فلا
أدرى : لم تسمعها أو قدرتها ؛ فرعت ثيابها وحياها فأعطانيه ، ثم قالت : إذا جئت مكة
فلك عشرة دباير ، ثم قالت : أرنى مصرعه ، فأرثتها مصرعه ، فقطعت مذاكيره ،
وحدعت أبعه ، وقطعت أذنيه ، ثم جعلت ذلك مسكين^(١) ومعضدين وخدمتين ؛
حتى قدمت بذلك مكة وقدمت بكده أيضاً معها .

قال الواقدي : وحدثني عبد الله بن جعفر عن ابن أبي عمير ، عن الزهري ،
عن عبد الله بن عدي بن الحيار ، قال : غرروا الشام في زمن عثمان بن عفان ، فمرزما
بجيمص^(٢) بعد العصر ، فقلنا : وحشى ، فليل . لا تقدررون عليه ، هو الآن يشرب الخمر
حتى يصبح ، فبننا من أحبه ؛ وإنا لننور رجلا ، ولنا صليبا الصبح جثا إلى منزله ، فإذا
شيخ كبير قد طرح له رزية^(٣) قدر محله ، فدما له : أخبرنا عن قتل حمزة وعن
قتل مسيلة ؛ فكره ذلك ، وأعرض عنه ، فقلنا : ما بننا هذه الليلة إلا من أحلك . فقال :
إني كنت عبداً لجبير بن مطعم بن عدي ، وما خرج الناس إلى أحد دعاني فقال : قد رأيت
مقتل طعيمة بن عدي ، قتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر ، فلم تزل ساوياً في حرن

(١) المسكة ، بالتحريك : الأثورة . والمصد . المذبح ، والخدمة ، بالتحريك : الخلع .

(٢) جيمص : مدينة معروفة في بلاد الشام .

(٣) الرزية : التهمة ؛ أو البساط الذي يشكأ عليه ؛ واحده زربي ، والجماعة زربا .

شديد إلى يوم هذا ، فإن قتلت حمزة فانت حرة ؛ فخرحت مع الناس ولي مزاريق^(١) كنت أمرت بهند بنت عتبة فتقول : إيه أها دثمة ا اشف واشف ، فلما وردنا أحدا نظرت إلى حمزة يقدم الناس يهدم هذا ، فرآني وقد كنت له تحت شجرة ، فأقبل نحوي ، وتمرض له سباع الخراعي ، فأقبل إليه وقال : وأنت أيضا يابن مقطعة البطور ممن يكثر علينا هلم إلى ، وأقبل نحوه حتى رأيت برقان رجليه ، ثم ضرب به الأرض وقتله ، وأقبل نحوي سريعا ، فيمرض له حرف فيقع فيه ، وأزرقه بموراق فيقع في لثته حتى خرج من بين رجليه . فقتله ، وسدت بهند بنت عتبة فآذنتها ، فأعطتني ثيابها وحليها ، وكان في ساقبها حذمتان من جرع ظفار^(٢) ومسكتان من ورق ، وخواتيم من ورق كن في أصابع رجليها ، فأعطتني كل ذلك ، وأما مسيلة فإن دخلنا حديقة الموت يوم اليمامة فلما رأيت زرقته بالزراق ، وضرته برجل من الأنصار بالسيف ؛ فربك أعلم أينما قتله ؛ إلا أني سمعت امرأة تصيح فوق جدار : قتله العبد الممشي . قال عبيد الله : قتلت ؛ أنعرفن ؟ فأكره نصره على وقال : أن عدى لعائكة بنت الميص ؟ قالت : نعم ، قال : أما والله مالي بك عهد بعد أن دفعتك إلى أمك في محبتك التي كانت ترضعك فيها ، ونطرت إلى برقان قدميك حتى كأنه الآن .

وروى محمد بن إسحاق في كتاب المذرى ؛ قال : علت هند يومئذ صخرة مشرقة ،

وصرخت بأهل صوتها :

محسن جزيناكم يوم نذر	والحرب بعد الحرب ذات سحر ^(٣)
ما كان من عتبة لي من صبر	ولا أخى وعنه ويكرى
شفيت نفسي وقضيت نذرى	شفيت وحشى غليل صدري

(١) للزريق . جمع مراقي ؛ وهو الرمح النصب .

(٢) ظفار كظمام : بلد باليمن ينسب إليه الجرح .

(٣) ذات سحر ، أى حر .

فَشَكَرُ وَخَشِيَ عَلَى عَمْرِي حَتَّى تَرَمَ أَعْظَمَى فِي قَبْرِى ^(١)
 قال : فأجابتها هند بنت أُمّانة بن الطلب بن عبد مناف :

خزيت في بدرٍ وغديرٍ بدرٍ يا بنتَ غَدَارٍ عظيمِ الكُفْرِ ^(٢)
 أحمسك الله عداة العَجْرِ بالهاشميين الطوالِ الرُّهْرِ
 بكلِّ قطاعٍ حُسَامٍ يَمْرِى حمزةُ لَيْثِي وَعَلَى صَقْرِى
 إذ رامَ شيبَ وأبوكَ قَهْرِي فخصباً منه ضواحي النُّعْرِ

قال محمد بن إسحاق : ومن الشعر الذي ارتحلت به هند بنت عتبة يوم أحد :

شفيتُ من حمرةِ نَفْسِي بأحدٍ حينَ مَرَّتْ بطنه عن الكبدِ ^(٣)
 أدهبَ عني ذاكَ ما كُتِبَ بأحدٍ من لوعةِ الحزنِ الشديدِ المَعْتِدِ ^(٤)
 والحربُ تَلُوكُمُ بشؤبوبٍ يَكُذِّ نَقْدِمُ أقداما عليكم كالأسدِ ^(٥)

قال محمد بن إسحاق : حدثني صالح بن كيسان ، قال : حدثتُ أن عَمْرَ بنَ الخطَّابِ قال لحسان : يا أبا العَرَبِيةَ ، لو سَمِعْتَ ما تقولَ هَذَا ولو رأيتَ شرَّها قائِمةً على صخرةٍ ترتجِزُ بنا ، وتَدَكُّرُ ما صنعتَ بحمرةٍ أ فقال حسان : والله إني لأنظرُ إلى الحربِ تَهْوِي وأنا على فارعٍ - يعني أطمه - فقلت : والله إن هذه لَسِلاحٌ ليس سلاحُ العربِ ، وإذا بها تَهْوِي إلى حمزةٍ ولا أدري ، [ولكن] ^(٦) أسمعني بعضَ قولها أ كفيكوها ، فأنشدته عَمْرُ بعضَ ما قالت ؛ فقال حسان يهجوها .

أشِرتَ لَكاعٍ وكانَ عادَتُها لو ما إذا أشِرتَ مع الكُفْرِ ^(٧)

(١) ترم أعظمى : تبلى . (٢) في ابن هشام : « يا بنت وُطَح » .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣ . (٤) للمعتد : القاصد للؤلؤ .

(٥) الشؤبوب : الدخ من الطير . ويرد - فتح دكبر - أي ذو برد .

(٦) من سيرة ابن هشام .

(٧) الخبر وهذا البيت في سيرة ابن هشام ٣ : ٤٤ ، والأبيات في ديوانه ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

أخرجت مرقصة إلى أحد
مكر تفال لا حراك به
أخرجت ثائرة محارة^(٣)
وبسك التروك مجدلاً
فرجت صافرة بلا نيرة
وقال أيضاً يهجوها :

لمن سواقط ولدان مطرحة^(٤)
بانت تمخض لم تشهد قوابلها
يطل برجه الصبان مسمرأ
في آيات كرهت ذكرها لفخها^(٥)



قال : وروى الواقدي ، عن صفية بنت عبد المطلب ، قالت : كما قد رقصا^(٨) يوم أحلفي
الأطام ، ومعنا حسان بن ثابت ، وكان من أجبن الناس ، ونحن في قارع ، فجاء نفر من
يهود يرومون الأطم ، فقت : ذوبك يان الرئيمة ، فقال : لا والله لا أستطيع القتال ،
وبعد يهودي إلى الأطم ، فقلت : شد على يدي السيف ، ثم برئت ، ففعل ، فضربت

(١) مرقصة ، أي مرقصة بكرها ، ورفض المير أسرع في سيره . وفي الديوان : « مرقصة » .

(٢) البكر التفال : الطلى .

(٣) في الديوان : « أقلت زائرة ماردة » .

(٤) الديوان : « يوم دي مدر » .

(٥) والجفر : البثر .

(٦) ديوانه ١٥٨ . وفي الديوان : مندة » .

(٧) منمرا ، أي علاه التراب ، ورواية الديوان :

قد قادروه حرة الوجه منمفراً وحاله وأبوه سيذا النادى

(٨) رقصا : عدونا .

عنى اليهودى ورمىته برأسه إليهم ، فلما رأوه اسكفوا ، قالت : وإني لفي قارع أول النهار مشرفة على الأطم ، فرأيت المراق ، فقتت أو من سلاحهم المزاريق ! أفلا أراه هوى إلى أخى ولا أشعر ! ثم خرجت آخر النهار حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد كنت أعرف اسكشاف المسلمين وأنا على الأطم برحوع حسا إلى أقصى الأطم ، فلما رأى الدولة للمسلمين أقبل حتى وقف على حدار الأطم . قال : فلما انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ومعى سوء من الأنصار لقيته وأصحابه أوزاع ، فأول من لقيت على ابن أخى فقال : ارحمى يا عمّة ، فإنّ فى الناس تكشفا ، فقلت : رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال صالح : قلت : ادلّنى عليه حتى أراه ، فشارببه إشارة خفية ، فانهيت إليه وبه الجراحة . قال الواقدي : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم أُحُد : ما فعل عُمى ، ما فعل عُمى ! فخرج الحارث بن (الصمة يطلبه) فاطما ، فخرج على عايه السلام يطلّهُ فيقول :

يأرب إن الحارث بن الصمة كان رفيقا وبسا داذمة^(١)

قد صلّ في مهامه مهمّة يلتبس الجنة فيها ثمة^(٢)

حتى انتهى إلى الحارث ، ووجد حمرة مفتولا ، فجاء فأخبر النبي صلى الله عليه وآله ، فأقبل يمشى حتى وقف عليه فقال : ما صنعت موقعا قط أعيظ إلى من هذا الموقف . فطلعت صغية ، فقال : يا زبير ، اغن عني أمك ، وحمزة يحفر له ، فقال الزبير يا أمه ، إنّ فى الناس تكشفا ، فأرجى ، فقالت : ما أنا بفاعلة حتى أرى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما رآته قالت : يا رسول الله ، أين ابن أمى حمزة ؟ فقال : هو فى الناس ؛ قالت : لأرجع حتى أنظر إليه ، قال الزبير : ففعلت أطلّها إلى الأرض حتى دفن وقال رسول الله

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ١٥٤ مع اختلاف فى الرواية .

(٢) المهامة : جهر مهمة ، ومعى المفارة العبدة .

صلى الله عليه وآله : لولا أن تحزنَ ساؤنا لذلك لتركناه للعافية ، يعنى السباع والطير حتى يحشرَ يوم القيامة من بطونِها وحواصلِها .

قال الواقدي : ورؤي أن صفية لما جاءت حالت الأنصارُ يبسا وبين رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : دَعُوها ، فجلسَ عنده ، فجمعتُ إذا بكيت يبكي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإذا شَعتُ^(١) بشيخ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجعلتُ فاطمة عليها السلام تبكي ، ففما نكتُ بكى رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال : لن أصابَ بمثل حمزة أبدا ، ثم قال صلى الله عليه وآله لصفية وفاطمة : أشرآ ، أتانى جبرائيلُ عليه السلام فأخبرني أن حمزة مكتوبٌ في أهل السموات السبع : حمزةُ بنُ عبد المطلب أسدُ الله وأسدُ رسوله .

قال الواقدي : ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله بحمزة مثلاً شديداً ، فعمره ذلك وقال : إن طمرتُ بقرش لأمثلنَّ ثلاثين منهم ، فأمر الله عليه : ﴿ وَإِنْ عَاقَسْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَسْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾^(٢) فقال صلى الله عليه وآله : بل نصبر ، فلم يمثل بأحد من قرش .

قال الواقدي : وقام أبو قتادة الأنصاري فجعل ينال من قرش لما رأى من عم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفي كل ذلك يشير إليه أن أحسن ثلاثا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا أبا قتادة ، إن قرشا أهلُ أمانة ، من بغاهم العوائير كَبِهَ اللهَ لِعِيهِ ، وعسى إن طالت لك مدة أن تحقرَ هلك مع أعمالهم ، وفما لك مع فعالهم ،

(١) يقال : نشج الماكي ، غس بالـكاء في حلقه من غير انتعاب .

(٢) يقال : مثل جلان مثلاً ومثله بالصم : تسكل به .

(٣) سورة النحل : ١٢٦ .

لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله تعالى . فقال أبو قتادة : والله يا رسول الله ما غضبت إلا لله ورسوله حين مالوا منه ما مالوا ، فقال : صدقت . بشئ القوم كانوا النبيهم .

قال الواقدي : وكان عبد الله بن جحش قبل أن تقع الحرب قال : يا رسول الله ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا بحيث ترى ، فقد سألت الله فقلت : اللهم أقسم عليك أن تلقى العدو غداً فيقتلوني ويبقروا بطني ويمشوا بي ، فتقول لي : فمِ صنيع بك هذا ؟ فأقول : فيك . قال : وأما أسألك يا رسول الله أخرى ، أن تلي تركتي من بعدى . فقال له : نعم ، نخرج عبد الله فقتل ومثل به كل المثل ، ودُفن هو وحررة في قبر واحد ، وولي تركته رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاشترى لأمته مالا بخير .

قال الواقدي : وأقبلت أخته **(خمسة بنت جحش)** ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله : يا حنن ^(١) ، احتسبي ، قالت : من يا رسول الله ؟ قال : خالك حررة ، قالت : **(إنا لله وإنا إليه راجعون)** ^(٢) غفر الله له ورحمه ، وهدينا له الشهادة ، ثم قال لها : احتسبي . قالت : من يا رسول الله ، قال : أحولك عند الله ، قالت : **(إنا لله وإنا إليه راجعون)** ^(٣) غفر الله له ورحمه وهدينا له الشهادة ، ثم قال : احتسبي ، قالت : من يا رسول الله ؟ قال : تملك مصعب بن عمير ، فقلت : واحرنا ! ويقال : إسمها قالت : واعقرام . قال محمد بن إسحاق في كتابه : فصرحت وولوت ، قال الواقدي : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد . وهكذا روى ابن إسحاق أيضاً .

قال الواقدي : ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله : لم قلت هذا ؟ قالت ذكرت يتم بنيه فراغني . فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله لولده أن يحسن الله عليهم الخلف ،

فتزوجت طلحة بن عبيد الله ، فولدت له محمد بن طلحة ، فكان أوصل الناس لولده
مُصعب بن عمير .



القول فيمن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد

قال الواقدي : حدثني موسى بن يعقوب ، عن عنته ، عن أمها ، عن المقداد ، قال :
لما تصافى القوم للقتال يوم أحد ، جلس رسول الله صلى الله عليه وآله تحت راية
مُصعب بن عمير ، فدا قتل أصحاب اللواء وهُرم المشركون الهزيمة الأولى ، وأغار المسلمون
على معسكرهم بنهونه ، ثم كثر المشركون على المسلمين ، فاتوهم من خلفهم ، فتمزق
الناس ، ونادى رسول الله صلى الله عليه وآله في أصحاب الأثوية ، فقتل مُصعب بن عمير
حامل لوائه صلى الله عليه وآله ، وأحد رايه الحارث بن عذبة ، فقام رسول الله صلى
الله عليه وآله تحمها ، وأصحابه يحدقون به ، ودفع لواء المهاجرين إلى أبي الرثم أحد بني
عبد الدار آخر نهار ذلك اليوم ، ونظرت إلى لواء الأوس مع أسيد بن حصير ، فنادوا
للمشركين ساعة ، واقتتلوا على احتلاط من الصُفوف ، ونادى المشركون بشعارهم : يا لفرى !
يا لَهْل ! فأوحوا والله فينا قتلا ذريما ، وناولوا من رسول الله صلى الله عليه وآله ما نالوا ؛
والذى نعتهم الحق ما زال شبرا واحدا ، إنه لقي وجهه المدون وتشوب إليه طائفة من أصحابه مرة ،
وتتفرق عنه مرة ، فربما رأيت فائما يرمى عن قوسه أو يرمى بالحجر حتى تهاجزوا ، وكانت
العصابة التي ثبتت مع رسول الله صلى الله عليه وآله أربعة عشر رجلا ، سبعة من
المهاجرين ، وسبعة من الأنصار ، أما المهاجرون فعلى عليه السلام وأبو بكر وعبد الرحمن
ابن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام ،

وأما الأنصار فالحباب بن المنذر وأبو دجانة^(١) وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح والحارث ابن الصمة وسهل بن حنيف وسعد بن معاذ وأسيد بن حصير .

قال الواقدي : وقد روي أن سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة ثبتا يومئذ ولم يفرّا . ومن روى ذلك جعلهما مكان سعد بن معاذ وأسيد بن حصير .

قال الواقدي : وبايعه يومئذ على الموت ثمانية : ثلاثة من المهاجرين ، وخمسة من الأنصار ، فأما المهاجرون فعلى عليه السلام ، وطلحة ، والزبير ، وأما الأنصار فأبو دجانة والحارث بن الصمة والحباب بن المنذر وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف ، ولم يقتل منهم ذلك اليوم أحد ؛ وأما باقي المسلمين فمروا ورسول الله صلى الله عليه وآله يدعوهم في أحرام حتى انتهى منهم إلى قريب من المهراس^(٢) .

قال الواقدي : وحدثني عتبة بن جبر عن يعقوب بن عمير بن قتادة قال : ثبت يومئذ بين يديه ثلاثون رجلا كلهم يقول : وجهي دون وجهك ، ونفسي دون نفسك ، وعليك السلام غير مودّع .



قلت : قد اختلف في عمر بن الخطاب هل ثبت يومئذ أم لا ، مع اتفاق الرواة كافة على أن عثمان لم يثبت ، فالواقدي ذكر أنه لم يثبت ، وأما محمد بن إسحاق والبلاذري فجعلاه مع من ثبت ولم يفرّ ، وانفقوا كلهم على أن ضرار بن الخطاب القهري قرّع رأسه بالرمح وقال : إنها نعمة مشكورة يا ابن الخطاب ، إني آليت ألا أقتل رجلا من قريش . وروى ذلك محمد بن إسحاق وغيره ، ولم يختلفوا في ذلك ، وإنما اختلفوا ، هل قرّعه بالرمح وهو قارئ هارب ، أم مقدّم ثابت الولدين رَوَوْا أنه قرّعه بالرمح وهو هارب لم يقل

(٢) المهراس : ماء بأحد .

(١) أبو دجانة : هو سمك بن خزيمة .

أحدٌ منهم إنا هرب حين هرب عثمانُ ولا إلى الجهة التي فرَّ إليها عثمانُ، وإنما هرب معتصماً بالجبل، وهذا ليس بمريب ولا ذنب، لأنَّ الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله اعتصموا بالجبل كلُّهم وأصعدوا فيه، ولكن بقي الفرقُ بين من أصعد في الجبل في آخر الأمر ومن أصعد فيه والحربُ لم ترفع أوزارها، فإن كان عمرُ أصعد فيه آخر الأمر، فكل المسلمين هكذا صنعوا حتى رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كان ذلك والحرب قائمة بعد تفرق.

ولم يختلف الرواة من أهل الحديث في أن أبا بكر لم يهر يومئذ، وأنه ثبت فيمن ثبت، وإن لم يكن نقل عنه قتل أو قتال، ولتثبت جهاد، وفيه وحده كفاية. وأما رواة الشيعة فإيهم يروون أنه لم يثبت إلا على وطلعتوا الزبير وأبو دجاجة وسهل ابن حنيفة وعاصم بن ثابت، ومنهم من روى أنه ثبت معاربسة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، ولا يمدون أبا بكر وعمر معهم، يروى كثير من أصحاب الحديث أن عثمان جاء بعد ثلاثة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: يا ابن أبي لهبة، فقال: إلى الأعرض، فقال: لقد ذهبتَ فيها عريضة^(١).



روى الواقدي قال: كان بين عثمان أيام خلافته وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فأرسل عبد الرحمن إلى الوليد بن عقبة فدعاه، فقال: اذهب إلى أخيك فأبلغه عني ما أقول لك، فإنني لا أعلم أحداً يسلعه غيرك. قال الوليد: أفعل. قال قل له: يقول لك عبد الرحمن: شهدتُ بدرا ولم تشهدْها، وثبتُّ يوم أُحُدٍ وثبتُّ بيعة الرضوان ولم تشهدْها، فلما أخبره قال عثمان: صدق أخى، تحلفُ عن بدر على أبنِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي مريضة، فصرَّ بلى رسول الله صلى الله عليه وآله نسهي وأخرى، فكنتُ بمنزلة من

(١) في النهاية لابن الأثير: «وحدثني أحمد بن محمد بن عيسى: لقد ذهبتُ فيها مريضة، أي واسعة».

حضر بدرا ، ووليت يوم أحد ، فعفا الله عني في محكم كتابه . وأما بيعة الرضوان فإني خرجتُ إلى أهل مكة ، بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : إن عثمان في طاعة الله وطاعة رسوله ، وبابع عني يا حدي يديه على الأحرى ، فكان شمال النبي خيرا من يميني فلما جاء الوليدُ إلى عبد الرحمن بما قال قال : صدق أحى .

قال الواقدي : ونظر عمرُ إلى عثمان بن عفان فقال : هذا ممن عفا الله عنه ، وهم الذين تولوا يوم النقي الجملان ، والله ما عفا الله عن شيء فردّه . قال : وسأل رجل عبد الله بن عمر عن عثمان فقال : أذنبَ يوم أحدٍ ذبا عظيما ، فعفا الله عنه ، وأذنب فيكم ذبا صغيرا فقتلتموه ؛ واحتج من روى أن عمر فرّ يوم أحد عما روى أنه جاءته في أيام خلافته امرأة تطلب بُردا من بُرود كانت بين يديه ، وجاءت معها بنتٌ لعمر تطلب بُردا أيضا ، فأعطى المرأة ورد ابنته ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن أبا هذه ثبتَ يوم أحد ، وأبا هذه قرّ يوم أحد ولم يثبت .

وروى الواقدي أن عمر كان يحدث فيقول : أما صاح الشيطان : قُتِلَ محمد ، قلت : أرقى في الجبل كائى أروية ، وحمل بعضهم هذا حجة في إثبات فرار عمر ، وعدي أنه ليس بحجة ، لأن تمام الخبر : فأتيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله . وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْدِهِ الرُّسُلُ ﴾ ^(١) الآية ، وأوسقيان في سفح الجبل في كتيبته يرؤومون أن يعملوا الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إياه ليس لهم أن يعملونا . فأنكسروا ، وهذا يدل على أن رقيته في الجبل قد كان بعد إصعاد رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، وهذا بأن يكون مئة له أشه .

وروى الواقدي قال : حدثني ابن أبي سبرة ، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي جهم ، اسم أبي جهم عبيد ، قال : كان خالد بن الوليد يحدث وهو بالشام فيقول : الحمد لله

الذي هداني للإسلام ، لقد رأيتُ ورأيتُ عمرَ بن الخطاب حين جال المسلمون وانهزموا يومَ أحدٍ وما معه أحدٌ ، وإني لفي كتيبةٍ حَشَاءُ^(١) ، فاعرفه منهم أحدٌ غيري ، وخشيتُ إن أغريت به من معي أن يصمدوا له ، فنظرتُ إليه وهو متوجهٌ إلى الشعب .

• • •

قلت : يجوز أن يكون هذا حقاً ، ولا خلاف أنه توجهٌ إلى الشعب تاركاً للحرب ، لكن يجوز أن يكون ذلك في آخر الأمر لما يثس المسلمون من العشرة ، فكلهم توجه نحو الشعب حينئذ ، وأيضاً فإن خالداً منهم في حق عمرَ بن الخطاب لما كان بينه وبينه من الشَّغَاءِ والشَّنَّانِ ، فليس بمنسكٍ من خالد أن ينمى عليه حركاته ، ويؤكِّد صحة هذا الخبر ، وكون خالد عمًّا عن قتل عمر يومئذ ، ملهو معلوم من حال التسبب بينهما من قتل الأمِّ ، فإن أمَّ عمر حَتْمَةُ بنتِ هاشم بن النعميرة ، وخالد هو ابن الوليد بن النعميرة ، فأمَّ عمر ابنة عم خالد لعمَّا ، والرحيم تطفئ

حصرتُ عند محمد بن معدِّ العلويِّ الموسويِّ الفقيه على رأي الشيعة الإمامية رحمه الله في داره بدرج الدوابِّ سعداداً في سة ثمانٍ وستيناً ، وقارى ، يقرأ عنده معارضي الواقدي ، فقرأ : حدثنا الواقدي قال : حدثني ابنُ أبي سبرة ، عن خالد بن رباح ، عن أبي سفيان مولى ابن أبي أحمد قال : سمعتُ محمد بن مَلْعة يقول : سمعتُ أذكأى وأبصرتُ عنهاى رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول يومَ أحدٍ وقد اسكشف الناس إلى الجبل ، وهو يدعوهم وهم لا يأتون عليه ، سمعته يقول : إلى يافلان ، إلى يافلان ، أما رسولُ الله ، فاعرج عليه واحدٌ منهما ومضياً ، فأشار ابنُ معدِّ إلى ، أن اسمع ، فقلت : وما في هذا ؟ قال : هذه كناية عنهما ، فقلت : ويجوز ألا يكون عنهما ، لعله عن غيرهما . قال : ليس في الصعابة من

(١) كتيبة حشَاء : كثيرة السلاح .

يحتشم ويستحي من ذكره بالفرار وما شابه من العيب ، فيضطر القائل إلى الكفاية إلاها
قلت له : هذا وهم^(١) ، فقال : دَعْنَا مِنْ جَدَلِكَ وَمَنْعِكَ ، ثم حلف أنه ما عني الواقدي
غيرهما ، وأنه لو كان غيرهما لذكره صريحاً ، وبأن في وجهه التنكر من مخالفتي له .



رَوَى الواقدي قال : لما صالح إبليس : إن محمداً قد قُتِلَ ، تفرق الناس ، فمنهم من
ورد المدينة ، فكان أول من وردها يُخبر أن محمداً قد قُتِلَ ، سعدُ بن عثمان أبو عبادة ، ثم
ورد بعده رجال حتى دخلوا على سائهم حتى حمل النساء يقطن : أعن رسول الله يعرفون ؟
ويقول لم ابن أم مكتوم : أعن رسول الله تعرفون ؟ يؤتب بهم ، وقد كان رسول الله
صلى الله عليه وآله خلقه بالمدينة يصل باليس ، ثم قال : دَلَّوْنِي عَلَى الطَّرِيقِ - يسي طريق
أحد - فدَلَّوْهُ ، فجعل يستخير كل من تقى في الطريق حتى لحق القوم ، فعلم سلامة النبي
صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع . وكان ممن ولي الأمر وعثمان والحارث بن حاطب وثعلبة
ابن حاطب وسواد بن غزيرة وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان وحارسة بن عمر بلع مثل^(٢) ،
وأوس بن قَيْظِي في نفر من بني حارثة بلعوا الشقرة^(٣) ولقيتهم أم أيمن تمحي^(٤) في
وجوههم التراب وتقول لبعضهم : هالك الممرل فاعزِلْ به ، وهلم . واحتج من قال بفرار
عمر بما رواه الواقدي في كتاب المعاري قصة الحديبية ، قال : قال عمر يومئذ :
يا رسول الله ، ألم تكن حدثتني أنك ستدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة وتعرف
مع المعرفين ، وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نُحَرِّ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله :
أقلت لكم في سفركم هذا ؟ قال عمر : لا ، قال : أما إنكم ستدخلونه وآخذ مفتاح الكعبة
وأخلق رأسي ورموسكم بطن مكة وأعرف مع المعرفين ؛ ثم أقبل على عمر وقال : أنسيتم يوم

(١) كما في ب : والذي في « مجموع » .

(٢) مثل ؛ كجبل - موضع بهبه . (٣) الشقرة : موضع معروف لبني سليم .

(٤) يقال : حشا التراب في وجهه يحنوه ويحببه ، إذا رماه به .

أُحَدِّثُكُمْ ، ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ﴾ ^(١) وَأَنَا أَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ! أَنْتِمْ يَوْمَ
الْأَحْزَابِ ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ رَاغَبِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
الْحَنَاجِرَ ﴾ ^(٢) ! أَنْتِمْ يَوْمَ كَذَبَا وَجَعَلْ يَدُكُمْ أَمْوَارًا ، أَنْتِمْ يَوْمَ كَذَبَا فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ :
صَدَقَ اللَّهُ وَصَدَّقَ رَسُولُهُ ، أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْلَمُ بِاللَّهِ مِنَّا ، فَلَمَّا دَخَلَ عَامَ الْقَضِيَّةِ وَحَلَقَ
رَأْسَهُ قَالَ : هَذَا الَّذِي كُنْتُ وَعَدْتُكُمْ بِهِ ، طَافَ كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَأَخَذَ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ
قَالَ : ادْهُوا إِلَيَّ هَرَبَ بْنَ الْخَطَّابِ ، فَجَاءَ فَقَالَ : هَذَا الَّذِي كُنْتُ قُلْتُ لَكُمْ . قَالُوا :
فَلَوْلَا لَمْ يَكُنْ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ لَمَا قَالَ لَهُ : أَنْتِمْ يَوْمَ أَحَدٍ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ .

• • •

القول فيما جرى للمسلمين بعد إسعادهم في الجبل

قال الواقدي : حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي رَافِعٍ ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ : لَمَّا صَاحَ الشَّيْطَانُ
لِعِيسَى اللَّهِ : إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ يَحْزَنُهُمْ بِنُفْلِكَ ، فَتَرَفُوا فِي كُلِّ وَجْهِ ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَمْرُونَ عَلَى
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَا يَلْوِي عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، وَرَسُولُ اللَّهِ يَدْعُوهُمْ فِي أُخْرَاهُمْ ، حَتَّى انْتَهَتْ
هَزِيمَةُ قَوْمٍ مِنْهُمْ إِلَى الْبُحَيْرَةِ ، فَتَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرِيدُ أَصْحَابَهُ فِي الشُّعْبِ
فَإْتَهَى إِلَى الشُّعْبِ أَصْحَابَهُ فِي الْجَبَلِ أَوْزَاعَ ، يَذْكُرُونَ مَقْتَلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ ، وَيَذْكُرُونَ
مَا جَاءَهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ عَرَفَهُ عَلَيْهِ
الْمِنْقَرُ ، فَجَعَلْتُ أَصْبَحُ وَأَنَا فِي الشُّعْبِ : هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيٌّ ، فَجَعَلَ
يُؤْمِسُ إِلَيَّ بِيَدِهِ عَلَى فَيْهِ أَيْ اسْكُتْ ، ثُمَّ دَعَا بِالْأَمْتِ ^(٣) فَلَبِسَهَا وَنَزَعَ لَأَمْتَهُ .
قال الواقدي : طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الشُّعْبِ بَيْنَ السَّعْدَيْنِ :

(٢) سورة الأحزاب : ١٠ .

(١) سورة آل عمران ١٥٣ .

(٣) اللأمة : المنع .

سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، وسعد بن مُعَاذٍ يَتَكَنَّفُ فِي الدَّرْعِ ، وَكَانَ إِذَا مَشَى تَكَنَّفًا تَكْفُؤًا ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ كَانَ يَقُوْكَأُ عَلَى طَلْحَةٍ مِنْ عُيَيْدِ اللَّهِ .

قال الواقدي : وما صلى يومئذ الظهر إلا جالساً للجرح الذي كان أصابه .

قال الواقدي : وقد كان طلحة قال له : إِنْ بِي قُوَّةٌ ، قُمَ لِأَجْلِكَ ، فحملَه حتى انتهى إلى الصخرة التي على فم شِيبِ الجَلِّ ، فلم يزل يحميه حتى رفعه عليها ثم مضى إلى أصحابه ومعه الثغر الذين ثبتوا معه ، فلما نظر المسلمون إليهم طمّوهم قُرَيْشًا ، فجعلوا يوثقون في الشعب هارين منهم ، ثم جعل أبو دجانة يُبيح إليهم بعمامة حمراء على رأسه ، فمروهم فرجعوا ، أو بعضهم .

قال الواقدي : ورأى أنه لما طلع عليهم في الثغر الذين ثبتوا معهم أربعة عشر ، سبعة من المهاجرين ، وسبعة من الأنصار - حملوا يولون في الجبل خائفين منهم يظنّونهم للشركيين ، جعل رسول الله صلى الله عليه وآله يتبهم إلى أي نكر وهو على حنبه ويقول له : أليح إليهم ، فعزل أبو نكر يليح إليهم وهم لا يبرحون حتى نزع أبو دجانة عصاية حمراء على رأسه فأوثق^(١) على الجبل ، فعزل بصيح ويليح ، فوقفوا حتى عرفوهم . ولقد وضع أبو بردة بن أبيارسهما على كبد قومه ، فراد أن يرمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فلما تكلموا وادام رسول الله صلى الله عليه وآله أمسك ، ومرح المسلمون برؤيته حتى كأنهم لم نعههم في أنفسهم مصيبة ، وسرّوا لسلامته وسلامتهم من المشركين .

قال الواقدي : ثم إن قوما من قريش صعدوا الجبل فعلّوا على المسلمين وهم في الشعب . قال : فكان رافع بن خديج يحدث فيقول : إني يومئذ إلى جنب أبي مسعود الأنصاري وهو يذكر من قتل من قومه ، ويسأل عنهم ، فيخبر رجالاً : منهم سعد بن

(١) أوثق : أشرف وعلا .

الزبيح ، وخارجة بن زهير ، وهو يسترجع^(١) ويترحم عليهم ، وبعض المسلمين يسأل بعضا عن حيمه وذى رحمه فيهم ، يخبر بمعصم نعضا ، فينتام على ذلك رد الله المشركين ليذهب ذلك الحزن عنهم ، فإذا عدوهم فوقهم قد علوا ، وإذا كتائب المشركين بالجبل ، قسوا ما كانوا يذكرون ، وثدبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وحصنا على القتال ، والله لكأني أنظر إلى فلان وفلان في عرض الجبل يمدوان هاربين .

قال الواقدي : فكان عمر يحدث بقول ، لما صاح الشيطان : قتل محمد ، أقبلت أرق إلى الجبل ، فكأني أروية ، فانهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الآية ، وأبو سفيان في سفتح الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو ربه : اللهم ليس لهم أن يعولوا . فاكثفوا .

قال الواقدي : فكان أبو أسيد الساعدي يحدثك فيقول : لقد رأيتنا قبل أن يلقى النعاس عليا في الشعب وإنما سلم لم أرادنا ، ولما لنا من الحزن ، فالتقى علينا النعاس ، ففما حتى تناطح الححف^(٢) ، ثم فزعنا وكأنا لم يصيب قبل ذلك شربة . قال : وقال الزبير ابن العوام : عشنا النعاس ففما رحل إلا ودقته في صدره من الموم ، فسمع معتب بن قشير - وكان من المناقين - يقول : وإني لكألم : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ﴾^(٣) ، فأنزل الله تعالى فيه ذلك .

قال : وقال أبو اليسر : لقد رأيتني ذلك اليوم في رجال من قومي إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أرل الله عينا النعاس أمنة منه ، فامنهم رجل إلا يعط غطيظا حتى إن الححف لتناطح ، ولقد رأيت سيف شر من البراء بن معرور سقط من يده

(١) استرجع : قال : لما فقه وإنا إليه راجعون .

(٢) الححف بالتحريك : جمع حجة ؛ وهي الترس .

(٣) سورة آل عمران : ١٥٤ .

وما يشعر به حتى أخذه بعد ما نزل ، وإنَّ الشركين لَمُتَّعْنَا ، وسَقَطَ سيفُ أبي طلحة أيضا ولم يُصِبْ أهلَ الشكِّ والنفاق نَاسٌ يومئذٍ ، وإنما أصاب النعاس أهلَ الإيمان واليقين ، فكان المناقون يتكلم كلُّ منهم بما في نفسه ، وللؤمنون ناعسون .

قلت : سألتُ ابنَ النجَّار المحدثَ عن هذا الموضع قلت له : من قصَّة أحد تدلُّ على أنَّ المسلمين كانت الدولة لهم بادي الحال ، ثم صارت عليهم ، وصاح الشيطان : قُتل محمد ، فانهزم أكثرهم ، ثم تاب أكثر المهزَّمين إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فغار بواديه حرَّبا كثيرة طالت مدَّتها حتى صار آخرُ النهار ، ثم أصدعوا في الجبل معتصمين به ، وأصدع رسول الله صلى الله عليه وآله معهم ، فتعاضد العريقان حينئذٍ ، وهذا هو الذي يدلُّ عليه تأمل قصَّة أحد ، إلا أنَّ بعض الروايات التي ذكرها الواقدي يقتضي غير ذلك ، نحو روايته في هذا الباب أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما صاح الشيطان : إنَّ محمدا قد قُتل ، كان ينادي المسلمين فلا يمرُّ جون عليه ، وإنما يصعدون في الجبل ، وإبته وحده نحو الجبل ، فانهى إليهم وهم أوراغ يتذاكرون بقتل من قُتل منهم ؛ وهذه الرواية تدلُّ على أنَّه أصدع صلى الله عليه وآله في الجبل من أوَّل الحرب ، حيث صاح الشيطان ، وصياحُ الشيطان كان حال كونه خالد بن الوليد بالجبل من وراء المسلمين لما غشيهم وهم مشتغلون بالنهب واختلط الناس ، فكيف هذا ؟

فقال : إنَّ الشيطان صاح . قتل محمد دفعتين : دفعة في أوَّل الحرب ، ودفعة في آخر الحرب ، لما نصرَّم النهار وعشيت الكتائب رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قُتل ناصروه وأكلتهم الحرب ، فلم يبق معه إلا نفر يسير لا يبلغون عشرة ، وهذه كانت أصعب وأشدُّ من الأولى ، وفيها اعتصم ، وما اعتصم في صرحة الشيطان الأولى بالجبل ، بل ثبت وساحى عنه أصحابه ، ولقد لقي في الأولى مشقة عظيمة من ابن قبيصة وعُتْبة بن أبي وقاص وغيرهما ،

ولكنه لم يفارق عزيمة الحرب ، وإنما فارقها وعلم أنه لم يبق له وجه مُقام في صرخته الثانية .

قلت له : فكان القوم مختطفين في الصرخة الثانية حتى يصرخ الشيطان : قُتِلَ مُحَمَّدٌ ! قال : نعم : للشركون قد أحاطوا بالنبي صلى الله عليه وآله وعن بقي معه من أصحابه ، فاختلط المسلمون بهم ، وصاروا مضورين بينهم ، لقتلهم بالنسبة إليهم ؛ وظن قوم من المشركين أنهم قد قتلوا النبي صلى الله عليه وآله لأنهم فقدوا وجهه وصورته ، فنادى الشيطان : قُتِلَ مُحَمَّدٌ ، ولم يكن قُتِلَ صلى الله عليه وآله ، ولكن اشتبهت صورته عليهم وظنوه غيره ، وأكثر من حامي عنه في تلك الحال على عليه السلام وأبو دُجانة وسهل ابن حنيف ، وحامي هو عن نفسه ، وخرج قوما بيده تارة بالسهم ، وتارة بالسيف ولكن لم يعلموا بأعيانهم لاختلاط القوم ^(١) ونور ^(٢) النفع ، وكانت قريش تظنه واحداً من المسلمين ، ولو عرفوه بعينه في تلك الثورة لكان الأمر صعباً جداً ، ولكن الله تعالى عصمه منهم بأن أزعج أبصارهم عنه ، فلم يزل هؤلاء الثلاثة يحاللون دونه ، وهو يقرب من الجبل حتى صار في أعلى الجبل ، أصعد من قم الشئب إلى تدرج هناك في الجبل ، وركب في ذلك التدرج صاعداً حتى صار في أعلى الجبل ، وتبعه نفر الثلاثة فلحقوا به .

قلت له : فما بال القوم الذين صعدوا الجبل من المشركين ، وكيف كان إصعادهم وعزودهم ؟

قال : أصعدوا لحرب المسلمين لا يطلب رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لأنهم ظنوا أنه قد قُتِلَ ، وهذا هو كان السبب في عزودهم من الجبل ، لأنهم قالوا : قد بلغنا الغرض

(١) النفع : غبار الحرب .

الأصل: وقتلنا عمداً ، فإلنا والتصميم على الأوس والخزرج وغيرهم من أصحابه ، مع ما في ذلك من عظم الخطر بالأنفس !

قلت له : فإذا كان هذا قد خَطَرَ لهم ، فماذا صعدوا في الجبل .

قال : يحظر لك خاطر ، ويدعوك دايغ إلى بعض الحركات ، فإذا شرعت فيها خَطَرَ لك خاطر آخر بصرفك عنها ، فترجع ولا تتمها !

قلت : نعم فما لهم لم يقصِدوا قصد المدينة ويهبوها ؟

قال : كان فيها عبدُ الله بن أبي وثلثائة مقاتل وفيها خلق كثير من الأوس والخزرج ، لم يحصروا الحرب وهم مسمون ، وطوائف أخرى من اللساقين لم يحرقوا ، وطوائف أخرى من اليهود ، أو ثوب ناس وقوة ، ولم بالمدينة عيال وأهل وساء ، وكل هؤلاء كانوا يحامون عن المدينة ، ولم تكن قريش تأمن مع ذلك أن يأتيها رسول الله صلى الله عليه وآله من ورأها عن يمامة من أصحابه ليحصلوا بين الأعداء من حلفهم ومن أمامهم ، فكان الرأي الأصوب لهم العدول عن المدينة وترك قصدها .

• • •

قال الواقدي : حدثني الصحاح بن عثمان ، عن حمزة بن سعيد ، قال : لما تحاحروا وأراد أبو سفيان الانصراف ، أقبل يسير على فرس له حوراء ^(١) ، فوقف على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم في عرض الجبل ، فنادى بأعلى صوته : أعل هتل ثم صاح : أين ابن أبي كبشة ؟ يومٌ بيوم بدر ، ألا إن الأيام دُول .

وفي رواية أنه نادى أبا بكر وعمر أيضاً ، فقال : أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطّاب ؟ ثم قال : الحربُ سجال ، حطلة محطلة ، يعني حنظلة بن أبي عامر محنظلة بن

(١) حوراء : واسعة العينين .

أبو سفيان ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، أجيئه ؟ قال : نعم فأجيئه ، فلما قال : أعل
هل قال عمر : الله أعلى وأجل .

ويُروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر : قل له : الله أعلى وأجل ، فقال
أبو سفيان : إن لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال عمر : أو قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : قل له : الله مولانا ولا مولى لكم ، فقال أبو سفيان : إنها قد أنمت ، فقال : عنها
بابن الخطاب ، فقال سعيد بن أبي سفيان : ألا إن الأيام دول وإن الحرب سجال ، فقال
عمر : ولا سواء^(١) ؛ قتلا ما فى الجنة وقتلاكم فى النار ، فقال أبو سفيان : إنكم لتقولون ذلك لقد جئنا
إذنا وحسبنا ، ثم قال : بابن الخطاب ، قم إلى أكرمك : فقام إليه فقال : أنشدك مدينتك : هل
قتلنا محمدا ؟ قال : اللهم لا ، وإياه ليسمع كلامك الآن ، قال : أت عدى أصدق من ابن
قينة ، ثم صاح أبو سفيان ورفع صوته : إنكم وأجدون فى قتلاكم عتقا ومثلا ، ألا إن ذلك
لم يكن عن رأى سراتنا ، ثم أدركته نحية الجاهلية فقال : وأما إذ كان ذلك فلم يكرهه ؟
ثم نادى : ألا إن موعدكم بدر الصفراء ، على رأس الحول ، فوقف عمروقة ينتظر ما يقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : قل : نعم ، فانصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا
فى الرحيل ، فاشفق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من أن يعبروا على المدينة فيهلك
الفرارى والنساء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لسعد بن أبي وقاص : اذهب فأتنا بمنحبر
القوم ، فإياهم يركبوا الإبل وجنبوا^(٢) الخيل فهو الطعن إلى مكة ، وإن ركبوا الخيل وجنبوا
الإبل فهو الفارة على المدينة ، والذي نفسى بيده ، إن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم
لأناجزنهم . قال سعد : فتوجعت أسمى وأرصدت نفسى إن أفرغنى شيء رجعت إلى
النبي صلى الله عليه وسلم وأما أسمى ، فبدأت بالسعى حين ابتدأت ، فخرجت فى آثارهم

(١) ولا سواء : يعنى لا يستوى هذا وهذا .

(٢) جنبوا الخيل ، أى ساقوها إلى جانبهم .

حق إذا كانوا بالعقيق^(١) وأنا بحيث أراهم وأنا منهم ركبوا الإبل وجنبوا الحيل، فقلت: إنه الظعن إلى بلادهم، ثم وقفوا وقفة بالعقيق، وتشاوروا في دخول المدينة، فقال لهم صفوان ابن أمية: قد أصبتم القوم، فانصرفوا ولا تدخلوا عليهم وأنتم كالثون، ولكم الظفر، فإنكم لا تدرون ما ينشأكم، فقد وليتم يوم بدر، لا والله ما نبعوكم وكان الظفر لهم. فيقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بهم صفوان. فلما رأهم سعد على تلك الحال منطلقين وقد دخلوا في المكن رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كالسكر فقال: وجه القوم يا رسول الله إلى مكة، امتطوا الإبل وجنبوا الحيل. فقال: ماتقول؟ قلت: ما قلت يا رسول الله، غلا بن قتل: أحفأ ماتقول؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: فما بالي رأيتك مسكرا؟ فقلت: كرهت أن آتي المسلمين فحاجبهم إلى بلادهم، فقال صلى الله عليه وسلم: إن سعدا لخرب. قال الواقدي: وقد روى جلاب هذا، روى أن سعدا لما رجع رفع صوته بأن حنوا الحيل، وامتطوا الإبل، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير إلى سعد: خفض صوتك فإن الحرب خدعة، فلا ترى الناس مثل هذا الفرح بانصرافهم، فلما ردهم الله تعالى.

قال الواقدي: وحدثنني ابن أبي سبرة، عن يحيى بن شبل، عن أبي حنيفة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: إن رأيت القوم يريدون المدينة فأخبرني فيما بيني وبينك، ولا تفت في أعصاب المسلمين، فذهب فرأهم قد امتطوا الإبل، فرجع، فما ملك أن جعل يصيح سرورا بانصرافهم.

قال الواقدي: وقيل لمعرو بن العاص: كيف كان افتراق المسلمين والمشركين يوم

(١) العقيق: موضع بالمدينة فيه عوو ونخيل. (بغوت).

أحد ؟ فقال : ما تريدون إلى ذلك ! قد جاء الله بالإسلام ، ونفى الكفر وأهله ، ثم قال :
 لما كررنا عليهم أصبنا من أصبنا منهم وتفرقوا في كل وجه ، وفامت لهم فقة بعد ؛
 فتشاورت قريش ، فقالوا : لنا العلبة ، فلو انصرفنا ، فإنه بلغنا أن ابن أبي انصرف بثلاث
 اللباس ، وقد تحلف الناس من الأوس والخزرج ، ولا تأمن أن يكرؤا علينا ، وفينا جراح ،
 وخيلنا عامتها قد عقرت من السبل ، فمضينا ، فما بلغنا الروحاء ^(١) حتى قام علينا عدة منها ؛
 وانصرفنا إلى مكة .

قال الواقدي : حدثني إسحاق بن يحيى بن طلحة ، عن عائشة ؛ قال : سمعت أبا بكر
 يقول : لما كان يوم أحد ورأي رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه حتى دخلت في وجهه
 حلقتان من المغفر ، ، أقبلت أسمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسان قد أقبل من
 قتل المشرق بطير طيراما ، فقلت : **اللهم اجعله حلقة بن عبيدة** ؛ حتى توافقنا إلى
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أبو عبيدة بن الجراح ، فبدرى فقال : أسألك بالله
 يا أبا بكر ألا تركتني فأترعه من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو بكر :
 فتركته . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم صاحبكم » ، يعني طلحة ، فأخذ
 أبو عبيدة شتيته حلقة المغفر ، فترعها وسقط على ظهره ، وسقطت ثنية أبي عبيدة ، ثم
 أخذ الحلقة بشيئته الأخرى ، فكان أبو عبيدة في الناس أنرم ^(٢) . ويقال : إن الذي نزع
 الحلقة من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبة بن وهب بن كلفة ؛ ويقال : أبو اليسر .
 قال الواقدي : وأثبت ذلك عندما عقبة بن وهب بن كلفة .

قال الواقدي : وكان أبو سعيد الخدري يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الروحاء : موضع على أربعين ميلا من المدينة .

(٢) الأنرم : الذي لا أستان له .

أصيب وجهه يوم أحد ، فدخلت اعطفتان من المغفرى وحنثيه ، فلما نزعنا جعل الدم يسرب كما يسرب الشن^(١) ، فجعل مالك بن سنان يمسح الدم فيه ، ثم اردرده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحب أن ينظر إلى من خالط دمه بدى فليُنظر إلى مالك بن سنان . فقيل لمالك : تشرب الدم ! فقال : نعم ؛ أشرب دم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من مس دمه دى لم نصبه النار » . قال الواقدي : وقال أبو سعيد : كنت تمر رد من الشيعين^(٢) لم نجى مع المقاتلة ، فلما كان من النهار بلمنا مصاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتفرق الناس عنه ، جثت مع غلمان بني خندرة تعرض لرسول الله صلى الله عليه وآله ننظر إلى سلامته ، فرجع بذلك إلى أهلنا ، فلقينا الناس متفرقين سنان قنات ، فلم يكن لنا حمة إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، ننظر إليه ؛ فلما رأيته قال : سبهم^(٣) مالك ! قلت : نعم ، نأى أنت وأمى ! ودنوت منه ، فقلت ركبتة وهو على فرسه ؛ فقل : أحرك الله في أميك ! ثم بطرت إلى وجهه ، وإذا في وحنثيه مثل موضع الدرم في كل وحة ، وإذا شحة في حبهته عند أصول الشعر ، وإذا شفته السفلى تدمى ، وإذا في رباعيته اليمنى شطية ، وإذا على جرحه شىء أسود ، فسألت : ما هذا على وجهه ؟ فقالوا : حصير محرق . وسألت : من أذى وحنثيه ؟ فقيل : ابن قميثة ، فقلت : فمن شجته ووجهه ؟ فقيل : ابن شهاب ؛ فقلت : من أصاب شفتيه ؟ قيل : عتبة بن أبي وقاص . طعنت أعدو بين يديه حتى نزل بياحه ، ما نزل إلا محمولا ، وأرى ركبتيه مححوشتين^(٤) يتسكع [على]^(٥) السفدين : سعد بن معاذ وسعد ابن عباد ؛ حتى دخل بيته ، فلما غربت الشمس وأذن بلال بالصلاة ، خرج على تلك الحال

(١) الشن : القرمة الخلق .

(٢) الشيعان : موضع بالندية ؛ كان به معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وما أظلم سباه .

(٣) يقال : حش الجلد : سحجه ؛ وهو كالخمش أو فوقة .

(٤) من أ .

يتوكلًا على السَّعْدَيْنِ : سعد بن عباد وسعد بن معاذ ، ثم انصرف إلى بيته والناس في المسجد يوقدون النيران يتمكدون بها من الجراح ، ثم أذن بلالٌ بالعشاء حين غاب الشفق ، فلم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس بلالٌ عند بابه صلى الله عليه وسلم حتى ذهب ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة يا رسول الله ! فخرج ، وقد كان نائمًا ، قال : فرمقته فإذا هو أخف في مشيته منه حين دخل بيته ، فصلبت معه العشاء ، ثم رجع إلى بيته قد صغف له الرجال ما بين بيته إلى مُصَلَّاهُ يمشى وحده حتى دخل ، ورحمتُ إلى أهلي فحترتهم بسلامته ، فحمدوا الله ونموا ، وكأت وحوه الأوس والخزرج في المسجد على النبي صلى الله عليه وسلم يحرسونه فرقًا من قریش أن تكرر .

قال الواقدي : وحررت فاطمة عليها السلام في ساء ، وقد رأت الذي يوجه أبيها صلى الله عليه وسلم ، فاعتنقته ، وحملت تمسح الدم عن وجهه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اشتدَّ عصبُ الله على قومٍ دَمَوْا وجهَ رسوله ، وذهب على عليه السلام فأتى بماء من المنهراس ، وقال : لفاطمة اميكي هذا السيف غير ذميم ، فطر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم محتصبا بالدم ، فقال : لئن كنت أحست القتال اليوم ، فلتد أحسن عاصم بن ثابت والحارث بن الصمة وسهل بن حنيف ، وسيف أبي دُجاعة غير مذموم ؛ هكذا روى الواقدي .

وروى محمد بن إسحاق أن عليًا عليه السلام قال لفاطمة بيتي شعر ، وهما :

أفأطيم هاء السيف غير ذميم فليست برغد يدٍ ولا بلثيم
لعمري لقد جاهدتُ في نصر أحدٍ وطاعة ربٍّ بالعباد رحيم

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لئن كنت صدقت القتال اليوم لقد صدق معك سمالك بن خزيمة ، وسهل بن حنيف .

قال الواقدي : فلما أحصر عليّ عليه السلام ، الماء أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرب منه ، فلم يستطع ، وقد كان عطشاً ، ووجد رجلاً من الماء كرهها ، فقال : هذا ماء آجن ، فتمضمض منه للدم الذي كان بفيه ثم بجه ، وغسلت فاطمة به الدم عن أيها صلى الله عليه وسلم ، فخرج محمد بن مسعدة يطب مع النساء ، وكن أربع عشرة امرأة ، قد حنن من المدينة يتلقين الناس من فاطمة عليها السلام يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويستقن الجرحى ويدأوينهم .

قال الواقدي : قال كعب بن مالك : رأيت عائشة وأم سليم على ظهورهما القرب تحملانها يوم أحد ، وكانت تحمة بنت حنشل نسق العطشى وتداوى الجرحى ، فلم يجد محمد بن مسعدة عندهن ماء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عطشه ، فذهب محمد بن مسعدة إلى قباء ومعه سقاؤه حتى استقى من حصى - قباء عند قصور التميميين اليوم - فماء بهاء عذب ، فشرب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه بهير ، وحمل الدم لا ينقطع من وجهه عليه السلام وهو يقول : لبي يا لواءنا منها حتى نستلم الركن ! فلما رأت فاطمة الدم لا يرقا وهي تنسل حراجه ، وعليّ يصب الماء عليها بالحن ، أحبت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادا ، ثم ألصقته بالجرح ، فاستمسك الدم . ويقال : إنها داوته بصوفة محرقة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمد يداوى الجراح الذي في وجهه بمغفر بال حتى ذهب أثره . ولقد مكث يمد وهن ضربة ابن قبيصة على عاتقه شهرا أو أكثر من شهر ، ويدأوى الأثر الذي في وجهه بمغفر .

قال الواقدي : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن ينصرف إلى المدينة : من يأتينا بخبر محمد بن الربيع أفأني رأيتمو أشد بيده إلى ناحية من الوادي - قد شرع فيه اثنا عشر سنانا ، فخرج محمد بن مسعدة - ويقال أي بن كعب - نحو تلك الناحية . قال : فأما وسط القتلى لتعرفهم ، إذ صهرت به صريعا في الوادي ، فناديه فلم يجب ، ثم قلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني إليك ، قال : فتنفّس كما يتنفس الطير ، ثم قال :

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لحق^(١) ! قلت : نعم ، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثنا عشر سنة ، فقال : طعنت اثنتي عشرة طعنة كلها أجافتي ، أبلغ قومك الانتصار السلام وقل لهم : الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ! والله مالكم عذر عند الله إن خلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف ؛ فلم أرم^(٢) من عنده حتى مات ؛ فرحمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فرأيت استقبل القبلتراقفا يديه يقول : « اللهم ألق سعد بن الربيع وأنت عنه راض » .

قال الواقدي : وخرجت السداء بنت قيس ؛ إحدى نساء بني دينار ، وقد أصيب أبوها مع النبي صلى الله عليه وآله بأحد : التمن بن عبد عمر ، وشليم بن الحارث ، فلما نجا لها قالت : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قالوا : بحير ، هو بحمد الله صالح على ماتحيين ، فقالت : أرؤييه أنظر^(٣) إليه ، فأشاروا له إليه ، فقالت : كل مصيبة سددك يا رسول الله جل^(٤) ! وخرجت تسوق^(٥) بأنبياء يعيا ، [تردحا إلى المدينة]^(٦) ؛ فلقينها عائشة ؛ فقالت : ما وراءك ؟ فأخبرتها^(٧) ؛ قالت : فني هؤلاء معك ؟ قالت ابناي ؛ حل^(٨) .
حل^(٩) .

قال الواقدي . وكان حمزة بن عبد المطلب أول من جرى به إلى النبي صلى الله عليه وآله بعد انصراف قريش - أو كان من أولهم - فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال : رأيت الملائكة تعمله - قالوا : لأن حمزة كان جُنا ذلك اليوم ولم يغسل رسول الله صلى الله عليه وآله الشهداء يومئذ ، وقال : لغوم بدمائهم وحراحهم ، فإنه ليس أحد يخرج في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة لون حُرجه لون الدَّم ، وريحه ريح المسك ، ثم

(١) لم أرم : لم أبرح . (٢) حلل ، أى هبته . (٣) من الواقدي .
(٤) في الواقدي : قالت : أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فحجر لم يعت ، وأخذ الله من المؤمنين شهداء : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْطِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَرَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ .
(٥) حل : زجر للجر .

قال : ضُوم قانا الشهيد على هؤلاء يوم القيامة ، وكان حمزة أول من كُبر عليه أربعا ، ثم جمع إليه الشهداء فكان كلما أتى شهيد وُصِع إلى جنب حمزة فصلى عليه وعلى الشهيد ، حتى صلى عليه سبعين مرة ، لأن الشهداء سبعون .

قال الواقدي . ويقال : كان يؤتى تسعة وحمرة عاشرهم ، فيصلى عليهم ، وترفع التسعة ، ويُترك حمزة مكانه ، ويؤتى تسعة آخري فيوصون إلى جنب حمزة فيصلى عليه وعلى عاشرهم ، حتى فعل ذلك سبع مرات ، ويقال : إنه كُبر عليه حمسا وسبعا وتسعا .

قال الواقدي : وقد اختلفت الرواية في هذا ، وكان طلحة بن عبيد الله وابن عباس وجابر بن عبد الله يقولون : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى أحد ، وقال : « أنا شهيدٌ على هؤلاء » ؛ فقال أبو بكر : أتبا إخوانهم أسلما كما أسماوا ، وحاهدا كما حاهدوا ! قال : بلى ، ولكن هؤلاء لم يبا كلهم من أحقرهم ، شيئا ، ولا أدرى ما تجدون بعدى ! فبكى أبو بكر وقال : إنا لكائون بعدك !

وقال أنس بن مالك وسعيد بن مسيب : لم يصل رسول الله صلى الله عليه وآله على قتلى أحد .

قال الواقدي : وقال لأهل القتل : احمروا وأوسموا وأحسروا ، وادفوا الأثمين والثلاثة في القبر ، وقدموا أكثرهم قرأا . وأمر بحمزة أن تمد برؤسها عليه وهو في القبر ، وكانت قصيرة ، فكانوا إذا خروا بها رأسه بدت رحلاه ، وإذا خروا بها رجليه انكشف وجهه ، فمكى المسلمون يومئذ ، فقالوا . يا رسول الله : عم رسول الله يُقتل فلا يوحد له ثوب ! فقال : بلى ؛ إلكم بأرض حرورية^(١) ذات أحجار ، وستفتح - يعني الأرياف والأمصار - فيخرج الناس إليها ، ثم يبعثون إلى أهلهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ؛

(١) حرورية ؟ قال الواقدي : التي ليس بها شيء من الأشجار .

والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُصِيرُ نَفْسٌ عَلَى الْأَوَائِهَا وَشِدَّتِهَا إِلَّا كُنْتُ لَهَا شَفِيعًا - أَوْ قَالَ :
شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

قال الواقدي : وَأَتَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي خِلَافَةِ عُمَانَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ وَطَعَامُ قَالَ :
وَلَكِنْ هِزْءٌ لَمْ يُوحِذْ لَهُ كُفْنٌ ، وَمُصْعَبُ بْنُ عُجَيْرٍ لَمْ يُوحِذْ لَهُ كُفْنٌ ، وَكَانَا
خَيْرًا مِنِّي !

قال الواقدي : وَمرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِمُصْعَبِ بْنِ عُجَيْرٍ وَهُوَ مُقْتُولٌ
مَسْجُوعٌ بِبُرْدَةٍ حَلَقٍ ، فَقَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُكَ عَمَكَوَمَا بِهَا أَحَدٌ أَرْقَ حُلَّةً وَلَا أَحْسَنَ لِمَتْمَتِكَ ،
ثُمَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَشْعَثُ الرَّاسِ فِي هَذِهِ الْبُرْدَةِ ! ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَقُبِرَ ، وَبُرِكَ فِي قَبْرِهِ أَحْوَاهُ أَبُو
الرُّومِ وَعَاصِرُ بْنُ رَبِيعَةَ وَسُوَيْبَةُ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرْمَلَةَ ، وَزُلْ فِي قَبْرِ حَمْرَةَ عَلَى اللَّهِ عَلَيْهِ
السَّلَامُ وَالزُّبَيْرُ وَأَبُو نَكْرٍ وَعُمَرُ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ جَالِسٌ عَلَى حَمْرَتِهِ .

قال الواقدي : ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ أَوْ عَامِيَهُمْ تَحَبَّوْا قَتْلَهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَدُفِنَ بِالنَّبِيِّ مَعَهُمْ
عِدَّةٌ ، عِنْدَ دَارِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَدُفِنَ بِقَبْرِهِمْ بَعْضُ سَيِّدِي ، فَجَادَى مَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ : رَدُّوا الْقَتْلَى إِلَى مَصَاحِمِهِمْ - وَكَانَ الدَّسُّ قَدْ دَفِنُوا قَتْلَهُمْ - فَلَمْ يَرَدْ أَحَدٌ أَحَدًا
مِنْهُمْ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا أَدْرَكَهُ الْمَادِي وَلَمْ يُدَقِّ ، وَهُوَ شِمَاسُ بْنُ عُمَانَ الْخَزَوِجِيُّ ، كَانَ قَدْ
تَحَلَّى إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ رَمَقٌ ، فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : ابْنُ عُمَى يَدْخُلُ إِلَى غَيْرِي !
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : احْمِلُوهُ إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ ، فَحَمَلُوهُ إِلَيْهَا فَاتَتْ عَنْدهَا ،
فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ يُرَدَّ إِلَى أَحَدٍ فَيُدْفَنَ هُنَاكَ كَمَا هُوَ فِي ثِيَابِهِ الَّتِي
مَاتَ فِيهَا ، وَكَانَ قَدْ مَكَثَ يَوْمًا وَلَيْلَةً وَلَمْ يَذُقْ شَيْئًا ، فَلَمْ يَصِلْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَا قَسَلَهُ .

قال الواقدي : فَأَمَّا الْقُبُورُ الْمُجْتَمِعَةُ هُنَاكَ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَطْلُبُهَا قُبُورَ قَتْلَى أَحَدٍ ،
وَكَانَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَعَبَّادُ بْنُ تَمِيمٍ الْمَارِنِيُّ يَقُولَانِ : هِيَ قُبُورُ قَوْمٍ مِنَ الْأَعْرَابِ كَانُوا

عام الرمادة في عهد عمر هناك ، فاتوا ، فلك قبورهم . وكان ابن أبي ذئب وعبد العزيز ابن محمد يقولان : لانعرف تلك القبور المحجمة ، إنما هي قبور ناس من أهل البادية ، قالوا : إنا نعرف قبر حمزة وقبر عبد الله بن حزام وقبر سهل بن قيس ، ولا نعرف غير ذلك .

قال الواقدي : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يزور قتل أحد في كل حول ، وإذا لقوه بالشعب رفع صوته يقول : السلام عليكم بما صبرتم فنعى عقبى الدار ! وكان أبو بكر يفعل مثل ذلك ، وكذلك عمر بن الخطاب ، ثم عثمان ، ثم معاوية ، حين يمر حاجاً ومعتبراً .

قال : وكانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله تأتيهم بين اليومين والثلاثة فتبكي عندهم وتدعو ، وكان سعد بن أبي وقاص يذهب إلى ماله بالفاقة ، فيأتي من جلب قبور الشهداء فيقول : السلام عليكم ! ثلاثاً ، ويقول : لا يسلم عليهم أحد إلا ردوا عليه السلام إلى يوم القيامة . قال : ومرو رسول الله صلى الله عليه وآله على قبر مصعب بن عمير ، فوقف عليه ، ودعا وقرأ : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ ^(١) ، ثم قال : إن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة ، فاتوهم فزورهم وسلموا عليهم ، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه . وكان أبو سعيد الخدري يقف على قبر حمزة فيدعو ويقرأ ويقول مثل ذلك . وكانت أم سعة رحمها الله ؛ تذهب فتسلم عليهم في كل شهر فتظل يومها ، فجاءت يوماً وممها علامها أبيهان ، فلم يسلم ، فقالت : أي لكم إلا تسلم عليهم ! والله لا يسلم عليهم أحد إلا ردوا عليه إلى يوم القيامة .

قال : وكان أبو هريرة وعبد الله بن عمر يذهبان فيسلمان عليهم ؛ قالت فاطمة

الخرزاعية : سلمتُ على قبر حمزة يوماً ومعى أختي لي ؛ فسمعتنا من القبر قائلاً يقول :
وعليكما السلام ورحمة الله ! قالت : ولم يكن قرناً أحداً من الناس .

قال الواقدي : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من دفنهم دعا بفرسه فركبه ،
وخرج المسلمون حوله عامتهم جرحى ، ولا مثل بنى سُلَمة وبنى عبد الأشهل ، فلما كانوا
بأصل الحرة قال : اصطفوا ، فاصطفت الرجال صَفيين ، وخلفهم النساء وعدتهن أربع
عشرة امرأة ، فرفع يديه فدعا ، فقال : اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ،
ولا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مُصِلَ لمن هَدَيْت ،
ولا مُقَرَّبَ لما باعَدت ، ولا مُبَاعِدَ لما قَرَّبْتَ . اللهم إني أسألك من برِّك ورحمتك
وفصلك وعافيتك ، اللهم إني أسألك السميعَ المقيمَ الذي لا يحول ولا يزول ، اللهم إني أسألك
الأمن يومَ الحوف ، والعناء يومَ العناء ، طائلاً بك ، اللهم من شرِّ ما أعطيت ، ومن
شرِّ ما منعت ، اللهم توقم مسكين ، اللهم حسبنا الإيمان ، وزينه في قلوبنا ، وكرمه
إلينا الكفر والفسق والمصائب ، واجصنا من الراسخين ، اللهم عذب كفرة أهل
الكتاب الذين يُكذِّبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، اللهم أنزل عليهم رجلك
وعذابك إله الحق ، آمين !

قال الواقدي : وأقبل حتى نزل بيني حارثة يمينا حتى طلع على بنى عبد الأشهل
وهم يسكون على قتلاهم ، فقال : لكن حمزة لا تراكي له ! فخرج النساء يسطرن إلى سلامة
رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخرجت إليه أم عامر الأشهلية ، وتركنت النوح ، فنظرت
إليه وعليه الدرع كما هي ، فقالت : كل مصيبة بعدك حلال . وخرجت كبشة بنت عتبة
ابن معاوية بن نَحَارِث بن الخزرج تعدو نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وهو واقف
على فرسه ، وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه ، فقال سعد : يا رسول الله ، أمي ، فقال :
مرحبا بها ! فدنيت حتى تأملتته ، وقالت : إدرأبتك سائما فقد شفت ^(١) المصيبة . فمرآها بصرو

(١) شفت المصيبة ؛ أى هانت .

ابن معاذ، ثم قال : يا أم سعد : أبشري ونشري أهلكم أن قتلاهم قد تراققوا في الجنة جميعا وهم اثنا عشر رجلا ، وقد شععوا في أهليهم ، فقالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يبكي عليهم بعد هذا ! ثم قالت : يا رسول الله ، ادع لمن خلّوا ، فقال : اللهم أذهب حزن قلوبهم ، وآخر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من حنّوا . ثم قال لسعد بن معاذ : خلّ أبا عمرو والدّابة ؛ فحلّ الفرس ، وتبعه الناس ، فقال : يا أبا عمرو ، إن الجراح في أهل دارك فاشية ، وليس منهم محروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه ساغرا ما كان ؛ ألون لون دم ، والريح ريح مسك ، من كان محروحا فليترّ في داره وليداو حرحه ، ولا تسخ معي بيتي ؛ عزمة مئى . فنادى فيهم سعد : عزمة من رسول الله صلى الله عليه وآله ألا يتبعه حريح من بني عبد الأشهل ، فتعلّف كل محروح ، وباتوا يؤقّدون النيران ويدأون الجراح ، وإن فيهم ثلاثين حريحا ، ومضى سعد بن معاذ مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيته ، ثم رجع إلى نسائه فساقرن ^{ألم تشق كمرأة} إلا جاء بها إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيكن بين المغرب والمغرب ، ووقام رسول الله صلى الله عليه وآله حين فرغ من النوم لثلاث الليل ، فسمع الكاء فقال : ما هذا ؟ قيل : ساء الأنصار يكتن على حمزة ، فقال : رضى الله تعالى عنكن وعن أولادكن ؛ وأمر النساء أن يرجعن إلى منازلهن ، قالت أم سعد بن معاذ : فرحنا بي بيوتنا بعد ليل ومنا رجالنا ، فما نكت منا امرأة قط إلا بدأت بحمزة إلى يومنا هذا . ويقال : إن معاذ بن جبل جاء نساء بني سلمة ، وجاء عبد الله بن رواحة نساء بلحارث بن الحخرج ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما أردت هذا ؛ ومههّن العمد عن التّوح أشدّ النهى .

قال الواقدي : وحمل ابن أبي والمنفقون معه يشمتون ويسرّون بما أصاب المسلمين ، ويظهرون أقبح القول ، ورجع عبد الله بن أبي إلى أمه وهو جريح ، فأت بكوى الجراحة بالنار ، حتى ذهب عامة الليل وأبوه يقول : ما كان خروجك مع محمد إلى هذا

الوجه برأى ؛ عصاني محمد وأطاع الولدان ؛ والله لكأني كنت أنظر إلى هذا ، فقال ابنه : الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير إن شاء الله . قال : وأظهرت اليهود القول السيئ ، وقالوا : ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب هكذا بنى قط في بدنه وأصيب في أصحابه ؛ وجعل المنافقون يُحذِّلون^(١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه ويأمرهم بالفرق عنه ، وقالوا لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله : لو كان من قُتل منكم عندما ما قُتل ؛ حتى يسمع عمر بن الخطاب ذلك في أماكن ، فمضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه في قتل من يسمع ذلك منهم من اليهود والمنافقين ، فقال له : يا عمر ، إن الله مُظهر دينه ، وممَرَّ بيته ، ولليهود ذمة فلا أقتلهم . قال : فهؤلاء المنافقون يارسول الله يقولون ، فقال : أليس يُظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ قال : بلى ، وإنما يفعلون نعوذا من الشيف ، وقد بان لنا أمرهم ، وأبدي الله أصحابهم عند هذه الكلمة ، فقال : إني نهيت عن قتل من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله يابن الخطاب ، إن قريشان يبالوا ما نالوا منا مثل هذا اليوم حتى استلم الركن^(٢) .

وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إخوانكم لما أصيبوا بأحد جُمِلت أرواحهم في أحواف طير حُصر ، ترد أنهار الجنة فتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فما وحدوا طيب مطعمهم ومشرهم ورأوا حسن منقلبهم قالوا : ليت إخواننا يعمون بما أكرمنا الله وبما نحن فيه لئلا يزهدوا في الجهاد ، ويكفوا عن الحرب ؛ فقال لهم الله تعالى : أأنتم عنكم ، فأنزل : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾^(٣) .

(٢) استلم الركن : قلبه أو لحيه يديه .

(١) يحذِّلون عنه : يجمعون من نصرتهم .

(٣) سورة آل عمران ١٦٩ .

القول فيما جرى للمشركين بعد انصرافهم إلى مكة

قال الواقدي : حدثني موسى بن شيبة ، عن قطن بن وهيب الليثي ، قال : لما تحاجز الفريقان ، ووجه قريش إلى مكة ، وامتلأوا الإبل ، وجبوا الخيل ، سار وحشي ، عبد جبير ابن مطعم على راحلته أربعاً ، فقدم مكة يبشر قريش بمصاب المسلمين ، فأتى إلى الثانية التي تطلع على الحجون فنادى بأعلى صوته : يا معشر قريش ، صرارا ، حتى ثاب الناس إليه وهم حائرون أن يأتيهم بما يكرهون ، فلما رضى منهم قال : أشروا فقد قتلنا من أصحاب محمد مقتلة لم نقتل مثلاً في رخص قط ، وجرحنا محمداً فأثبتناه بالجراح ، وقتلنا رأس الكتبة حمزة بن عبد المطلب ، ففترق الناس عنه في كل وجه بالشتمة يقتل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ويظهر السرور ، وحل جبير بن مطعم بوحشي ، فقال : انظر ما تقول ! قال وحشي : قد والله صدقت . قال : قتلت حمزة ؟ قال : إني والله ولقد زرّفته بالزراق^(١) في بطنه ، فخرج من بين يديه ، ثم نودي فلم يجب ، فأخذت كبده وحماتها إليك لتراها . فقال : أذهبت حرن نائنا ، وبردت حرن قلوبنا ؛ فأمر يومئذ نساءه بمراحمه الطيب والذهن .

قال الواقدي : وقد كان عبد الله بن أبي أمية بن المعيرة المخرومي لما انكشف للمشركون بأحد في أول الأمر ، خرج هارباً على وجهه ، وكبره أن يقدم مكة ، فقدم الطائف ، فأخبر ثقيفاً أن أصحاب محمد قد طغروا وانهرمنا ، وكنت أول من قدم عليكم ، ثم جاءهم الخبر بعد أن قريشاً ظفرت وعادت الدولة لها .

قال الواقدي : فسارت قريش قافلةً إلى مكة ، فدخلتها ظافرةً ، فكان ما دخل على قلوبهم من السرور يومئذ نظير ما دخل عليهم من السكابة والحزن يوم بدر ، وكان ما دخل

(١) الزراق : الرمح القصير ، وورقه ، أي وماء .

على قلوب المسلمين من الفيظ والحرن يومئذ نظير ما دخل عليهم من السرور والجلدال يوم بدر، كما قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ^(١) وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْأَاصَابِكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِنْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ^(٢)؛ قال : يعنى إناكم يوم بدر قتلتهم من قريش سبعين ، وأسرتهم سبعين ، وأما يوم أحد فقتل منكم سبعون ، ولم يؤثر منكم أحد ، فقد أصبتم قريشا مثلى ما أصابوكم يوم أحد، وقوله : ﴿ أَنَّى هَذَا ﴾ أى كيف هذا ، ونحن موعودون بالتصير ونزول الملائكة ، وفيهنا نبى يزل عليه الوحي من السماء ! فقال لهم فى الجواب : ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، يعنى الرؤساء الذين حالوا الأمر وعصوا الرسول ، وإذ كان التصير ونزول الملائكة مشروطا بالطاعة وألا يصى أمر الرسول ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ تَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَاتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَمْدِدْكُمْ وَرُكَّتْ مِنْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﴾ آلاف من الملائكة مؤيدين ^(٣) ، فمعلقه على الشرط !



القول فى مقتل أنى عزة الجمعى ومعاوية بن المغيرة بن أبى العاص

ابن أمية بن عبد شمس

قال الواقدي : أما أبو عزة - واسمه عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب بن حذافة ابن مجح - فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أحده أسيرا يوم أحد - ولم يؤخذ يوم أحد أسير غيره - فقال : يا محمد ، من على : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، لا ترجع إلى مكة تمسح عارضيك ، فتقول : سخرت بمحمد مرتين . ثم أمر عاصم بن ثابت فصرب عنقه .

(٢) سورة آل عمران ١٦٥ .

(١) سورة آل عمران ١٤٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٦٥ .

قال الواقدي : وقد سمعنا في أسره غير هذا ، حدثني بكير بن مسمار ، قال لما انصرف
المشركون عن أخذ نزلوا بحمراء الأسد في أول الليل ساعة ، ثم رحلوا وتركوا أبا عزة
مكانه حتى ارتفع النهار ، فلحقه المسلمون وهو مستنبه يتلدد ، وكان الذي أخذه طاصم
ابن ثابت ، فأمره النبي صلى الله عليه وآله فصرب عنقه .

قلت : وهذه الرواية هي الصحيحة عسى ، لأن المسلمين لم تكن حالهم يوم أخذ
حال من يهتياً له أسر أحد من المشركين في لمركة ربا أصابهم من الوهن .
فأما معاوية بن المعيرة فروى البلاذري أنه هو الذي حذع ألف حمزة ومثل به ،
وأنه أسهرم يوم أخذ قصى على وجهه ، فمات قريباً من المدينة ، فلما أصبح دخل المدينة
فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبي العاص - وهو من عمه لحن - فصرب بابه ، فقالت ،
أم كلثوم زوجته وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله : ليس هو هاهنا ، فقال : انشئ
إليه ؛ فإن له عندي ثمن يعير ابتعته منه عام أول ، وقد جثته به ، فإن لم يجيء . ذهبت
فأرسلت إليه ، وهو عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما جاء قال لمعاوية : أهلكتنى
وأهلكت^(١) نفسك ! ما جاء بك ؟ قال : يا بن عم ، لم يكن أحد أقرب إلى ولا أم من
رحماني منك ، فحشيتك لتجبرني ، فأدخله عثمان داره وصيره في ناحية منها ، ثم خرج إلى
النبي صلى الله عليه وآله ليأخذ له منه أماناً ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول :
إن معاوية في المدينة ، وقد أصبح بها ، فاطلبوه . فقال بعضهم : ما كان ليعد ومنزل عثمان ،
فاطلبوه به ، فدخلوا منزل عثمان ، فأشارت أم كلثوم إلى اللوصع الذي صيره فيه ، فاستخرجوه
من تحت سحارة لهم ، فانطلقوا به إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال عثمان حين رآه :
والذي بعثك بالحق ما حثت إلا لأطلب له الأمان ، فنه لي ، فوّهه له ، وأجبه ثلاثاً ،

(١) البلاذري : « أهلكتنى ونفك » .

وأقسم : لئن وحده بعدها يمشى فى أرض المدينة وما حولها ليقْتَلَنه . وخرج عثمانُ فجَهَزَه وأشْتَرى له بَـمِـرًا ، ثم قال : ارتحل . وسار رسول الله صلى الله عليه وآله إلى حراء الأسد وأقام معاوية إلى اليوم الثالث ليُعرف أخبارَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله ، وبأى بها قريشًا ، فلما كان فى اليوم الرابع قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن معاوية أصبح قريبًا لم ينفد ، فأطلبوه . فأصابوه وقد أخطأ الطريق ، فأدركوه ، وكان اللذان أسرعًا على طلبه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر ، فوجداه بالحماء ^(١) فصرَّبه زيد بالسيف ، وقال عمار : إن لى فيه حقًا ، فرمياه سهم فقتلاه ، ثم انصرفا إلى المدينة بحره ، ويقال : إنه أدرك على ثمانية أميال من المدينة ، فلم يزل ريدٌ وعمار يرمياه بالسبل حتى مات .

قال : ومعاوية هذا أبو عائشة بنت معاوية أم عبد الملك بن مروان .

قال : وذكر الواقدي فى كتابه قتل هذه الرِّقْمَاية سواء .

قال التلاذرى : وقال ابن الكلبى : إن معاوية بن المغيرة جدَّع أنف حمزة يوم أُحُد وهو قتيل ، فأخذ يقرب أحدًا فقتل على أحد بعد أنصراف قريش بثلاث ، ولا عقب له إلا عائشة أم عبد الملك بن مروان . قال : ويقال : إن عليًا عليه السلام هو الذى قتل معاوية بن المغيرة ^(٢) .



قلت : ورواية ابن الكلبي عندي أصح ، لأن هزيمة المشركين كانت فى الصدمة الأولى عقيبَ قتلِ بنى عبد الدار أصحاب الآلوية ، وكان قتل حمزة بعد ذلك لما كره خالد بن الوليد الخليل من وراء المسلمين ، فاحتلَّطوا ، وتقصَّص منهم ، وقتل بعضهم بعضًا ، فكيف يصح أن يجتمع لمعاوية كونه قد جدَّع أنف حمزة ، وكونه قد انهزم مع المشركين فى الصدمة الأولى ! هذا متناقض ، لأنه إذا كان قد انهزم فى أول الحرب استحال أن يكون

(١) الحماء : مطلق على ثلاثة مواضع بالمدينة .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٣٧ ، ٣٣٨ مع تصرف واختصار .

حاضرا عند حمزة حين قُتل. والصحيح ما ذكره ابن الكلبي من أنه شهد الحرب كلها،
وجدع أم حمزة، ثم حصل في أيدي المسلمين بعد انصراف قريش، لأنه تأخر عنهم
لمرضى عرض له فأدركه حينئذ، فقتل.

القول في مقتل الجذَر

ابن زياد البلوي والحارث بن يزيد بن الصامت

قال الواقدي: كان الجذَر بن زياد السويحي حبيب بني عوف بن الحزرج ممن شهد
بذرا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت له قصة في الجاهلية قبل قدوم النبي صلى الله
عليه وآله المدينة، وذلك أن حصير الكتائب، ^{هو} أسيد بن حصير، جاء إلى بني عمرو بن
عوف، فكلّم سويد بن الصامت (وخرات بن حجير وأما لبابة بن عبد المنذر - وبقال
سهل بن حنيف - فقال: هل لكم أن تزوروني فأسيقكم شرابا، وأنحر لكم، وتقيسوا
عندي أيتاما! قالوا: نعم، نحن نأتيك يوم كذا، فلما كان ذلك اليوم جاءوه فحزّ لهم
جزورا، وسقامهم شرا، وأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى تغير اللحم - وكان سويد بن
الصامت يومئذ شيخا كبيرا - فلما مضت الأيام الثلاثة قالوا: ما رانا إلا راجعين إلى
أهلنا! فقال حصير: ما أحببتكم! إن أحببتهم فأقيموا، وإن أحببتهم فانصرفوا،
فخرج الفتيان بسويد بن الصامت يحملانه على جمل من النمل^(١)؛ فمروا لاصقين بالحرة
حتى كانوا قريبا من بني عينة^(٢)، فجلس سويد بيول وهو ثمل سُكراً، فبصر به
إسان من الحزرج، فخرج حتى أتى الجذَر بن زياد، فقال: هل لك في القسيمة الباردة!
قال: ما هي؟ قال: سويد بن الصامت، أعزّك لا سلاح معه، ثمل، فخرج الجذَر بن زياد
بالسيف مُصَلِّتا، فلما رآه الفتيان وهما أعزّان لا سلاح معهما ولّيا، والعداوة بين الأوس

(٢) الواقدي: «عينة».

(١) الثمل بفتح: أي السكر.

والخزرج شديدة . فانصرفا مسرعين ، وثبت الشيخ ولا حراك به ، فوقف المجذربن ذبياد ، فقال : قد أمكن الله منك ! قال : ما تريد بي ؟ قال : قتلتك . قال : فارفع عن الطعام ، واخفض عن الدماغ ، فإذا رجعت إلى أهلك ، قتل : إني قتلت سويد بن الصامت . فقتله ، فكان قتله هو الذي هيج وقعة بُعث . فقامَ قديم رسول الله صلى الله عليه وآله للمدينة أسلم الحارث بن سويد بن الصامت ، وأسلم المجذربن شهيداً بدرأ ، فجعل الحارث بن سويد يطلب المجذربن في المعركة ليقتله بأبيه ، فلا يقدر عليه يومئذ ؛ فلما كان يوم أحد وجالَّ المسلمون تلك الجولة ، أتاه الحارث من حليته مصرب عنقه ، فرحم رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله إلى المدينة ، ثم خرج إلى تخراة الأسد ، فلما رجع من حراء الأسد أتاه حبرائيل عليه السلام ، فأخبره أن الحارث بن سويد قتل المجذربن عيلةً ، وأمره بقتله ، فركب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى قباء في اليوم الذي أحضره حبرائيل في يوم حارة . وكان ذلك يوماً لا يركب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى قباء ، إنما كانت الأيام التي يأتي فيها رسول الله صلى الله عليه وآله قباء يوم السبت . ويوم الاثنين . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله مسجداً قباء صلى فيه ماشاء الله أن يصلي ، وسمعت الأنصار يخافوا يسلمون عليه ، وأنكروا إتيانه تلك الساعة ، في ذلك اليوم . لحس عليه السلام يتحدثون بتصفيح الناس حتى طلع الحارث بن سويد في ملحمة موروثة^(١) ، فما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله دعا عويم بن ساعدة فقال له : قدّم الحارث بن سويد إلى باب المسجد فاضرب عنقه بمجذربن ذبياد ، فإنه قتله يوم أحد . فأحده عويم ، فقال الحارث : دعني أكلم رسول الله . ورسول الله صلى الله عليه وآله يريد أن يركب ، ودعا بحماره إلى باب المسجد . فجعل الحارث يقول : قد والله قتلته يا رسول الله ، وما كان قتلي إتياء رجوعاً عن الإسلام

(١) موروثة : مصبوغة بالورس وهو سات باليمن معروف .

ولا ارتياها فيه ، ولكنه حبة الشيطان ، وأمر وكنت فيه إلى نفسي ، وإني أتوب إلى الله وإلى رسوله مما عملت ، وأخرج ديبته وأصوم شهرين متتابعين ، وأعتق رقبة . وأطعم ستين مسكينا ، إني أتوب إلى الله يا رسول الله ! وجعل يمسك بركاب رسول الله صلى الله عليه وآله وبنو الحذر حصور ، لا يقول لهم رسول الله صلى الله عليه وآله شيئا ، حتى إذا استقوع كلامه قال : قدمه يا عويم فاصرب عنقه . وركب رسول الله صلى الله عليه وآله قدمه عويم بن ساعدة على باب المسجد ، فصرّب عنقه .

قال الواقدي : ويقال : إن الذي أعم رسول الله قتل الحارث المحذّر يوم أحد حبيب بن يساف ، نظر إليه حين قتله ، فناء إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فأخبره ، فركب رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله يتفحص عن هذا الأمر ، فبينا هو على حماره نزل حبرائيل عليه السلام ، فخبره بذلك ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله عويمًا فصرّب عنقه ، ففي ذلك قال حسان :

يا حارث في سنة من يوم أولكم أم كنت وبحك معترًا محبريل^(١)
فأما البلاذري فإنه ذكر هذا ، وقال : ويقال إن الخلاص بن سويد بن الصامت هو الذي قتل المحذّر يوم أحد غيلة ؛ إلا أن شعر حسان يدل على أنه الحارث^(٢) .

قال الواقدي والبلاذري : وكان سويد بن الصامت حين صرّبه المحذّر بئى قليلا ثم مات ، فقال قبل أن يموت بمخاطب أولاده :

أبلغ جلاسا وعبد الله مألوكا وإن دعيت فلا تخذلها حار

(١) دجوانه ٣١٨ ، وبنه :

أم كنت بآن ذي ياد حين تفتنه
وَقُلْتُ لَنْ تُرَى وَاللَّهِ مُصْرُكُم
محمّد والعزير الله بخبره
بيرة في فضاء الله تحمّول
وَفِيكُمْ مُحْكُمُ الْآيَاتِ وَالْقَبِيلِ
بما يكن سررات الأقاويل

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٣٢ .

أَقْتُلْ جِذَارَةَ إِذْ مَا كُنْتَ لِأَقْبَهُمْ وَالْحَيَّ عَوْفًا عَلَى حُرْفٍ وَإِنْكَارٍ
قال البلاذري : جندرة وجندارة أخوان ، وهما ابنا عوف بن الحارث بن
الغزرج^(١) .

قلت : هذه الروايات كما ترى ، وقد ذكر ابن مأكولا في « الإكمال » أن الحارث بن
سويد قَتَلَ المَظْذَر غيلةً يوم أحد ، ثُمَّ التَّحَقَّ تَمَكَّةً كَافراً ، ذَكَرَهُ فِي حَرْفِ الْمِيمِ مِنْ هَذَا
الْكِتَابِ ، وَهَذَا هُوَ الْأَشْهُ عِنْدِي .

القول فيمن مات من المسلمين بأحد جلة

قال الواقدي : ذكر سعيد بن المسيب وأبو سعيد الخدري أنه قَتَلَ مِنَ الْأَنْصَارِ
خَاصَّةً أَحَدًا وَسَبْعِينَ ، وَبِمِثْلِهِ قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ
قَالَ : فَارَسَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَمِنْ حَمْرَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؛ قَتَلَهُ وَحْشِيٌّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ
جَعْفَرِ بْنِ رِثَابٍ ؛ قَتَلَهُ أَبُو الْحَكَمِ بْنُ الْأَحْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ ، وَشَمَّاسُ بْنُ عُمَانَ
ابْنُ الشَّرِيدِ مِنْ بَنِي كَحْزُومٍ ؛ قَتَلَهُ أَبِي بْنُ حَلَفٍ ، وَمُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ ؛ قَتَلَهُ
ابْنُ قَيْمِيَّةٍ .

قال : وَقَدْ زَادَ قَوْمٌ خَامِسًا ، وَهُوَ سَعْدُ بْنُ مَوْلَى حَاطِبٍ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى . وَقَالَ
قَوْمٌ أَيْضًا : إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْأَسَدِ الْخُرَوَمِيَّ جُرْحَ يَوْمَ أَحَدٍ ، وَمَاتَ مِنْ تِلْكَ الْجِرَاحَةِ
بَعْدَ أَيَّامٍ .

قال الواقدي : وَقَالَ قَوْمٌ : قَتَلَ إِسَاءُ الْهَيْبِ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ ، وَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ

وعبد الرحمن ورجلان من بني مُرَبَّة و٤ وَهَب بن قابوس وابن أخيه الحارث بن عَتَّة
ابن قابوس ؛ فيكون جميع من قُتِل من المسلمين ذلك اليوم نحو أحد وثمانين رجلاً ، فأمَّا
تفصيل أسماء الأنصار فذكر في كتب المحدثين ، وليس هذا الموضع مكان ذكره .

• • •

القول فيمن قتل من المشركين بأحد

قال الواقدي : قُتِل من بني عبد الدار طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء قريش ؛
قَتَلَهُ عَلِيٌّ بن أبي طالب عليه السلام مباررة ، وعُثْمَان بن أبي طلحة ؛ قَتَلَهُ حَمْزَةُ بن عبد المطلب
وأبو سعيد بن أبي طلحة ؛ قَتَلَهُ سَعْدُ بن أبي وقاص ، ومَسَامِع بن طلحة بن أبي طلحة ، قَتَلَهُ
عاصم بن ثابت بن أبي الأصبغ ، وكَلَاب بن طَلْحَةَ بن أبي طلحة ؛ قَتَلَهُ الزبير بن العوام
والحارث بن طلحة بن أبي طلحة ، قَتَلَهُ عاصم بن ثابت ، والجلاس بن طلحة بن أبي طلحة ؛
قَتَلَهُ طلحة بن عبيد الله ، وأرطاة بن عبد شريح ؛ قَتَلَهُ عَلِيٌّ بن أبي طالب عليه السلام
وقارظ^(١) بن شريح بن عثمان بن عبد الدار - ويروى قارظ بالسين والطاء المهملتين - .
قال الواقدي : لا يُدْرَى من قَتَلَهُ ، وقال البلاذري^(٢) : قَتَلَهُ عَلِيٌّ بن أبي طالب عليه السلام ،
وصواب مولايم : قَتَلَهُ عَلِيٌّ بن أبي طالب عليه السلام وقيل : قَتَلَهُ قُرْمَان^(٣) - وأبو عريير
ابن عمير أخو مُصَنَّب بن عمير ، قَتَلَهُ قُرْمَان ، فهؤلاء أحد عشر .

ومن بني أسد بن عبد المزي عنده بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد ؛ قَتَلَهُ
أبو دُجَانَةَ في رواية الواقدي ، وفي رواية محمد بن إسحاق ، قَتَلَهُ عَلِيٌّ بن أبي طالب
عليه السلام . وقال البلاذري : قال ابن الكلبي : إن عبد الله بن حميد قَتِل يوم بدر

(١) الواقدي : « قارظ » ، والبلاذري : « قارظ » .

(٢) أنساب الأشراف : ١ : ٣٣٤ . (٣) أنساب الأشراف : « غيره » .

ومن بنى زُهرة أبو الحكم بن الأخنس بن شريق ؛ قتله علي بن أبي طالب عليه السلام ، وسباع بن عبد العزى الخزاعي - واسم عبد العزى عمرو بن نضلة ابن عباس بن سليم ، وهو ابن أم أنمار الحجازية بمكة - قتله حمزة بن عبد المطلب ؛ فهذان رجلان .

ومن بنى محزوم أمية بن أبي حذيفة بن المعيرة ؛ قتله علي عليه السلام ، وهشام بن أبي أمية بن المعيرة ؛ قتله قرمان ، والوليد بن العاص بن هشام قتله قرمان ، وخالد بن أعلم العقيلي ؛ قتله قرمان ، وعثمان بن عبد الله بن المعيرة ؛ قتله الحارث بن الصلتة ، فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عامر بن لؤي عبيد بن حاجر ؛ قتله أبو دُبابة ، وشيبة بن مالك بن المصرب قتله طلحة بن عبيد الله . وهذان اثنان .

ومن بنى جُمح أبي بن خلف ؛ قتله رسول الله صلى الله عليه وآله بيده ، وأبو عزة ، قتله عاصم بن ثابت صَبْرًا بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فهذان اثنان .

ومن بنى عبد مناة بن كنانة خالد بن سُفيان بن عوف ، وأبو الشعثاء ابن سُفيان بن عوف ، وأبو القرام بن سُفيان بن عوف ، وغراب بن سُفيان ابن عوف ، هؤلاء الإخوة الأربعة قَتَلَهُم علي بن أبي طالب عليه السلام في رواية محمد بن حبيب .

فأما الواقدي فلم يذكر في باب من قُتل من المشركين بأحد لهم قاتلاً معيناً، ولكنه ذكر في كلام آخر قبل هذا الباب أن أبا سُرّة بن الحارث بن علقمة قَتَلَ أحد بني سُفيان ابن عوف ، وأن رشيدا الفارسي مولى بني معاوية لقي آخر من بني سُفيان بن عوف مقتنعا في الحديد وهو يقول : أنا ابن عوف ؛ فيعرض له سعد مولى حاطب ، فضر به ابن

عوف ضربته جَزَلَه باثنتين ، فأقل رشيد على ابن عوف فضربه على عاتقه - فقطع الدرع -
 حتى جَزَلَه اثنتين وقال : خذها وأنا العلام الأنصاري ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو
 يراه ويسمعه : ألا قلت : أنا العلام الأنصاري ! قال : فيعرض لرشيد أخ للمقتول أحد بني
 سفيان بن عوف أيضا ، وأقل يعدو نحوه كأنه كلب ، يقول : أنا ابن عوف ، ويضربه
 رشيد أيضا على رأسه وعليه المعر ، فسق رأسه ، وقال : خذها وأنا العلام الأنصاري !
 فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : أحسبت يا أبا عبد الله ! فكساه رسول الله
 صلى الله عليه وآله يومئذ ولا ولد له .

قلت : فأتا البلاذري فلم يذكر لهم فاتلا ، ولكنه عذم في حمة من قتل من
 المشركين بأحد ؛ وكذلك ابن إسحاق لم يذكر من قتلهم ، فإن سحت رواية الواقدي صلى
 عليه السلام لم يكن قد قتل منهم إلا واحدا ، وإن كانت رواية ابن حبيب صحيحة فالأربعة من
 قتلاه عليه السلام . وقد رأيت في بعض كتب أبي الحسن المدائني أيضا أن عليا عليه
 السلام هو الذي قتل بني سفيان بن عوف يوم أحد ، وروى له شعرا في ذلك .

ومن بني عبد شمس معاوية بن العبدة بن أبي العاص ، قتله علي عليه السلام في
 إحدى الروايات ، وقيل : قتله زيد بن حارثة وعمار بن ياسر .

لجميع من قُتل من المشركين يوم أحد ثمانية وعشرون ، قتل علي عليه السلام منهم
 - ما اتفق عليه وما اختلف فيه - اثني عشر ؛ وهو إلى جملة القتلى كعدة من قتل يوم بدر
 إلى جملة القتلى يومئذ ، وهو قريب من النصف .

القول في خروج النبي صلى الله عليه وآله وبعد انصرافه من أحد

إلى المشركين ليوقع بهم على ما هو به من الوهن

قال الواقدي : بلغ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشركين قد علموا أن يردوا إلى المدينة فينبهوها ، فأحب أن يرهبهم قوة ، فصلى الصبح يوم الأحد لثمان حلو من شوال ومعه وجوه الأوس والحزرج ، وكانوا ثلث المائتين ، فخرجوا من البساتين ، فبينهم سعد بن عباد ، وسعد بن معاذ ، والحباب بن اسد ، وأوس بن حولى ، وقتادة بن النعمان في عدة منهم . فلما انصرف من صلاة الصبح أمر بلالا أن ينادى في الناس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم بطلب عدوكم ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس ، فخرج سعد بن معاذ راحما إلى قومه يأمرهم بالمسير ، والجراح في الناس فاشية ، عامة بقي عند الأشهل حريج ، بل كلها ، فحاض سعد بن معاذ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تطلبوا عدوكم . قال : يقول أسيد بن حصير - وبه سبع جراحات ، وهو يريد أن يداويها : سمعا وطاعة لله ورسوله ! فأخذ سلاحه ولم يرج على دواء جراحه ، ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم . وحاض سعد بن عباد قومه بنى ساعدة ، فأمرهم بالمسير ، فلبسوا ولحقوا ، وحاض أبو قتادة أهل حربا ، وهم يداوون الجراح ، فقال : هذا مبادئ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم بطلب العدو ، واثبوا إلى سلاحهم ، ولم يرجوا على جراحاتهم ، فخرج من بنى سليم أرنؤون حريجا ، بالطميلة بن النعمان ثلاثة عشر جرحا ، وبجراش بن الصمة عشر جراحات ، ونكعب بن مالك نضعة عشر جرحا ، ونقطبة بن عامر بن خديج بيده تسع جراحات ، حتى وافوا النبي صلى الله عليه وسلم بقرب أبي عتبة ، وعليهم السلاح ،

(١) مغازي الواقدي ٣٢٥ وما بعدها .

وقد صفوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نظر إليهم والجراح فيهم فاشية ، قال : اللهم ارحم بني سيلة .

قال الواقدي : وحدثني عتبة بن حبيزة عن رجال [من] ^(١) قومه ؛ أن عبد الله بن سهل ورافع بن سهل من بني عبد الأشهل رحما من أحد وبهما جراح كثيرة وعبد الله ألقبهما جرحا ، فلما أصبحا وجاء سعد بن معاذ قومه يخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بطلب العدو ، قال أحدهما لصاحبه : والله إن تركنا غزاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لعين ، والله ما عندها دابة ركبها ، ولا ندرى كيف نصنع ! قال عبد الله اطلق بنا . قال رافع : لا والله ما بي مشي ، قال أخوه : اطلق بنا نقصد ونحوز ، وخرجنا يرحفان ، فضحف رافع ، فكان عبد الله يحمله على ظهره عقة ، ويمشي الآخر عتبة ، حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العشاء وهم يوقدون النيران ، فأتى بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى حرسه تلك الليلة عباد بن بشر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما : ما حبكما ؟ فأخبرا به بعثتهما ، فدعا لهما بخير ، وقال : إن طالت لكما مدة كانت لكما مراكب من خيل وسال وإبل ، وليس ذلك بحير لكما .

قال الواقدي : وقال جابر بن عبد الله : يا رسول الله ؛ إن مناديا نادى ألا يخرج معنا إلا من حصر القتال بالأمس ، وقد كنت حريصاً بالأمس على الحضور ، ولكن أبي خلقني على أحوال لي ، وقال : لا تنسى لك أن تدعهم ولا رحل معهم ، وأخاف عليهم ، وهن نسيات صماف ، وأنا خارج مع رسول الله صلى الله عليه وآله لعل الله يرزقني الشهادة ، فتعلقت عليهم ، فاستأثر علي بالشهادة ، وكنت رحويتها ، فأذن لي يا رسول الله أن أسير معك . فأذن له رسول الله صلى الله عليه وآله . قال جابر : فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيري ، واستأذنه رجال لم يحضروا القتال . فأبى ذلك

عليهم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وهو معقود لم يحل من أمس ، فدفعه إلى علي عليه السلام ، ويقال : دَفَعَهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مجروح ، في وجهه أثر الخنق ، ومشجوج في جبهته في أصول الشعر ، ورباعيته قد شظيت ، وشفته قد كُتِبَتْ من باطنها ، ومَسَكِهِ الْأَيْمَنُ مُوهَنْ بِصُرْبَةِ ابْنِ قَيْثَةَ ، ورُكْبَتَاهُ تَجْحُوشَتَانِ ؛ فدخل المسجد فصلى ركعتين ، والناس قد حشدوا ، ونزل أهل العوالي ^(١) حيث جاءهم الصريح ^(٢) . ودعا نفيه على باب المسجد ، وتلقاه طلحة بن عبيد الله ، وقد سمع . المنادي ، فخرج يبظر متى يسير رسول الله صلى الله عليه وآله ! فإذا هو وعليه الدرع والمغفر لا يرى منه إلا عيناه ، فقال : يا طلحة ، سلاحك ، قال : قريبا ، قال طلحة : فأخرج ، وأعدو فألبس درعي وأخذ سيني ، وأطرح درعتي في صدري ، وإن بي لتسع جراحات ، ولأنا أهتم بجراح رسول الله صلى الله عليه وآله متى بجراحي ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على طلحة ، فقال : أين ترى القوم الآن ؟ قال : هم بالسيالة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ذلك الذي ظننت ، أما إنهم يا طلحة نزلوا بنا مثل أمس حتى يفتح الله مكة علينا ، قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة نفر من أسلم طليعة في آثار القوم ، فانقطع أحدهم ، وانقطع قبال علي الآخر ، ولحق الثالث قريش وهم بحمراء الأسد ، ولم زجل ^(٣) يأتهمون ^(٤) في الرجوع إلى المدينة ، وصفوا بن أمية ينهائم عن ذلك ، ولحق الذي انقطع قبال علي بصاحبه ، فصرت قريش بالرحلين ، فعطفت عليهما ، فأصابوهما ، وانهى المسلمون إلى مصرةهما حمراء الأسد ، فقبرا رسول الله صلى الله عليه وآله في قبر واحد ، هما القرينان .

(١) العوالي : صبة بينها وبين المدينة أربعة أميال .

(٢) الصريح : الميت .

(٣) زجل ، أي صوت وحلة .

(٤) يأتهمون : يتشاورون .

قال الواقدي : اسمها سليط ونهان .

قال الواقدي : قال جابر بن عبد الله : كانت عامة أزوادنا ذلك اليوم التمر ، وحل سعد بن هبادة ثلاثين بعيراً تمرأ حتى وافى حمراء الأسد ، وساق جزراً ، ففتحوا في يوم ثنتين ، وفي يوم ثلاثاً ، وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بجمع الخُطَب ، فإذا أمروا أمرهم أن يؤقدوا النيران : فيؤقد كل رجل نارا ، فلقد كنا تلك الليلة نوقد خمسمائة نار حتى نرى من المكان البعيد ، وذهب ذكر مسكرنا وبراينا في كل وجه ، وكان ذلك مما كبت الله به عدونا .

قال الواقدي : وجاء معبد بن أبي معبد الخزاعي - وهو يومئذ مشركاً إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وكانت حُرَاعة سُلَماً^(١) تنبي صلى الله عليه وآله ، فقال : يا محمد عز عليا ما أصابك في معك ، وما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله تعالى أعلى كلمتك ، وأن المصيبة كانت بعيرك ، ثم مضى معبد حتى يحد أبا سفيان وقريشا بالروحاء^(٢) وهم يقولون : لا محمداً أصبتم ، ولا الكواعب أردقم ، فقتلهم جميعاً^(٣) ، وهم مجمعون على الرجوع إلى المدينة ، ويقول قائلهم فيما بينهم : ما صنعنا شيئاً ، أصابنا أشراهم ، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، وقبل أن يكون لهم وفر ، وكان لشككم بهذا عكرمة بن أبي جهل ، فلما جاء معبد إلى أبي سفيان : قال : هذا معبد ، وعنده الخبر ، ما وراءك يا معبد ؟ قال : تركت محمداً وأصحابه خلفي يتحرقون عليكم مثل النيران ، وقد اجتمع معه من تحلف به بالأمس من الأوس والخزرج ، وتماهلوا ألا يرحموا حتى يذبحواكم فيشاروا مسكم ، وقد غصوا^(٤) لقومهم غصبا شديداً ولئن أصبتم من أشراهم . قالوا : ويحك ، ما تقول ؟ قال : والله ما أرى

(١) سلما ، أي مسالون .

(٢) الروحاء : قطعة كانت لدى بني عامر ، على نحو أربعين ميلاً من المدينة .

(٣) الواقدي : « وغصوا » .

أَنْ تَرْتَحِلُوا حَتَّى تَرَوْا نَوَاصِيَ^(١) الْخَيْلِ ، وَلَقَدْ^(٢) حَلَنِي مَا رَأَيْتَ مِنْهُمْ أَنْ قُلْتُ
أَبْيَانًا ، قَالُوا : وَمَا هِيَ ؟ فَأَشَدُّمَ هَذَا الشَّرَّ :

كَادَتْ تَهْدُ^(٣) مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذْ سَالَتِ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَايِلِ^(٤)
تَعْدُو بِأَشَدِّ ضِرَافٍ لَا تَنَالُهُ^(٥) عِنْدَ الْإِقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَارِيلٍ^(٦)
قُلْتُ وَبِلْ^(٧) ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِهِمْ إِذَا تَعَطَّطَتِ الْبَطَاحَةُ بِالْجَلِيلِ !^(٨)

وقد كان صفوان بن أمية ردّ القوم بكلامه قبل أن يطلع معه ، وقال لم صفوان :
يا قوم ، لا تفعلوا ؛ فإن القوم قد حاربوا^(٩) ، وأحشى أن يجمعوا عليكم من تحلف من الخرج ؛
فأرحموا والدولة لكم ، فإن لا آمن إن رحمتهم إليهم أن تكون الدولة عليكم . قال :
فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أرشدتم صفوان وما كان يرشيد ، ثم
قال : والذي نفسي بيده لقد سؤمت لهم الحجارة ، ولو رجعوا لكانوا كأئس الذهاب ،
قال : فانصرف القوم سيرا عا حائفين من الطلب لهم ، ومرة بأبي سفيان قوم من
عند القيس يريدون المدينة ، فقال لهم : هل أنتم سبيحون محمد وأصحابه ما أرسلكم به ؛
على أن أوقر لكم أبا عمر كم رئيسا عدأ مكاط ، إن أنتم حشمتوني ! قالوا : نعم ، قال : حينما

(١) الواقدي : « حتى ترى نواصي الخيل » . (٢) الواقدي : « ثم قال معه . . . » .
(٣) الأبيات في ابن هشام ٣ : ٥٤ تهدي ، أي نفضت من الإغواء . والجرد : الخيل العتاق .
والأبايل : الجماعات .
(٤) ابن هشام : « تردى بأسد كرام » . والتتالة : الفصاح .
(٥) البيل : جمع أميل ، وهو الذي لا رمح له . ومعاريل : جمع معرل ؛ وهو من لا سلاح معه .
(٦) تعططت : اهتزت واصعدت . والبطحاء : السهل من الأرض . والجيل : الصف من الناس ،
وبهذا في ابن هشام :

إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبَسَلِ ضَاحِيَةٌ لِكُلِّ ذِي إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَقُولٍ
مَنْ حَيْشٍ أَحَدٌ لَا وَحْشٍ قَنَالُهُ وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالْقِيلِ

(٧) حربوا ، أي غضبوا .

لقيم محمدا وأصحابه فأخبروهم أننا قد أرحمنا راحة إليهم ، وأنا آثاركم. وانطلق أبو سفيان إلى مكة ، وقدم الركض على النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه بالخطباء فأخبروهم بالذي أمرهم أبو سفيان ، فقالوا حببنا الله ونعم الوكيل ، فأنزل ذلك في القرآن ، وأرسل معبد رجلا من خزاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يعلمه أنه قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ثلاث إلى المدينة .

الفصل الخامس في شرح عزة مؤتة

تذكرها من كتاب الواقدي - وزيد على ذلك ما رواه محمد بن إسحاق

في كتابه على عادتنا فيما تقدم

قال الواقدي : حدثني ^(١) ربيعة بن عثمان عن عمر بن الحكم ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله الحارث بن عويمر الأردني في ستة ثمان إلى ملك بصرى بكتاب ، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الصماني ، فقال : أين تريد ؟ قال : الشام ، قال : لعلك من رسل محمد . قال : نعم ، فأمروا به فأوثقوا رباطا ثم قدّمه فصرت عنقه ، ولم يقتل رسول الله صلى الله عليه وآله رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاشتد عليه ، وندب الناس وأحبرهم بمقتل الحارث ، فأسرعوا وخرجوا ، فمكروا بالجرف ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله الظهر جلس وحلّس أصحابه حوله ، وجاء النعمان بن مهزيب اليهودي فوقف مع اناس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب ابن رواحة فليصير نصر المسلمين من بينهم رجلا فليجعلوه عليهم . فقال النعمان بن مهزيب : يا أبا القاسم ، إن كنت نبيا فيصاب من سميت قليلا كانوا أو كثيرا ، إن الأنبياء في بني إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان فلا تسمى مائة أصيبوا جميعا . ثم جعل اليهودي يقول لزيد بن حارثة : اعهذ فلا ترجع إلى محمد أبدا إن كان نبيا . قال زيد : أشهد أنه نبي صادق فلما أجمعوا

(١) أخبار غزوة مؤتة في الواقدي ص ٤٠١ وما بعدها ، وسيرة ابن هشام ٤٢٧ وما بعدها .

السير وعقد رسول الله صلى الله عليه وآله لهم اللواء بيده دفعه إلى زيد بن حارثة ، وهو لواء أبيض ، ومشى الناس إلى أمراء رسول الله صلى الله عليه وآله يودعونهم ويدعون لهم وكانوا ثلاثة آلاف ، فلما ساروا ومعهم نداءهم المسلمون : دفع الله عنكم ، وردكم صالحين سالمين غانمين ، فقال عبد الله بن رَوَاحَة :

لَكُنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَصِرَّةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْدِفُ الرَّبْدَ ^(١)
أَوْ طَمَعَةً بِيَدَيَّ حِرَّانَ مَهْمَزَةٍ بِحِمْرَةٍ تَقْدِفُ الْأَحْيَاءَ وَالْكَيْدَا ^(٢)
حَتَّى يَقُولُوا إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدِّي يَا رَشِدَ اللَّهِ مِنْ عَارٍ قَدْ رَشِدَا ^(٣)

قلت : اتفق المحدثون على أن زيد بن حارثة كان هو الأمير الأول ، وأمكرت الشيعة ذلك ، وقالوا : كان حفص بن أبي طالب هو الأمير الأول ، فإن قُتل زيد بن حارثة ، فإن قتل فبعد الله بن رَوَاحَة ، ورَوَوْا في ذلك روايات ، وقد وجدت في الأشعار التي ذكرها محمد بن إسحاق في كتابه العارضي ما يشهد لقولهم ، فمن ذلك ما رواه عن حسان ابن ثابت وهو :

تَأْوِي لِي لَيْلٌ يَثْرَبُ أَمْرُ وَهَمٌّ إِذَا مَاؤُمُ النَّاسِ سُهِرُ ^(١)
لَذْكَرَتِي حَيْبٌ هَيَّجَتْ لِي عَمْرَةً سَفُوحًا وَأَسْبَابُ الْبَكَاءِ التَّذْكَرُ
يَلِيَّ إِنْ فَقِدَانُ الْحَيْبِ بَلِيَّةٌ ^(٢) وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُتْلَى ثُمَّ يَصِيرُ
فَلَا يُبْعِدُنَّ اللَّهَ قَتْلِي تَتَابَعُوا بِمَوْتِهِ مِنْهُمْ ذُو الْجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ حِينَ تَقَاسَمُوا حَيْمًا وَأَسْيَافُ اللَّيْلِ تَحْطَرُ

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ١٢٩ . ذات مرج : أي واسعة ، والرد ، أصله ما يلو الماء إذا خلا ، وأراد هنا ما يلو الدم القوي ينفجر من الغصة .

(٢) مجهزة : سرية القتل ، وتنفذ الأحياء : تحرقها وتصل إليها .

(٣) ابن هشام : « وقد » .

(٤) ديوانه ١٧٩ - ١٨١ ، وسيرة ابن هشام ٣ : ١٤٠ - ١٤٢ . تأوي : عاودني ورجع لي ، وسهر : دأب إلى السهر . (٥) الديوان : « بلاء وفقدان الحبيب » .

رَأَيْتُ خَيْلَ الْمُؤْمِنِينَ تَوَارَدُوا شَعَبَ وَخَلَقَ بَعْدَهُمْ بِتَأَخَّرٍ^(١)
غَدَاةً غَدَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ إِلَى اللُّوتِ مَيِّمُونَ النَّقِيبَةَ أَزْهَرُ
أَغْرُ كَضَوْهَ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ أَيُّ إِذَا سَمِ الظُّلَامَةُ أَصْمَرُ^(٢)
فَطَاعَنَ حَتَّى مَالَ غَيْرَ مُوسَى بِمَعْرِكَ فِيهِ الْقَنَامَتُ كَسَرُ
فَصَارَ مَعَ الْمُتَشَاهِدِينَ ثَوَابُهُ جَنَّاتٍ وَمُلْتَفَ الْخَدَائِقِ أَخْضَرُ
وَكُنَّا نَرَى فِي حُمْرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ وَقَارًا وَأَسْرًا حَازِمًا حِينَ يَأْمُرُ
وَمَا زَالَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ دَعَانُ صَدَقَ لَا تُرَامُ وَمَغْفَرُ
هُمْ جَبَلُ الْإِسْلَامِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُمْ رِضَامٌ إِلَى طُورٍ يَطُولُ وَيَقْهَرُ
سَالِيلُ مِنْهُمْ حُمْرٌ وَابْنُ أُمِّهِ عَلَى مِنْهُمْ أَحَدُ التَّخْفِيرِ
وَحَمْرٌ وَالصَّبَاسُ مِنْهُمْ^(٣) عَقِيلٌ وَمَاءُ الْعُودَيْنِ حَيْثُ يُعَصَّرُ
بِهِمْ تَفْرَجُ الْقَمَاءُ مِنْ كُلِّ مَلَقٍ تَحَاسُّ إِذَا مَاضَاكَ بِالنَّاسِ مَصْدَرُ
عَمُ أَوْلِيَاءَهُ أَفْهَ أَنْزَلَ حَكْمَهُ عَلَيْهِمْ وَفِيهِمْ وَالْكِتَابُ الْمَطْهَرُ
وَمِنْهَا قَوْلُ كَتَبَ بَنِي مَالِكِ الْأَنْصَارِيُّ مِنْ قَصِيدَةٍ أَوَّلُهَا^(٤) :

يَا مَ الْعَيُونَ وَدَمْعُ عَيْنِكَ يَهْمُ سَحَابًا وَكَفَّ الرِّيَابَ الْمَسِيلُ^(٥)
وَجَدْنَا عَلَى النَّفَرِ الَّذِينَ تَنَافَعُوا قَتَلِي بِمَوْتَةِ أَسَدٍ لَمْ يُقْلُوا
سَارُوا أَمَامَ السُّلَيمِ كَانَهُمْ طَوْدٌ يَقُودُهُمُ الْهَزْبُ لِلشَّيْلِ^(٦)
إِذْ يَهْتَدُونَ بِحُمْرٍ وَلَوَائِهِ قَدَامَ أَوْلَمٍ وَمِ الْأَوَّلِ
حَتَّى تَقُوصَ الصُّفُوفُ وَحُمْرُ حَيْثُ التَّقَى جَمْعُ الْفَوَاةِ بِجَدَلٍ^(٧)

- (١) شعوب : من أسماء اللية .
(٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٤٢ - ٤٤٥ ، بروية مختلفة .
(٣) الرباب : السحاب ، والصل : الحصب ؛ وق ابن هشام : « الرباب الخصل » .
(٤) الشل : ذو الشل ؛ والشل : ولد الأسد .
(٥) جدل : مطروح على الخدانة ؛ ومي الأرس . وق ابن هشام : « وعت الصفوف بجدل » .
(٦) شعوب : من أسماء اللية .
(٧) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٤٢ - ٤٤٥ ، بروية مختلفة .

فَنَفِيزُ الْقَمَرُ النِّيرُ لَقَدْ دِهَ وَالشَّمْسُ قَدْ كَفَتْ ^(١) وَكَادَتْ تَأْفُلُ
قَوْمٌ عَلَا بَنِيَانَهُمْ مِنْ هَاشِمٍ فَرَعٌ أَشْمٌ وَسُودٌ مَتَأْفُلٌ ^(٢)
قَوْمٌ بِهِمْ عَصَمُ الْإِلَهِ عِبَادَهُ وَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ
فَصَلُّوا لِلْعَاشِرَةِ عَةً وَنَكَرْتُمَا وَنَصَدْتُمْ أَحْلَاقَهُمْ مَنَ يَحْمِلُ ^(٣)

قال الواقدي : فحدثني ابن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، عن
رافع بن إسحاق ، عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطبهم فأوصاهم
فقال : أوصيكم بشئوي الله وعن معكم من المدين خيراً ، اعزوا باسم الله وفي سبيل الله ،
فَاتِلُوا مِنْ كَفَرٍ بِاللَّهِ ، لَا تَنْفِرُوا وَلَا تَمُوتُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً ، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ
الشَّرْكَائِنِ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثَ : فَأَيُّهُنَّ أَحَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْتُلْ مِنْهُمْ ، وَكَفِّ
عَنْهُمْ ، ادْعُهُمْ إِلَى الدِّحُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْتُلْ وَكَفِّ . ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحْوِيلِ
مِنْ دَارِهِمْ إِلَى الْمُهَاجِرِينَ ، فَإِنْ فَعَلُوا فَاخْبِرْهُمْ أَنَّ لَهُمْ مَالَهُ الْمُهَاجِرِينَ ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى
الْمُهَاجِرِينَ . وَإِنْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَأَخْتَارُوا دَارَهُمْ فَاخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ ،
يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْيُودِ وَلَا فِي الْعِمِيقَةِ شَيْءٌ ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا
مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجَزْيَةِ فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكَفِّ عَنْهُمْ ،
وَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ ، وَإِنْ أَتَتْ حَاصِرَتُ أَهْلِ حَصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ فَأَرَادُوا أَنْ
تَسْتَنْزِلَ عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَنْزِلْ عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ ، وَلَكِنْ أَرْسِلْ عَلَيْهِمْ حُكْمَكَ ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي
أَتَصِيبُ حُكْمُ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا ! وَإِنْ حَاصِرَتُ أَهْلَ حَصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ وَأَرَادُوا أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ
ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ أَجَلْ لَهُمْ ذِمَّتُكَ
وَذِمَّةُ أَيْيِكَ وَأَحْبَابِكَ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَحْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ آبَائِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَحْفَرُوا
ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ .

(١) في باب « كاسفة » ، وهو مستقيم الوزن أيضا .

(٢) ابن هشام : وتصدت أحلامهم .

(٣) ابن هشام : « ما يفتل » .

قال الواقدي : وحدثنى أبو صفوان ، عن خالد بن يزيد ، قال : خرج النبي صلى عليه وآله مشياً لأهل مؤتة حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف ووقفوا حوله ، فقال : اغزوا بسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين الناس ، فلا تعرضوا لهم ، وستجدون آخرين للشيطان في رموسهم متخاصص ، فاقلموها بالسيف ، ولا تقتلن امرأة ، ولا صغيراً ، صرعاً^(١) ولا كبيراً قانياً ، ولا تقطنن بخلا ولا شجراً ، ولا تهدمن بناء .

قال الواقدي : فلما دعا ودع عبد الله بن رواحة رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : مرني شيء أحفظه عنك ، قال : إنك قادم غداً ملأ ، السجود فيه قليل ، فأكثرُوا السجود . فقال عبد الله : زدني يا رسول الله ، قال : اذكر الله ، فإنه عون لك على ما تطلب . فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهباً رجع فقال : يا رسول الله : إن الله وثري يحب الوثر ، فقال : يا بن رواحة : ما عجبت فلا تعجب إن أسأت عشرين أن تحسن واحدة . فقال أن رواحة : لا أسألك عن شيء بعده .

وروى محمد بن إسحاق أن عبد الله بن رواحة ودع رسول الله صلى الله عليه وآله بشعر منه :

فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصرُوا
إني تفرستُ فيك الخير مافة قراسة خالفتم في الذي نظروا
أنت الرسول فمن يحرم موافقه والبشر منه قد أودى به التدرُّ

قال محمد بن إسحاق : فلما ودع المسهين بكى ، فقالوا له : ما يبكيك يا عبد الله ؟ قال : والله ما بي حب الدنيا ولا صباة إليها ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله

(١) الضرع : الصير من كل شيء .

عليه وآله يقرأ : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ، ^(١) فاست أدري كيف لي بالصّدر بعد
الورود ^(٢) !

قال الواقدي : وكان زيد بن أرقم يحدث ، قال : كنتُ بينما في حجر عبد الله بن
رواحه ، فلم أرَ واليَ يقيمُ كان حيداً لي منه ، حرحت معه في واحةٍ إلى مؤنةٍ وصَبَّ
بي وصَبَّبتُ به ، فكان يُرْدِفِي حلبَ رَحله ، فقال ذات ليلة وهو على راحلته بين
شعبي رَحله :

إِذَا بَلَغْتَنِي وَحَتَّ رَحِي مَافَ أَرِيعَ صَدَّ الْحِجَاءُ ^(٣)
فَشَأْنُكَ فَاسْمَعِي وَخِلَاكِ دَمٍ وَلَا أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِ وَرَأْيِي ^(٤)
وَأَبَّ الْمَلُومَ وَحَلَمَ بَوِي بِأَرْضِ الثَّامِ مَشْتَهَرَ الثَّوَاءِ
وَرَوَدِي الْأَفَارِ مِنْ دَعَاءِ إِلَى الرَّحْمَنِ وَانْقَطَعَ الْإِخَاءُ
هَنَالِكَ لَا أُنَالِي حَلِيعَ عَيْنٍ وَلَا نَحْلِي أَسَافَهَا رِيَّاهُ ^(٥)

فلما سمعتُ منه هذا الشعرَ بكيتُ : فحَقَّقِي بالدُّرَّةِ وقال : وما عليك يالكَمعُ أن
يرزُقَني اللهُ الشهادةَ فأسْتَرْجِعَ من الدُّنْيَا وَنَحَبَهَا ، وهوومها وأحزانها وأحداثها، وترجعَ
أنت بين شعبي الرَّحْلِ !

قال الواقدي : ومعى المسلمون ففرلوا وادِيَّ الْقَرْمَى فَأَقَامُوا بِهِ أَيَّاماً ، وساروا حتى
نَزَلُوا بِمُؤَنَةٍ ، وبلغهم أن هَرَقَلَ مَلِكُ الرُّومِ قَدْ نَزَلَ مَاءٌ مِنْ مِيَاهِ التَّلْقَاءِ فِي بَكْرٍ وَبَهْرَاءِ
وَلَحْمٍ وَجُدَامٍ وَعِيزِهِمْ مِائَةُ أَلْفِ مَقَاتِلٍ ، وعليهم رجلٌ من بَيْلٍ ، فأقام المسلمون ليلتين ينتظرون.

(٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(١) سورة صريم : ٧٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٧ .

(٤) وَلَا أَرْجِعْ ؟ حَزَمَ الْعَمَلُ عَلَى الدَّعَاءِ ؟ يَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَسْتَشْهَدَ فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ وَلَا يَرْجِعْ لِأَهْلِهِ

(٥) لِي الْبَيْتِ لِغَوَاهُ .

في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنخبره الخبر ؛ فلما أن
 يردنا أو يزيدنا رجالا ؛ فبيضا الناس على ذلك من أمرهم جاءهم عبد الله بن رواحة
 فشجعهم ، وقال : والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدّة ولا كثرة سلاح ولا كثرة
 حيل ؛ إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، انطلقوا فقاتلوا ؛ فقدوا الله رأيا يوم بدر ،
 وما معنا إلّا فرسان ، إنما هي إحدى الحسبيّين ؛ إنما الظهور عليهم فذاك ما وعدنا
 الله ورسوله ، وليس لوعده خلف ، وإنا الشهادة فنلحق بالإخوان ، نرافقهم في الحنان .
 فشجع الناس على قول ابن رواحة .

قال الواقدي : وروى أبو هريرة قال : شهدت مؤتة فلما رأينا المشركين رأينا
 مالا يقل لنا من العدد والسلاح والسكران والذباب والحرير والذهب ، فبرق
 نصري ، فقال لي ثابت بن أرقم : ما كنت لأبصرهم ؛ كأنك ترى جموعا كثيرة ؛ قلت :
 نعم ، قال : لم تشهد ما بدر ، إنما لم ينصرنا بالكثرة .

قال الواقدي : فالتقى القوم ، فأحد السواء ربد من حارثة ، فقاتل حتى قُتل ،
 طمسه بالرماح ، ثم أحده جعفر فنزل عن فرس له شقراء فمَرَّ قَبْها ، ثم قاتل حتى قُتل .
 قال الواقدي : قيل : إنه ضربته رجل من الرُّوم فقطعه نصفين ، موقع أحد نصفيه في
 كرم هناك ، فوجد فيه ثلاثون أو بصع وثلاثون جرحا .

قال الواقدي : وقد روى مافع عن ابن عمر أنه وجد في بدن جعفر بن أبي طالب
 اثنتان وسبعون ضربة وطعنة بالسيوف والرماح .

قال البلاذري : قطعت بداه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لقد
 أبدله الله مهما جناحين يطير بهما في الجنة » ؛ ولذلك سمى الطيار .

قال الواقدي : ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فشكل يسيرا ، ثم حل فقاتل

حتى قُتِلَ ، فلما قُتِلَ انهزم المسلمون أسوأ هزيمة كانت في كلِّ وجهه ، ثم تراجعوا ؛ فأخذ اللواء ثابتُ بنُ أرقمَ ، وجعل يصيح بالأنصار ، فثأبَ إليه منهم قليل ، فقال لخالد بن الوليد : خذ اللواء يا أبا سليمان ، فإن خالد : لاس حُذَه أنتَ فلكَ سِنَّ ، وقد شهدتَ بَدْرًا . قال ثابت : خذهُ أيُّ رجل ، فوالله ما أخذتهُ إلا لك . فأخذَهُ خالد وحملَ به ساعةً ، وجعل المشركون يحيلون عليه حتى دمه منهم بشرٌ كثير ، فانهيارَ المسلمين ، وانكشفوا راجعين .

قال الواقدي : وقد رُوِيَ أن خالدًا ثبت بالناس فلم ينهزموا ؛ والصحيح أن خالدًا انهزم بالناس .

قال الواقدي : حدثني محمد بن صالح ، عن عاصم بن عمرو بن قيادة ، أن النبي صلى الله عليه وآله لما أتى الناس بمؤتة حلل على النخيل ، وكشِفَ له ما بينه وبين الشام ، فهو يطار إلى معركتهم ، فقال : أحد الراية يريدُ به حارثة ، فجاءه الشيطان فحبَّبَ إليه الحياة ، وكرهَ إليه الموت ، وحبَّبَ إليه الدنيا ، فقال : الآن حين استحكَمَ الإيمانُ في قلوب المؤمنين تحبَّبَ إلى الدنيا ! فصَيَّ قُدُما حتى استشهد ، ثم صلى عليه ، وقال : استغفروا له فقد دخل الجنة وهو يسقى ، ثم أحد الراية جعفرُ بنُ أبي طالب ، فجاءه الشيطان فنأه الحياة وكرهَ إليه الموت ، ومناه الدنيا ، فقال : الآن حين استحكَمَ الإيمانُ في قلوب المؤمنين تنمى الدنيا ! ثم مَضَى قُدُما حتى استشهد فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا له ، ثم قال : استغفروا لأحبيكم فإنه شهيدٌ قد دَخَلَ الجنة ، فهو يطيرُ فيها بمناحين من ياقوت حيث شاء . ثم قال : أحد الراية عبدُ الله بنُ رواحة ، ثم دخل معترضا فشق ذلك على الأنصار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أصابته الجراح . قيل : يا رسول الله ، فما أعترضه ؟ قال : لما أصابته الجراح كَلَّ فعاتبَ نفسه فشجع فأستشهد ؛ قد دخل الجنة ؛ فسرَّيَ عن قومه .

وروى محمد بن إسحاق^(١) قال : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله زيدا وجعفر اسكت عن عبد الله بن رواحة حتى تميزت وجوه الأنصار ، وغلثوا أنه قد كان من عبد الله بعض ما بكرهون ، ثم قال : أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قُتل شهيدا ، ثم قال : لقد رُفِعوا إلى في الجنة فيما يرى النائم على سرير من ذهب ، فرأيت في سرير ابن رواحة أزوارا عن سريرى صاحبه ، قلت : لم هذا ؟ قيل : لأنها مضيا ، وتردد هذا بعض التردد ، ثم مضى .

قال : وروى محمد بن إسحاق أنه لما أخذ جعفر بن أبي طالب الراية قاتل قتالا شديدا حتى إذا لحته القتال افتنم عن فرس له شقراء فقترها ؛ ثم قاتل القوم حتى قُتل^(٢) ، فكان حضر رضى الله عنه أول رجل تحقر فرسه في الإسلام .

قال محمد بن إسحاق : ولما أحضر ابن رواحة الراية حمل بتردد بعض التردد ، ويستقدم نعه يستزلهما^(٣) ، وقال :

أقسمت يا منى لتزليتي طوعا وإلا سوف تُكرهني
مالي أراك تكرهين الجنة إذ أجلب الناس وشدوا الرنة^(٤)
قد طالبا قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنة^(٥)

ثم ارتجز أيضا فقال :

يا نفس إلا تقتلى تموتى هذا جحلم الموت قد صليت

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٦ . (٢) سماع ابن هشام ٣ : ٤٣٤ ، وهو يقول :

يا حبدا الجنة واقترابها طيبة وباردا ثمراها
والرؤم روم قد دنا عداها كافرة بعيدة أنسابها

• على إذ لاقيتها ضراها •

(٣) ابن هشام : « يستزل نعه » . (٤) أجلب الناس : اختلطت أصواتهم وصجوا .

(٥) النطفة : القليل من الماء الصافي . والشنه : القرية الخلق .

وما تمنيتَ قد أعطيتَ إن تفعلِ فعلها هُديتَ

• وإن تأخرتَ فقد شقيتَ •

ثم نزل عن فرسه فقاتل ، فثابه ابنُ عم له ببصعة من لحم ، فقال : اشدُّ هذا صُلبك . فأخذها من يده ، فأنهش^(١) منها نهشة ثم سمع الخطمة^(٢) في ناحية من الناس ، فقال : وأنتَ يا ابن رواحَة في الدنيا ! ثم ألقاها من يده وأخذ سيفه ، فتقدم فقاتل حتى قُتل^(٣) .

قال الواقدي : حدثني داود بن سنان ، قال : سمعتُ ثعلبة بن أبي مالك يقول : اكتشف خالد بن الوليد يومئذ بالناس حتى عيروا بالمرار ، وتشاءم الناسُ به .

قال : ورؤي أبو سعيد الخدري ، قال : أقبل خالد بالناس منهمين ، فلما سمع أهل المدينة بهم بلقوهم بالحرف ، غملاوا يَحْثُونَ في وجوههم التراب ويقولون : بأفرار ، أفررتُم في سبيلِ الله ! فقل رسولُ الله صلى الله عليه وآله : ليسوا بالفرار ، ولكمهم كُفرار ، إن شاء الله .

قال الواقدي : وقال عبيدُ الله بن عبدِ الله بن عتبة : ما لقيَ جيشٌ هزوا مَمَنا ما لقي أصحابُ مؤتة من أهل المدينة ، لقوهم بالشر ، حتى إن الرجل ينصرف إلى بيته وأهله فيدقّ عليهم فيأمنون أن يفتَحُوا له يقولون : ألا تقدمتَ مع أصحابك فقتلتَ ، وحلَس الكُبراء منهم في بيوتهم استحياء من الناس ، حتى أرسل النبي صلى الله عليه وآله رجلا ، يقول لهم : أتم الكُفرار في سبيلِ الله . فخرجوا .

قال الواقدي : حدثني مالك بن أبي الربيع عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم ، عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر ، عن حديث أسماء بنت عميس ، قالت : أصبحتُ في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابه ، فأتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وقد منأتُ أربعين منّا من آدم وعجبتُ عجيباً ، وأخذتُ نبي ، ففصلتُ وجوههم ودهنتُهم ، فدخلتُ على

(١) أنهش منها : أحد جمه يسيراً .

(٢) الخطمة : زحام الناس .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا أسماء ، أين بنو جعفر ؟ فبحث بهم إليه ، فضمتهم وضمهم ، ثم ذرفت عيناه ، فبكت ، فقلت : يا رسول الله ، لعله بأمك عن جعفر شيء ! قال : نعم ، إنه قُتل اليوم ، فميت أصبح ، واجتمع إلى النساء ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا أسماء ، لا تقولن هجراً ، ولا تعصري صدرى صدراً ، ثم خرج حتى دخل على ابنته فاطمة رضي الله عنها ، وهي تقول : واعطاء ! فقال : على مثل جعفر فلتلك الباكية . ثم قال : اصنعوا لآل جعفر طعاماً ، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم .

قال الواقدي : وحدثني محمد بن مسلم ، عن يحيى بن أبي يعلى ، قال : سمعتُ عبد الله ابن جعفر يقول : أما أحفظ حين دخل النبي صلى الله عليه وآله على أمي ، فمضى إليها أبي ، فانظر إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي ، وعيناه تهرقان بالدمع حتى قطرتا ليحيته ، ثم قال : اللهم إن جعفرأ قدّم إلى أحسن الثواب ، فاحضه في درجته بأحسن ما خلقت أحداً من عبادك في ذرئته ، ثم قال : يا أسماء ، ألا أشرك ؟ قالت : بلى بأبي وأمي . قال : فإن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة ، قالت : بأبي وأمي ، فأعلم الناس ذلك ! فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ بيدي يمسح بيده رأسي حتى رقي على المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السعوى ، وإن احمر لي عرف عليه ، فتكلم فقال : إن المرء كثير بأخيه وإن عمه ، ألا إن جعفرأ قد استشهد ، وقد حمل الله له جناحين يطير بهما في الجنة . ثم رمل ، فدخل بيته وأدخني ، وأمر بطعام فصنع لنا ، وأرسل إلى أخي فتعدنا عنده عشاء طيباً ، عمدت سلى خادمته إلى شعير بطحسه ، ثم نشفته ، ثم أنصبت له وآدمته برئت ، وحملت عليه فملا ، فعدت أنا وأخي معه ، وأقمنا عنده ثلاثة أيام ندور معه في بيوت نسائه ، ثم أرحمنا إلى بيتنا ، وأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وأنا أساوم في شاة ، فقال : اللهم بارك له في صفقته ، فوالله ما بعث شيئاً ولا اشترت إلا بورك فيه .

[فصل في ذكر بعض مناقب جعفر بن أبي طالب]

رَوَى أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ "مَقَاتِلِ الطَّالِبِينَ" أَنَّ كُنْيَةَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَبُو الْمَسَاكِينِ ، وَقَالَ : وَكَانَ ثَلَاثَ الْإِخْوَةِ مِنْ وَلَدِ أَبِي طَالِبٍ ، أَكْبَرُهُمْ طَالِبٌ ، وَبَعْدَهُ عَقِيلٌ ، وَبَعْدَهُ جَعْفَرٌ ، وَبَعْدَهُ عَلِيٌّ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ بِمِائَةِ سَنَةٍ ، [وَعَلَى أَصْفَرِهِمْ سَنًا] ^(١) ، وَأُمُّهُمْ جَمِيعًا فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ^(٢) .

وَهِيَ أَوَّلُ هَاشِمِيَّةٍ وَلَدَتْ لِهَاشِمٍ ، وَفَصْلُهَا كَثِيرٌ ، وَقَرَّبَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَتَطْلِيغُهُ لَهَا مَعْلُومٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ .

وَرَوَى أَبُو الْفَرَجِ : لَجَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَهُ فَصْلٌ كَثِيرٌ . وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ كَثِيرٌ ؛ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٣) مَتَعَ حَبِيبَ قَدَمِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِنَ الْحَبَشَةِ ، فَالْتَزَمَهُ ^(٤) رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَجَعَلَ يُقْبَلُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَيَقُولُ : مَا أَدْرَى بَأَيِّهَا أَمَا أَشَدَّ قَرَسًا ! بِقَدُومِ جَعْفَرٍ ، أَمْ بِمَتَعَ حَبِيبِ أ

قَالَ : وَقَدْ رَوَى حَالِدٌ الْخُدَّاءُ ، عَنْ عِيْكَرِمَةَ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ : مَارَكِبُ الْمَطَايَا ، وَلَا رَكِبَ الْكُورَ ^(٥) ، وَلَا اتَّعَلَّ ، وَلَا احْتَدَى السَّعَالُ أَحَدٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَفْصَلَ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

قَالَ : وَقَدْ رَوَى عَطِيَّةٌ عَنْ أَبِي سَمِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، خَيْرُ النَّاسِ حُرَّةٌ وَجَعْفَرٌ وَعَلِيٌّ .

وَقَدْ رَوَى جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ السَّلَامِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : خَلَقَ النَّاسُ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى ، وَخُلِقْتُ أَنَا وَجَعْفَرٌ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ قَالَ : مِنْ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ .

(١) مِنْ مَقَاتِلِ الطَّالِبِينَ .

(٢) الْبَرْمَةُ : اعْتَقَتْهُ .

(٣) مَقَاتِلِ الطَّالِبِينَ ٦ ، ٧ مَعَ تَصْرِيفٍ .

(٤) الْكُورُ (بِصَمِّ الْكَافِ) : الرَّحْلُ بِأَفْئَاتِهِ .

قال : وبالإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجعفر : أنت أشبهت خلقي وخلقى .

وقال أبو عمر بن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " ، كانت سنُّ جعفر عليه السلام يوم قتل إحدى وأربعين سنة .

قال أبو عمر : وقد روى ابن السَّيِّب أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : مُثِّل لى جعفر وزيد وعد الله في حَيِّمة من دَرٍّ ، كل واحد منهم على سرر ، فرأيت زيدا وابن رواح في أعناقهما صدودا ، ورأيت جعفرأ مستقيما ليس فيه صدود ، فالتُّ فقل لى : إنهما حين غشيتهما الموتُ أعرضوا وصدَّأ بوحيهما ، وأما جعفر فلم يفعل .

قال أبو عمر أيضا : وروى عن الشعبي ، قال : سمعتُ عدَّ الله بن جعفر يقول : كنتُ إذا سألت عني عليا عليه السلام شيئا ويمنى ، أقول له : بحق جعفر ، فيعطيني ^(١) .

وروى أبو عمر أيضا في حَرْفِ الرَّاي في باب زيد بن حارثة ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما أناه قتل جعفر وزيد بمؤنة نكي ، وقال : أحوأى ومؤنساى ومحدثاى ^(٢) .



واعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها الرصق رحمه الله عليه ملتقطة من كتابه عليه السلام الذي كتبه جوابا عن كتاب معاوية الساذج إليه مع أبي مسلم الخولاني وقد ذكره أهل السيرة في كتبهم ، روى نصر بن مراحم في كتاب " صفيين " ، عن عمر بن سعد عن أبي ورقاء ، قال : جاء أبو مسلم الخولاني في ناس من قراء أهل الشام إلى معاوية قبل مسير أمير المؤمنين عليه السلام إلى صفيين فقالوا له : يا معاوية ، علام تقارن عليا وليس لك

(١) الاستيعاب ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الاستيعاب ١٩١ .

مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته ! فقال : ^(١) « إني لا أدعي أن لي في الإسلام مثل صحبته ولا مثل هجرته ولا قرابته » ؛ ولكن خبروني عنكم ، أليس تعلمون أن عثمان قُتل مظلوما ! قالوا : بلى ، قال : فليدفع إنيما قتلته لثقتلهم به ، ولا قتال بيننا وبينه ، قالوا : فاكُتِب إليه كتابا يأتيه به نصبا ، فكتب مع أبي مسلم الخولاني :

من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب . سلام عليك ، فإني أحمدُ الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن الله اصطفى محمدا بعينه ، وحمله الأمين على وحيه ، والرسول إلى خلقه ، واجتنب له من المسلمين أعونا أبده الله تعالى بهم ، وكانوا في منازلهم عنده على قدر فصائلهم في الإسلام ، فكان أفضلهم في الإسلام وأصحهم لله ورسوله الخليفة من بعده ، ثم خليفة حقيقته من بعد حليفته ، ثم الثالث الخليفة المعلوم عثمان ، فكلهم حدث ، وعلى كلهم بعيت مع عرفنا ذلك في طريق الشر ، وقولك المخرج ، وتبعك ^(٢) الضمراء ، وإبطائك عن الخلفاء ، تقاد إلى كل منهم كما يقاد الحمل الخشوش ^(٣) حتى تدابع وأنت كاره ، ثم لم تكن لأحد منهم بأعظم حسدا منك لاس عمتك عثمان ، وكان أحقهم ألا تفعل ذلك في قرينته وصهره ، ففطمت راحته ، وقذفت محاسنه ، وألئت ^(٤) الناس عليه ، وبطشت وظهرت حتى صرئت إليه أباط الإبل ، وقيدت إليه الإبل العراب ، وتحل عليه السلاح في حرَم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقتل منك في الحلة وأنت تسمع في داره الهائلة ^(٥) ، لا تردع الطل والثمة عن نفسك بقول ولا عمل . وأقسم قسما صادقا لو قت فيما كان من أمره مقاما واحدا نُهيه الناس

(١-١) مسلمين : « ما أقاتل عبدا وأنا أدعي أن في الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا سابقته » .

(٢) صعب : « وفي نفسك » .

(٣) الخشوش : التي تحمل في عظم أحده العشار ، وهو الكسر عويد يجعل في أهب البعير يشد به الزمام ليكون أسرع في اقتياده .

(٤) ألئت الناس : جعلتهم عليه .

(٥) الهائلة : الصوت الشديد .

عنه ، ما عدل بك من قتلنا من الناس أحدا ، ولحقاً ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من
الجبابة لعثمان والبغي عليه ، وأخرى أت بها عند أنصار عثمان ظنين^(١) ؛ إيوؤك قتلة
عثمان ، فهم عصدك وأنصارك ، ويدك ويطائئك ؛ وقد ذكر لي أنك تنصل من دمه ،
فإن كنت صادقا فأمكيا من قتلته يقتلهم به ، ونحن أسرع الناس إليك ، وإلا فإنه
ليس لك ولاصحابك إلا السيف ؛ والذي لا إله إلا هو لنطلبن قتلة عثمان في الجبال
والرمال ، والبر والبحر ، حتى يقتلهم الله أو لنلحقن أرواحنا بالله ، والسلام^(٢) .

قال نصر : فلما قدم أبو مسلم على علي عليه السلام بهذا الكتاب ، قام فحمد الله
وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنك قد قتت بأمر وليته ، والله ما أحب أنه لعيرك . إن
أعطيت الحق من نفسك . إن عثمان قتل مسموماً مظلوماً ، فادفع إلينا قتله ، وأت
أميرنا ، فإن حالنا من الناس أحد . كانت أيدينا لك ماصرة ، وأستألك شاهدة ،
وكنت ذا عذر وحق . فقال له علي عليه السلام : أعد علي غداً ، فخذ جواب كتابك
فانصرف ، ثم رجع من غد ليأخذ جواب كتابه ، فوجد الناس قد بلغهم الذي جاء فيه
قبل ، فلبست الشيعة أسلحتها ثم عدوا ففتنوا سجدوا : فادعوا : كلما قتل عثمان ، وأكثروا من
الداء بذلك وأذن لأبي مسلم ، فدخل ، فدفع علي عليه السلام جواب كتاب معاوية ،
فقال أبو مسلم : لقد رأيت قوماً مالك معهم أمر ، قال : وما ذاك ؟ قال : بلغ القوم أنك
تريد أن تدفع إلينا قتلة عثمان فصعقوا ، واجتمعوا ، ولبسوا السلاح ، وزعموا أنهم قتلة
عثمان . فقال علي عليه السلام ، والله ما أردت أن أدفعهم إليكم طرفة عين قط ، لقد
ضربت هذا الأمر أعنه وعينه ، فما رأيت به يسمى لي أن أدفعهم إليك ، ولا إلى غيرك . فخرج
أبو مسلم بالكتاب وهو يقول : الآن طاب الضراب !

(١) ظنين : منهم .

(٢) صفي ٩٧ ، ٩٨ .

وكان جوابُ عليّ عليه السلام : من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان .

أما بعد ؛ فإن أخا خولان قديم عليّ مكناب منك تذكر فيه محمدا صلى الله عليه وآله وما أنعم الله به عليه من الهدى والوحي ، فالحمد لله الذي صدقه الوعد ، وأيده ^(١) بالنصر ، ومكن له في الملاد ، وأظهره على أهل العداوة ^(٢) والشنآن من قومه الذين وثبوا عليه ، وشفيقوا له ^(٣) ، وأظهروا تكديبه ^(٤) وأزروه بالعداوة ، وظاهروا على إخراجِه وعلى إخراج أصحابه وأهله ، وآلبوا عليه [العرب ، وجادلوه على حربه] ^(٥) ، وجهم بنوا في أمره كل الحقد ، وقتلوا له الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ، وكان أشد الناس عليه تأليا ^(٦) وتحريضا أمرته ، والأدنى فالأدنى من قومه ، إلا من عصم الله . وذكرت أن الله تعالى اجتنب له من المسلمين أحوالاً أيده الله بهم ، فكانوا في منازلهم عداً على قدر فصائلهم في الإسلام ، فكان أصحابهم رعت - في الإسلام ، وأصبحهم لله ولرسوله الخليفة وخليفة الخليفة ، ولعمري إن مكاتهما في الإسلام لعظيم ، وإن المصائب بهما لجرح في الإسلام شديد ، فرحمهما الله وجزأهما أحسن ما عيلا ؛ وذكرت أن عثمان كان في الفضل تألياً ، فإن بك عثمان محناً فسيحزبه الله بإحسانه ، وإن بك مُسيئاً فسيَلقي رباً غفوراً لا يتعاطفه ذنب إن يفره ، ولعمري إنّي لأرجو إذا أعطى الله الناس على قدر فصائلهم في الإسلام وصيحتهم لله ولرسوله ، أن يكون نصيباً في ذلك الأوفر . إن محمداً صلى الله عليه وآله لما دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له كنا أهل البيت أول من آمن به وصدقته فيما جاء ، فبنينا أحوالاً كاملة مجرمة ^(٧) تامة ، وما يُعبد الله في رُبُع ما كنز من

(١) معنى : « وتم له النصر » .

(٢) معنى : « العدا » وهو يوافق ما في .

(٣) عطف له ، أي أفضه .

(٤) معنى : « التكذيب » .

(٥) من معنى .

(٦) مجرمة ، أي كلمة .

(٧) معنى : « إلها » .

من العرب غيرنا ، فأراد قومنا قتل نبيّنا ، واجتياح أصلنا ، وهما بنا الهُوم ، وفعلوا بنا
 الأفاعيل ، ومنعونا لليرة ^(١) ، وأمسكوا عما القذب ، وأحسّونا الخوف ^(٢) . وجعلوا
 علينا الأرصاد والعيون ، واصطرونا إلى جبل وعمر ، وأوقدوا النارا الحرب ، وگتّوا بينهم
 كتابا ، لا يؤاكلوننا ، ولا يشاربوننا ، ولا يباكحوننا ، ولا يُبايعوننا ، ولا تأمن منهم
 حتى ندفع إليهم محمدا فيقتلوه ويمثلوا به ، فلم يكن تأمن فيهم إلا من مؤسم إلى مؤسم ،
 فحرم الله لنا على منعه ، والذب عن حوزته ، والرمي من وراء حرّمته ، والقيام بأسيا فيما
 دونه في ساعات الخوف بالليل والنهار ، فمؤامرا يرجو بطلك الثواب ، وكافرنا ينجّمي عن
 الأصل ، وأما من أسلم من قريش فيهم فما نحن به حلاء ، منهم الخليف للمنوع ، ومنهم ذو العشرة
 التي ندافع عنه ، فلا ينبغي أحدٌ مثل ما شاء به قومنا من التلف ، فهم من القتل بمكان ^(٣)
 نحوه وأمن ، فكان ذلك ما شاء الله أن يكون ثم أمر الله تعالى رسوله بالهجرة ،
 وأذن له بعد ذلك في قتال المشركين ، فكان إذا أحرّ الناس ، ودعيت نزال ^(٤) أقام
 أهل بيته ، فاستقدموا ، فوق أصحابه بهم حدّ الأسنة والسيوف ، فقتل عبدة يوم بدر ،
 وحرّة يوم أحد ، وجعفر وريد يوم مؤتة ، وأراد من لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي
 أرادوا من الشهادة مع النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة ، إلا أن آجالهم عجلت ، ومنيته
 أخرت ، والله وليّ الإحسان إليهم ، وليلة عليهم ، أسلفوا من أمر الصالحات ، فما
 سمعتُ بأحد ولا رأيته هو أضح في طاعة رسوله ولا لنبيّه ، ولا أصبر على اللاؤاء ^(٥)
 والسرّاء والضّرّاء وحين البأس ، ومواطن الكروء مع النبي صلى الله عليه وسلم من هؤلاء
 الثفر الذين سميتُ لك ، وفي المهاجرين خبرٌ كثير يعرف ، حرام الله خيرا أحسن

(١) الليرة بالكسر : ما يجلب في ويريد بالعدب اللاء .

(٢) أحسّونا الخوف : أي أرمونا .

(٣) انظر صهيبي ١٠٠ ، ١١١ .

(٤) دعيت نزال ، كقطام : أي تارلوا للحرب .

(٥) اللاؤاء : الشدة .

أعمالهم . وذكرت حسدى الخلفاء وإطائى عنهم ، ونفى عليهم ؛ فأما النبى فعاذ الله أن يكون ، وأما الإطاء عنهم والكراهية لأمرهم فليست أعذر إلى الناس من ذلك ؛ إن الله تعالى ذكره لما قص نبيه الله صلى الله عليه وسلم قالت قريش : منّا أمير ؛ فقالت قريش : منّا محمد ، نحن أحق بالأمر ، فمرت ذلك الأنصار فسدت لهم الولاية والسلطان ، فإذا استحقوها بمحمد صلى الله عليه وسلم دون الأنصار فإن أولى الناس بمحمد أحق به منهم ، وإلا فإنّ الأنصار أعظم العرب فيها نصيبا ، فلا أدرى : أصحابى سلموا من أن يكونوا حتى أخذوا ، أو الأنصار ظلموا ، بل عرفت أن حتى هو المأخوذ ، وقد تركته لم تجاوزا الله عنهم . وأما ما ذكرت من أمر عثمان ، وقطيع ربه ، وتأليى عليه فإن عثمان عمل ما قد طعنتك ، فصنع الناس به ما رأيت ، وإياك لعلم أنى قد كنت فى عرلة عنه إلا أن تصحى ؛ فتجنّ^(١) ما سألوك ؛ وأمل ما ذكرت من أمر قتلة عثمان فإن نظرت فى هذا الأمر وصرت أنفه وعينه فم آردفهم إليك ولا إلى غيرك ، ولعمري لئن لم يزع عن عيئك وشقاقك لتعرفهم عن قليل يظلموك لا يكفموك أن تظلمهم فى بر ولا بحر ولا سهل ولا جبل ، وقد آتاني أبوك حين ولّى الناس أبا بكر ، فقال : أنت أحق بمقام محمد ، وأولى الناس بهذا الأمر ، وأنا رعيم لك بذلك هل من خالف ، أبسط يدك أبايئك ؛ فلم أفعل ، وأنت تعلم أن أبك قد قال ذلك وأراد حتى كنت أنا الذى أبيت ؛ لقرب عهد الناس بالكفر بحافة العرقة بين أهل الإسلام ، فأبوك كان أعرف بحقى منك ، فإن تعرف من حتى ما كان أبوك يعرف نصت رُشدك ، وإن لم تفعل فسيفنى الله عنك ، والسلام^(٢) .

(١٠)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا :

وَكَيفَ أَنْتَ صَاحِبٌ إِذَا تَكَشَّمْتَ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ
تَهَجَّتْ بِزِينَتِهَا ، وَخَدَعَتْ بِلَدَّتِهَا ؛ دَعْنِكَ فَأَجَنَّتَهَا ، وَقَادَتِكَ فَأَنَسَمَهَا . وَأَمْرَتِكَ
فَأَطَعَهَا ، وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لَا يُنَحِيكَ مِنْهُ مُسْجِرٌ .
فَافْتَسْ عَنِ هَذَا الْأَمْرِ ، وَخُذْ أَهْبَةَ الْحَبَابِ ، وَتَمَرَّ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ ،
وَلَا تَمَكِّنِ الْفَوَاقِ مِنْ تَمَعِكَ ، وَإِلَّا تَفْعَلْ أَغْلِيْكَ مَا أَعْمَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ ،
فَالْبُكَ مُتَرَفٌّ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَا أَحَدُهُ ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلُهُ ، وَجَرَى مِنْكَ
مَحَرَّى الرُّوحِ وَالْدَّمِ .

وَمَقَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةَ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ ، وَرُدْلَاةَ أُمْرِ الْأَمَّةِ ، سَبْرٍ قَدِيمٍ سَابِقٍ ،
وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ ، وَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنْ لُرُومٍ سَوَاقِي الشَّقَاءِ .
وَأَحْذَرُكَ أَنْ تَكُونَ مُمَادِيًّا فِي عِرَّةِ الْأُمْنِيَّةِ ، مُخْتَلِفِ الْعِلَالِيَّةِ وَالسَّرِيرَةِ .
وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ فَدَجَّ النَّاسَ جَدِيًّا ، وَأَخْرَجَ إِلَيَّ ، وَأَغْبِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ
الْقِتَالِ ، لَتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَأَسْغَطَى عَلَى نَصْرِهِ !
فَأَنَا أَبُو حَسَنِ ، قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَحَالِكَ شَدْخًا يَوْمَ بَذْرِ ، وَذَلِكَ السَّيْفُ
مَعِي ، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي ؛ مَا أَسْتَنْدَلْتُ دِيًّا ، وَلَا أَسْتَعْدَدْتُ نَبِيًّا ، وَإِنِّي
لَعَلَى الْمِهَاجِ الَّذِي تَرَ كُتُوبَهُ طَائِعِينَ ؛ وَدَحَنْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ .
وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِرًا بِدِمِ عُثْمَانَ ! وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ ، فَأَطْلُبُهُ

مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِمًا ، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَصَيْتَكَ ضَجِيجَ
الْجَمَالِ بِالْأَنْقَالِ وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُوِي حَرَامًا مِنَ الضَّرْبِ الْمَتَابِعِ ، وَالْقَصَاءِ
الْوَاقِعِ ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ ، إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاوِدَةٌ ، أَوْ مُبَايَعَةٌ حَائِدَةٌ .

الْبَزْجُ

الحَلَايِبُ : جمعُ حَلَابٍ ، وَهِيَ زِينَةُ فِي الْأَصْلِ ؛ وَاسْتُعِيرَ لِعِيرِهَا مِنَ الشِّيَابِ ،
وَتَحَلَّبَ الرَّجُلُ حَلْبَةً ، وَلَمْ تُدْغَمْ لِأَنَّهَا مُلْحَقَةٌ بِـ « دَخَرَجَةٍ » .

قوله : « وَتَهَجَّتْ زِينَتُهَا » : صَارَتْ ذَاتَ بَهْجَةٍ ، أَيْ زِينَةٍ وَحُشْنٍ ، وَقَدْ تَهَجَّ
الرَّجُلُ بِالضَّمِّ ، وَيُوشِكُ : بِسُرْعٍ .

وَبَقَعَكَ وَاقِفٌ ، بِمَعْنَى الْمَوْتِ ؛ وَبُرْزَى : « وَلَا يَنْعِيكَ يَحْنٌ » ، وَهُوَ الْقُرْسُ ،
وَالرَّوَابِيَةُ الْأُولَى أَصَحُّ .

قوله : « فَاقْصَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ » ، أَيْ تَأَخَّرْ عَنْهُ ، وَالْمَاضِي قَصَرَ بِالْفَتْحِ ، وَمِثْلُهُ
تَقَاعَسَ وَاقْفَنَسَ .

وَأَهْبَةُ الْحِسَابِ : عُدَّتُهُ ، وَتَاهَبَ : « اسْتَعَدَّ » ، وَجَمَعَ الْأَهْبَةُ أَهْبًا .
وَشَمَّرْنَا قَدْ نَزَلَ بِكَ ، أَيْ حِدًّا وَاجْتَهَدَ وَخِيفَ ، وَمِنْهُ رَجُلٌ شَمَّرِيٌّ يَفْتَحُ
الشَّيْنِ ، وَتُكْسَرُ .

وَالْعَوَاةُ : جمعُ عَاوٍ ، وَهُوَ الصَّالُّ .
قوله : « وَإِلَّا تَفْعَلْ » يَقُولُ : وَإِنْ كُنْتَ لَا تَفْعَلُ مَا قَدْ أَمَرْتُكَ وَوَعظْتُكَ بِهِ فَإِنِّي
أَعْرِفُكَ مِنْ نَفْسِكَ مَا أَغْفَتَ مَعْرِفَتُهُ .

إِنَّكَ مُتَرَفٌّ ، وَلِلْمُتَرَفِّ الَّذِي قَدْ أَتْرَفْتَهُ النُّعْمَةُ ، أَيْ أَطْلَعْتَهُ .

قد أخذ الشيطان منك مأخذه ؛ ويُرْوَى « مأخذه » بالجمع ، أى تناول الشيطان منك لُبِّكَ وعقلك . ومأخذه مصدر ، أى تناولك الشيطان تناوله للعروف ، وحذف مفعول « أخذ » لدلالة الكلام عليه ، ولأن اللفظة تجرى مجرى المثل .

قوله : « وجرى منك مجرى الروح والدم » ، هذه كلمة رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » .

ثم حرج عليه السلام إلى أمر آخر ، فقال معاوية : « ومتى كنتم ساسة الرعية ، وولاء أمر الأمة ؟ » ينبى أن يحمل هذا الكلام على نبي كويهم سادة وولاءة في الإسلام ، وإلا ففي الجاهلية لا يُسَكَّر رياسة بنى عبد شمس . ولست أقول برياستهم على بنى هاشم ، ولكنهم كانوا رؤساء على كثير من بطون قريش ، ألا ترى أن بنى نوفل ابن عبد مناف ما زالوا أتباعاً لهم ، وأن بنى عبد شمس كانوا في يوم بدر قادة الجيش ، كان رئيس الجيش عتبة بن ربيعة ، وكانوا في يوم أحد ويوم الخندق قادة الجيش ، كان الرئيس في هذين اليومين أباسفيار بن حرب ؛ وأيضاً فإن في كلمة أمير المؤمنين عليه السلام ما يُشعر بما قلناه ، وهو قوله : « وولاءة أمر الأمة » فإن الأمة في العرب هم المسلمون ، أمة محمد صلى الله عليه وآله .

قوله عليه السلام : « غير قدم سابق » ، يقال : لفلان قدمٌ صِدْق ، أى سابقة وأثرٌ حسن .

قوله عليه السلام : « ولا شرف باسق » ؛ أى عالٍ .
وَتَمَادَى : تفاعل ، من المدى ، وهو العادة ، أى لم يقف بل مَضَى قُدُماً .
وَالْغِرَّة : العفلة ؛ وَالْأَمْسِيَّة : طمع النفس . ومخيف السريرة والعلانية : منافق .
قوله عليه السلام : « قدَرع الناس جابياً » ، منصوب على الظرف .

والمرين على قلبه : اللغوب عليه ، من قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(١) . وقيل : الرّيب : الدّسب على القريب .

وإنما قال أمير المؤمنين عليه السلام معاوية هذه الكلمة لأنّ معاوية قالها في رسالة كتبها ، ووقعت عليها من كتاب أنى العباس يعقوب بن أبي أحمد الصّيمريّ الذي جمعه من كلام عليّ عليه السلام وخطبه ، وأوامها :

أما بعد ، فإنك المطبوع على قلبك ، المنطوي على نمرتك ؛ الشرّ من شيمتك ، والعنوة من حقيقتك ، فشمّر للحرب ، واصبر للصّرب ، هو الله ليرجمن الأمر إلى ما عدت ، والعاقبة للمتقين . هيهات هيهات ! أخطأك ما تمنى ، وهوى قلبك فيما هوى ، فارتع على طعنك ، وقس شبرك بعترك ، تعلم أين حالك من حال من يرزّ الجمال حله ، ويفصل بين أهل الشك حله ؛ والسلام .

فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام : أما بعد ، يا ابن صخر ، يا ابن اللعين ؛ يرزّ الجمال فيما رحمت حلّك ، ويفصل بين أهل الشك علمك ؛ وأنت الجاهل القليل الفقه ، للفتاوت العقل ، الشارد عن الدين .

وقلت : « فشمّر للحرب ، واصبر » ، فإن كنت صادقاً فيما ترعّم ، ويؤمنك عليه ابن النّابغة ، فدع الناس جانباً ، وأعصِ الفريقين من القتال ، وارزّ إلى لتعلم أين المرين على قلبه ، المنطوي على بصره ، فأما أبو الحسن حقاً ، قاتل أخيك وحالك وجدك ؛ شدحاً يوم بدر ، وذلك السيّف ممي ، وملك القسيّ التي عدوى !

قوله عليه السلام «شذخا»؛ الشذخ: كسر الشيء الأجوف، شذخت رأسفاً شذخ، وهؤلاء الثلاثة: حنظلة بن أبي سفيان، والوليد بن عتبة، وأبو عتبة بن ربيعة، وحنظلة أخوه، والوليد خاله؛ وعتبة جدّه، وقد تقدّم ذكر قتلِهِ إِيّاهُمْ فِي غَزَاةِ بَدْرٍ.

والنائر: طالب الثأر. وقوله: «قد علمت حبشوق دم عثمان فاطلبه من هنالك»، يريد به إن كنت تطلب ثأرك من عند من أحلب وحاصر، فالذي فعل ذلك طلحة والزبير؛ فاطلب ثأرك من بني تميم ومن بني أسد بن عبد المزني، وإن كنت تطلبه ممن حذّل، فاطلبه من بنيك فإنك حدّكته، وكنت قادراً على أن ترفقه^(١) وتُمِدّه بالرجال، فخذلته وقعدت عنه بعد أن استنجذك وأستغث بك.

وتصجّ: تصوّت. والجاحدة: المكبرة، والحائدة: العادلة عن الحق.

واعلم أن قوله: «وكانت بجماعتك يدعوني سرّ عامن السيف إلى كتاب الله تعالى»، إيمان أن يكون فِرَاسَةٌ نبوية صادقة، وهذا عظيم، وإما أن يكون إخباراً عن غيب مفصل، وهو أعظم وأحب، وعلى كلا الأمرين فهو غاية العجب. وقد رأيت له ذكر هذا المعنى في كتاب غير هذا، وهو: أما بعد، فما أحب ما بيني منك، وما أعلسى بمنزلتك التي أنت إليها صائر، ونحوها سائر؛ وليس إبطائي عنك إلا لوقت أمابه مصدّق، وأنت به مكذّب؛ وكانني أراك وأنت تصجّ من الحرب، وإخوانك يدعوني حوقاً من السيف، إلى كتابهم به كافرون، وله جاحدون.

ووقفت له عليه السلام على كتاب آخر إلى معاوية يذكر فيه هذا المعنى، أوّله: أما بعد، فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الحق أساطير، ونبتنموه وراء

(١) ترفقه: تبعه.

ظهوركم ، وحاولتم إطفاءه بأفواهكم ، ﴿ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ تَبْتِمَ نُورَهُ وَتُؤْكِرَهُ
الْكَافِرُونَ ﴾ ^(١) . ولعمري لينتدن العلمُ فيك ، وليتسنَّ النورُ بصيرلثوقماءك ، ولتخسانَ
طريداً مَذْجوراً ، أو قتيلاً مشهوراً ^(٢) ؛ ولتُجزَيْنَ بِعَمَلِكَ حيث لا ماصراً لك ،
ولا مُصرِّخاً ^(٣) عندك . وقد أسهت في ذكر عثمان ، ولعمري ما قتله غيرك ، ولا حدَّله
سواك ، ولقد تربصت به الدوائر ، وتمنيت له الأمانى ، طمعاً فيما ظهر منك ، ودلّ
عليه فعلُك ، وإني لأرجو أن أحقق به على أعظم من ديه ، وأصعب
من حطيتته .

فأما ابن عبد المطلب صاحب السبب ، وإن قامته لى يدي ، وقد علمت من قتلتُ
به من صناديد بني عبد قحس ، وفراغة سى ستم وجمع وبى محروم ؛ وأيمنتُ أناءهم ،
وأيمنتُ ساءهم ^(٤) . وأذكرك ما لست له بأسياء يوم قتلْتُ أخاك حنظلة ، وحررتُ برجله
إلى القليب ^(٥) ، وأسرتُ أخاك عمرو بن لحيست حقه بين ساقيه رباطاً ، وطلبتُك فقررتُ
ولك حصاص ^(٦) ؛ فلو لا أى لا أتبع قاراً ، لجلعتُ نالهما ، وأنا أولى لك بالله أليّة
برّة غير فاحرة ؛ لأنى سمعتى وإياك جوامع الأقدار ، لأمركتك مثلاً يمتثل به
الساس أبدأ ، ولأجفحمن بك فى ماسخك حتى يحكم الله بينى وبينك ، وهو
خيرُ الحاكمين .

ولئن أنسا ^(٧) الله فى أجلى قليلاً لأغريتك سرايا المسلمين ، ولأنهدن إليك فى
حتفل من المهاجرين والأنصار ، ثم لأقبل لك معصرة ولا شفاعة ، ولا أحيبك إلى
طلب وسؤال ، ولترجعن إلى تحيُّرك وتردُّدك وتلدُّدك ، فقد شاهدت وأصرت ورأيت

(١) سورة التوبة ٣٢ .

(٢) مشورا : هالكا ؛ أو مصروفا عن الحق .

(٣) أعت ساءهم ؛ أى تركتهم بلا أرواح .

(٤) الحصاص : شدة الندم .

(٥) المصرح : المسميت .

(٦) القليب : البئر .

(٧) أنسا الله فى أجلى ؛ أى أخره للبلا .

سُئِلَ لِلْوَيْ كَيْفَ هَظَلَتْ عَلَيْكَ بِصِيَّهَا ^(١) حَتَّى أُعْتَمِمت بِكِتَابِ أَنْتِ وَأَبُوكَ أَوَّلَ مَنْ
كَفَرَ وَكَذَّبَ بِزُؤْلِهِ . وَلَقَدْ كُنْتُ تَفَرَّسْتُهَا ، وَأَذْنُكَ أَمَّاكَ فَاعْلَمُهَا ، وَقَدْ مَضَى مِنْهَا
مَا مَضَى ، وَانْقَضَى مِنْ كَيْدِكَ فِيهَا مَا انْقَضَى ، وَأَنَا سَائِرٌ نَحْوُكَ عَلَى أَثَرِ هَذَا الْكِتَابِ ،
فَاحْتَرِ لِنَفْسِكَ ، وَانْظُرْ لَهَا ، وَتَدَارِكْهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَطَرْتَ وَاسْتَمَرَّرْتَ عَلَى غِيَّكَ
وَعَلَوَاتِكَ ^(٢) حَتَّى يَنْهَدَ إِلَيْكَ عِبَادُ اللَّهِ ، أُرْتَبِجَتْ عَلَيْكَ الْأُمُورُ ، وَمُنَعْتَ أَمْرًا هُوَ الْيَوْمَ
مِنْكَ مَقْبُولٌ .

يَا بَنَ حَرْبٍ ، إِنْ لَجَّاجُكَ فِي مِتَارَعَةِ الْأَمْرِ أَهْلُهُ مِنْ سَفَاهِ الرَّأْيِ ، فَلَا يَطْمَعُكَ
أَهْلُ الضَّلَالِ ، وَلَا يَوْفُقُكَ سَفْهُ رَأْيِ الْجَهْلِ ، هُوَ الَّذِي مَسُّهُ عَلَى بَيْدِهِ لَثَمٌ بَرَقَتْ
فِي وَجْهِكَ بَارِقَةٌ مِنْ ذِي الْقَنَارِ لَتَصْمَعَنَّ صَفْقَةً لَا تُفِيقُ مِنْهَا حَتَّى يُبْلَغَ فِي الصُّورِ التَّفْخَةُ
الَّتِي بَشَّرَتْ بِهَا ﴿ كَمَا بَيَّسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَعْمَحَاتِ الْقُورِ ﴾ ^(٣) .



قُلْتُ : سَأَلْتُ الْقَيْبَ أَبَا زَيْدٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ : هَلْ شَهِدَ بِلَرٍّ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ؟ قَالَ :
نَعَمْ شَهِدَهَا ثَلَاثَةً مِنْ أَوْلَادِ أَبِي سَفْيَانَ : حَنْظَلَةُ وَعَمْرُو وَمُعَاوِيَةُ ، قُتِلَ أَحَدُهُمْ ، وَأُسِرَ الْآخَرُ ،
وَأَقْلَتِ مُعَاوِيَةُ هَارِبًا عَلَى رَجُلَيْهِ ، فَقَدِمَ مَكَّةَ ، وَقَدِ اسْتَمَخَ قَدَمَاهُ ، وَوَرَمَتْ سَاقَاهُ ، فَعَالَجَ
نَفْسَهُ شَهْرَيْنَ حَتَّى بَرَأَ .

ثَالِ الْقَيْبِ أَبُو زَيْدٍ : وَلَا خِلَافَ عِنْدَ أَحَدٍ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَتَلَ حَنْظَلَةَ
وَأَمَرَ عَمْرًا أَحَاهُ . وَلَقَدْ شَهِدَ بِلَرٍّ ، وَهَرَبَ عَلَى رَحْلَيْهِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُمَا وَمِنْ أَخِيهِمَا
عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وَدَّ فَارَسَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ ، شَهِدَهَا وَنَجَا هَارِبًا عَلَى قَدَمَيْهِ ، وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ،

(٢) الْفُلُوءُ : الْكُفْرُ .

(١) الصَّبِيبُ : الْمَطَرُ لِلنَّسَبِ .

(٣) الْمَصْحَفَةُ ١٢ .

وارث^(١) جريحاً ، فوصل إلى مكة وهو وقيد^(٢) فلم يشهد أحداً ، فلما برأ شهد الخندق ، فقتله قاتل الأبطال ، والذي فاتته يوم بدر استدركه يوم الخندق .

ثم قال لي النقيب رحمه الله : أما سمعت نادرة الأعشى ومناظرة ؟ قلت : ما أعلم ماتريد ؟ فقال : سأل رجل الأعشى - وكان قد ناظر صاحبها له : هل معاوية من أهل بدر أم لا ؟ فقال له : أصححك الله ، هل شهد معاوية بدرأ ؟ فقال : نعم من ذلك الجانب .

واعلم أن هذه الخطبة قد ذكرها نصر بن مزاحم في كتاب " صفيين " على وجه يقتضي أن ما ذكره الرضى - رحمه الله - منها قد صم إليه بعض حطية أخرى ، وهذه عادته ، لأن غرضه القسط العصيح والبيع من كلامه ، والذي ذكره نصر بن مزاحم هذه صورته :

من عدا الله على أمير المؤمنين أبي معاوية بن أبي سفيان ، سلام على من اتبع الهدى فإني أحد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإني قد رأيت مرور الدنيا وانقضاءها وتصرُّمها وتصرُّفها بأهلها ، وحير ما اكتسب من الدنيا ما أصابه العباد الصالحون منها من التقوى ، ومن يقس الدنيا بالآخرة يحدُّ بينهما بعيداً . واعلم يا معاوية أنك قد ادعيت أمراً لست من أهله^(٣) لاني القديم ولا في الحديث^(٤) ، ولست تقول فيه بأمرين يُعرف له أثر^(٥) ، ولا عليك منه شهد من كتاب الله [^(٥)] ؛ ولست متعلقاً بآية من

(١) ارثت جريحاً : حل من للمكة ريثماً ؟ أي جريحاً وبه رمق .

(٢) الوقيد : الشديد المرس ، الشرف على الهلاك .

(٣ - ٤) صفيين : « لاني القديم ولا في الولاية » . (٤) صفيين . « أنفة » .

(٥) من صفيين .

كتاب الله ، ولا عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكيف أنت صانع ^(١) إذا
تشتت عنك غيابة ما أنت فيه من ديا قد فنت بزيتها ، ورَكَت إلى لذاتها ^(٢) ،
وغلى بينك وبين عدوك فيها ، وهو عدو وكلب مضل جاهد مليح ^(٣) ، ملح ، مع
ما قد ثبت في نفسك من جهتها ، دعيت فأحبها ، وفادتك فاتبعتها ، وأمرتك فأطعتها ،
فاقص ^(٤) عن هذا الأمر ، وخذ أهمة الحساب ، فإنه يؤشك أن يقفك واقف على
حالا يحبك ^(٥) يحزن .

ومنى كتم يا معاوية ساسة الرعية ، أو ولانة لأمر هذه الأمة ، بلا قدم حسن ،
ولا شرف تليد على قومكم ، فاستيقظ من سيمتك ، وارجع إلى خالك ، وشمر لما
سيزل بك ، ولا تمكّن عدوك الشيطان من يعينه عليك ؛ مع أني أعرف أن الله
ورسوله صادقان ، نعوذ ^(٦) بالله من لزوم سائق الشقاء وإلا تفعل فإني أعلمك ما أعلمت
من نفسك ، إنك متعرف ، قد أخذ منك الشيطان بعده ، فخرى منك تحرى الدم في
المروق ، ولست من أمة هذه الأمة ولا من رعائها . واعلم أن هذا الأمر لو كان إلى
الناس أو بأيديهم لحسدوا به ، ولا آمنوا عليه به ، ولكم قصاص ممن مَحَبَّاه وأخصما به ،
على لسان نبيه الصادق المصدق ، لا أفلع من شك بعد المرقان والبيعة ! رب احكم
بيننا وبين عدونا بالحق وأنت خير الحاكمين ^(٧) .

• • •

قال نصر : ^(٨) فكتب معاوية إليه الجواب ^(٩) : من معاوية بن أبي سفيان إلى علي
ابن أبي طالب ، أما بعد ، فدع الحسد ، فإنك طالب لم تلتفع به ، ولا تفيد ساجدة

(١-١) صعين : « إذا تشتت عنك حلايب ما أنت فيه من ديا أجهت بزيتها ، ورَكَت إلى لذتها » .

(٢) اللج : اللوح بالسيف ؛ يقال : ألح بالسيف ؛ ولوح : إذا حركه ولم به .

(٣) أقص عن هذا الأمر : أي تأخر .

(٤) كما في صعين و ١ ، وفي ب : « يحبك » .

(٥) صعين : « فنود » . (٦) صعين ١٢١ ، ١٢٢ .

(٧-٧) صعين : « فكتب معاوية بسم الله الرحمن الرحيم » .

جهادك بشيرة تَحَوُّتِكَ ، مِنْ الْأَعْمَالِ مَخْرَاجِهَا ، وَلَا تُمَحِّصْ سَابِقَتَكَ بِقِتَالٍ مِّنْ لَا حَقَّ
لَكَ فِي حَقِّهِ ^(١) ، فَإِنَّكَ إِن تَفْعَلْ لَا تَصْرُ بِذَلِكَ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَلَا تَمَحِّقْ إِلَّا عَمَلَكَ ، وَلَا
تُبْطِلْ إِلَّا حِجَّتَكَ ؛ وَلَعَمْرِي إِنْ مَا مَعِيَ لَكَ مِنَ السَّابِقَاتِ لَشِبِّهِ أَنْ يَكُونَ مَمْحُوقًا ، لِمَا
اجْتَرَأْتَ عَلَيْهِ مِنْ سَفْكَ الدِّمَاءِ ، وَحِلَافِ أَهْلِ الْحَقِّ ، فَاقْرَأِ السُّورَةَ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا الْفَلَقَ
وَتَعَوَّذْ مِنْ نَفْسِكَ ^(٢) فَإِنَّكَ الْخَاسِدُ إِذَا حَدَّ ^(٣) .

(١) حق الرجل وأحقه ؟ إذا غره على الحق .

(٢) صعب : « وتعوذ بآية من شئ نفسك » .

(٣) صعب ١٢٣ .

(١١)

الأمثل :

ومن وصية له عليه السلام وصى بها جيشا بعثه إلى العدو :

فَإِذَا بَرَلْتُمْ يَدُوَّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ ، فَلْيَكُنْ مُنْكَرُكُمْ فِي قُلُوبِ الْأَشْرَافِ ،
أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ ، أَوْ أَثْنَاءِ الْأَنْهَارِ ، كَيْفَمَا يَكُونُ لَكُمْ رِذَاهَا ، وَدُوسُكُمْ مَرَدًّا .
وَلْيَكُنْ مُقَاتِلَتُكُمْ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ أَوْ أُنْثَيْنِ ، وَأَحْمَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صِيَامِ
الْجِبَالِ ، وَمَسَاكِبِ الْهَضَابِ ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمْ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانٍ نَحَافَةٍ أَوْ أَمْسٍ .
وَأَعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُوبُهُمْ ، وَخَلْفَهُمْ لِقَدِّمَةِ طَلَائِمِهِمْ . وَإِيَّاكُمْ وَالتَّعَرُّقَ ،
فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَأَنْزِلُوا جَمِيعًا ، وَإِذَا أَنْتَحَسْتُمْ فَأَنْتَحِلُوا جَمِيعًا ، وَإِذَا عَشَيْتُمْ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا
الرَّمَاخَ كَيْفَةً ، وَلَا تَدُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غَرَرًا أَوْ مَضْمَنَةً .

• • •

الشرح :

المعسكر ؛ بفتح الكاف : موضع المعسكر ، وحيث ينزل .

الأشراف : الأماكن العالية ، وقيلها : ما أستقبلت منها ، وضده الدُّبُر .

وسفاح الجبال : أسافلها حيث يسفح منها الماء .

وأثناء الأنهار : ما أعطف منها ، واحدها ثني . والمعنى أنه أمرهم أن ينزلوا مسندين

ظهورهم إلى مكانٍ عالٍ كالهضاب العظيمة ، أو الجبال ، أو مُنْطَفِئِ الأنهار التي تجري

بجري الخنادق على المعسكر ليأمنوا بذلك من البيات ، وليأمنوا أيضاً من إتيان العدو لهم

من خليفهم ، وقد فسر ذلك بقوله : كما يكون لكم رِذاء ، والرِّداء : العَوْن ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِذَاءً يُصَدِّقُنِي 》^(١) .

ودونكم مَرَدًّا ، أى حاجزا بينكم وبين العدو .

ثم أمرهم بأن يكون مقاتلتهم - بفتح التاء ، وهى مصدر « قاتل » - من واحدٍ واحدٍ أو اثنين ؛ أى لا تتفرقوا ؛ ولا يكن قتالكم العدو فى جهاتٍ متشعبة ، فإن ذلك أدعى إلى الوهن ، واجتماعكم أدعى إلى الطفر ، ثم أمرهم أن يجعلوا رقباء فى صياحى الجبال . وصياحى الجبال : أعاليها وما حرى بحرى الحصون منها ، وأصل الصياحى القرون ، ثم استعير ذلك للحصون لأنه يمتنع بها كما يمتنع ذو القرن بقرنه . وماكب المضاب : أعاليها ؛ لثلا يأتىكم العدو إما من حيث تأمسون ، أو من حيث تخافون .

فوله عليه السلام : « مقدّمة القوم عيونهم » ، المقدّمة ، مكسر الـدال ، وهم الذين يتقدّمون الجيش ، أصله مقدّمة القوم أى الفرقة المتقدمة . والطلائع : طائفة من الجيش تبعث ليُعلم منها أحوال العدو . وقال عليه السلام : للمقدّمة عيون الجيش . والطلائع عيون المقدّمة ، فالطلائع إذا عيون الجيش .

ثم نهاهم عن التفريق ، وأمرهم أن ينزلوا جميعاً ويحلوا جميعاً ، لئلا ينجأهم العدو بفتنة على غير تعصية وأحتماع ، فاستأصدهم ؛ ثم أمرهم أن يحملوا الرماح كيفة إذا عشيهم الليل ، والكاف مكسورة ، أى أحملوها مستديرة حولكم كالدائرة ، وكل ما استدار كيفة بالكسر ، نحو كيفة الميزان ، وكل ما استطال كيفة بالضم نحو : كيفة الثوب وهى حاشيته ، وكيفة الرمل ، وهو ما كان منه كالخيل .

ثم نهاهم عن النوم إلا غراراً أو مصصةً ، وكلا اللعطين مائل من النوم .

وقال شبيب الخارجي : الليلُ يَكْفِيكَ الجبان ، ويصف الشجاع .

وكان إذا أُمسى قال لأصحابه : آنا كم المدد ، يعني الليل .

قيل لبعض الملوك بَيَّتْ عدوك . قال : أكره أن أجعل عِلتي سِرقة .

ولما فصل قحطبة من خراسان وفي مُجْمَعته خالد بن برمك ، يساهو على سَطْح بيت

في قرية نزكها وهم يتعدّون نظر إلى الصَّخْرَاء فرأى أَقَاطِيعَ ظَبَاء قد أَقْبَلَتْ من جهة

الصَّخَارَى حتى كادت تحالط العسكر ، فقال خالد لقحطبة : أَيُّهَا الأمير ، نادِ في الناس :

يَا خَيْلَ اللَّهِ ازْكَبِي ؛ فَإِنَّ الْعَدُوَّ قد قَرُبَ مِنْكَ ، وعامة أصحابك لن يُسْرِجُوا ويُلْجَمُوا

حتى يَرَوْا سَرْعَانَ^(١) الخيل . فقام قحطبة مذعورا فلم يرَ شَيْئاً يَرَوْعُهُ ، ولم يُبَايِنْ غُبَاراً ،

فقال لخالد : ماهذا الرَّأْيُ ؟ فقال : أَيُّهَا الأمير ! لا تتشاعل لي ، ونادِ في الناس ، أما تَرَى

أَقَاطِيعَ الْوَحُوشِ قد أَقْبَلَتْ وفارقت مواضعها حتى حَالَتْ الناس ! وإن ورامها لَجَمَا

كثيفا . قال : فوالله ما أَسْرَحُوا ولا أَلْجَوا حتى رَأَوْا النَّعْ^(٢) وساطع النَّار ، فسلُّوا ،

ولولا ذلك لكان الجيشُ قد اصْطَلَمَ^(٣) .

(١) سرعان الخيل : أوائلها .

(٢) النع : النار .

(٣) اصطلم : استوصل وأيد .

(١٢)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام وصى بها معقل بن قيس الرياحي حين أنقذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له :

أَتَى اللَّهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ ، وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ ، وَسِرَّ الْبِرْدَيْنِ ، وَعَوَّزِ النَّاسِ ، وَرَفَقْ فِي الْخَيْرِ ، وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ الْفِيلِ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَكَنًا ، وَقَدَرَهُ مَقَامًا لَا ظُلْمًا ، فَأَرْحَ بِهِ بَدَنَكَ ، وَرَوْحَ طَهْرِكَ ، قَدَا وَقَتَ حِينَ يَنْسَطِخُ الشَّعْرُ ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْعَجْرُ ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ . فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ قَفِ مِنْ أَصْعَابِكَ وَسَطًا ، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُو مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ . وَلَا تَعَاذْ عَنْهُمْ تَعَاذَ مَنْ يَهَابُ النَّاسَ ، حَقَّ بِأَتَيْكَ أَمْرِي . وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَاْنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ .

• • •

البنج :

معقل بن قيس ، كان من رجال السكوفة وأبطالها ، وله رئاسة وقدم ، أوقفه عمار ابن ياسر إلى عمر بن الخطاب مع الهرمزان لفتح تستر^(١) وكان من شعبة على عليه السلام ، وجهه إلى بني ساقه فقتل منهم وسى ، وحارب المستورد بن علفة الخارجي

(١) تدر ، يضم أوله وسكون ثابه وفتح ثاكه : أعظم مدينة بحور ستان .

من تميم الزباب ، قتل كل واحد منهما صاحبه بدرجة ، وقد ذكرنا خبرهما فيما سبق ، وممقل بن قيس رياحى من ولد رياح بن يرموع بن حنطلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم .

قوله عليه السلام : « ولا تقاتلن إلا من قاتلك » ، نهى عن البغى .

وسر البرذين : هما العداة والقش ، وهما الأبردان أيضا .

ووصاه أن يرفق بالناس ولا يكلفهم السير في الحر .

قوله عليه السلام : « وغور بالناس » : انزل سهم القاتلة ، وأصدر التقوير ، ويقال

للقاتلة : الفائرة .

قوله عليه السلام : « ورقة في السير » ، أى دَعِ الْإِبِلَ تَرُدُّ رِفْعًا^(١) ، وهو أن ترد الماء

كل يوم متى شاءت ولا ترهقها وتحشها السير . ومحوز أن يكون قوله : « ورقة في السير » ، من قولك : رفقت عن الغريم ، أى نفست عنه .

قوله عليه السلام : « ولا تسر أول الليل » : قد ورد في ذلك خبر مرفوع ، وفي الخبر أنه

حين تُنْشَرُ الشياطين . وقد علل أمير المؤمنين عليه السلام النهى بقوله : « فإن الله تعالى

جعل سكنا ، وقدره مقامالا ظمنا » ، يقول : لما امتن الله تعالى على عباده بأن جعل لهم الليل

ليسكنوا فيه^(٢) كره أن يخالفوا ذلك . ولكن لقائل أن يقول : فكيف لم يكره السير

والحركة في آخره وهو من جملة الليل أيضا ويمكن أن يكون فهم من رسول الله

صلى الله عليه وآله أن الليل الذى جعل سكنا للبشر إنما هو من أوله إلى

وقت السحر .

(١) أى ترد الماء كما شاءت .

(٢) وهو قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِنَسْكُوتِ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُشْرَعًا » .

سورة يونس ٦٧ .

ثم أمره عليه السلام بأن يرمح في الليل كدنه وظهروه ، وهي الإبل ، وبنو فلان
مُطهرون ، أى لم ظهر بنقلون عليه ، كما تقول : منجِبون ، أى لم نجائب .

قال الراوندى : الظاهر ، الخيول ، وليس بصحيح ، والصحيح ما ذكرناه .
قوله عليه السلام : « فإذا وقفت » أى إذا وقفت ثقلك وراحلك لتسير ، فليكن
ذلك حين ينبطح السحر .

قال الراوندى : « فإذا وقفت » ثم قال وقد روى : « فإذا واقفت » ، قال : يعنى
إذا وقفت تحارب العدو وإذا واقفت ، وما ذكره ليس بصحيح ولا روى ، وإما هو
تصحيح ، ألا تراه كيف قال بضم بقليل : « فإذا لقيت العدو » وإما مراده ما هو الوصية
بأن يكون السير وقت السحر ووقت الحجارة .

قوله عليه السلام : « حين ينبطح السحر » ، أى حين يتسع ويمتد ، أى لا يكون السحر
الأول ، أى ما بين السحر الأول وبين السحر الأول ، وأصل الابتطاح السعة ، ومنه الابتطاح
بمكة ، ومنه البطيخة ، وتبطح السيل ، أى اتسع في البطحاء ، والفجر انفتح انشق .

ثم أمره عليه السلام إذا لقي العدو أن يقف بين أصحابه وسطاً لأنه الرئيس ، والواجب
أن يكون الرئيس في قلب الجيش ، كما أن قلب الإنسان في وسط جسده ، ولأنه إذا كان
وسطاً كانت نسبته إلى كل الجوانب واحدة ، وإذا كان في أحد الطرفين بعد من الطرف
الآخر ، فربما يختل نظامه ويضطرب .

ثم نهاه عليه السلام أن يدنو من العدو دنواً من يريد أن ينشِب الحرب ، ونهاه أن
يبعدُ منهم بُعداً من يهاب الحرب ، وهى البأس ، قال الله تعالى : ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ ^(١) ،

أى حين الحرب ، بل يكون على حال متوسطة بين هذين حتى يأتيه الأمر من أمير المؤمنين عليه السلام لأنه أعرف بما تقتضيه المصلحة .

ثم قال له : لا يحملتكم بقصم لم على أن تبدؤهم بالقتال قل أن تدعؤهم إلى الطاعة وتُغذِّروا إليهم أى تصيروا ذوى عذر في حرمهم .

والشئان : البغض ، سكون النون وتحريكها .

[نبذ من الأقوال الحكيمة في الحروب]

وفي الحديث المرفوع : « لا تشموا العدو فضى أن تبتواهم ، ولكن قولوا : اللهم اكفنا شرهم ؛ وكف عنا بأسهم ، وإذا جاءوك يعرفون أو يصحون فليكن الأرض جلوساً ، وقولوا : اللهم أنت رثاؤهم ، ويهلكوا وواصيهم ، فإذا غشوك فتودوا في وجوههم » .

وكان أبو الدرداء يقول : أيها الناس ، اعملوا عملاً صالحاً قبل العزو ؛ فإنما تقاتلون بأعمالكم .

وأوصى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان حين استسلمه فقال : سير على بركة الله ، فإذا دخلت بلاد العدو فكن بعيداً من الحملة ، فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء . ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعصه ليس منه ، واحترس من النيات ، فإن في العرب غيرة ، وأقلل من الكلام ، فإن ما وعى عنك هو عليك ؛ وإذا أتاك كتاب فأمضه ، فإنما أهل على حسب إضاذه ، وإذا قدم عليك وعود الحم فأنزله معظم عسكرك ، وأسبع عليهم من النفقة ، وامنع الناس من محادثهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا

تَلَحَّنَ فِي عَقُوبَةٍ فَإِنْ أَدْنَاهَا وَجِيعَةٌ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَيْهَا وَأَنْتَ تَسْكُنُنِي بِصَبْرٍهَا ، وَأَقْبِلْ مِنَ النَّاسِ عَلَانِيَتِهِمْ ، وَكُلُّهُمْ إِلَى اللَّهِ فِي سَرِيرَتِهِمْ ، وَلَا تَعْرِضْ عَسْكَرَكَ فَتَفْضَحَهُ ، وَأَسْتَوْدِعَكَ اللَّهُ الَّذِي لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ .

• • •

وَأَوْصَى أَبُو بَكْرٍ أَيْضًا عِكْرَمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ حِينَ وَجَّهَهُ إِلَى عَمَّانَ فَقَالَ : سِرٌّ عَلَى اسْمِ اللَّهِ ، وَلَا تَنْزِلَنَّ عَلَى مُسْتَأْمِنٍ ، وَقَدِّمُ التَّذِيرِينَ بِيَدَيْكَ ، وَمَهْمَا قُلْتَ : إِنِّي فَاعِلٌ فَأَقْمِلْهُ ، وَلَا تَحْمِلَنَّ قَوْلَكَ لِقَوَانِي عَقُوبَةٍ وَلَا عَفْوٍ ، فَلَا تُرْجِي إِذَا أَثْنَيْتَ ، وَلَا تُخَافُ إِذَا حَوَّفْتَ . وَانْظُرْ مَتَى تَقُولُ وَمَتَى تَفْعَلُ ، وَمَا تَقُولُ وَمَا تَفْعَلُ ، وَلَا تَتَوَعَّدَنَّ فِي مَعْصِيَةٍ نَاكَثٍ مِنْ عَقُوبَتِهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ أَثْنَيْتَ ، وَإِنْ تَرَكْتَ كَذَبْتَ ، وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَإِذَا لَقِيتَ فَاصْبِرْ .

• • •

وَلَمَّا وَلَّى يَزِيدُ بْنُ معاويةَ سَلَّمَ بِنُزِيَادٍ حُرَّاسَانِ قَالَ لَهُ : إِنْ أَبَاكَ كُنَى أَخَاهُ عَظِيمًا ، وَقَدْ اسْتَكْفَيْتُكَ صَغِيرًا ، فَلَا تُسْكِنَنَّ عَلَى عَدُوِّ مَتَى ، فَقَدْ اسْكَنْتَ عَلَى كَعَايَةِ مَنْكَ ، وَإِلَاكَ مِثْقَلُ مَنْ قَبْلَ أَنْ أَقُولَ : إِيَّاكَ مَنْكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّنَّ إِذَا أَخْلَفَ مِنْكَ أَخْلَفَ فِيكَ ، وَأَنْتَ فِي أَدْنَى حَظِّكَ ، فَاطْلُبْ أَقْصَاءَهُ ، وَقَدْ تَبِعَكَ أَبُوكَ ، فَلَا تَرِمَحَنَّ نَفْسَكَ ، وَاذْكُرْ فِي يَوْمِكَ أَحَادِيثَ عَدِّكَ .

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءَ : يَبْنِي لِلأَمِيرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ سِتَّةُ أَشْيَاءَ : وَزِيرٌ يَثِقُ بِهِ ، وَبُخْشٌ إِلَيْهِ بِرَمَّةٍ ، وَحَصْنٌ إِذَا جَاءَ إِلَيْهِ عَصَمَهُ يَعْنِي فَرَسًا - وَسَيْفٌ إِذَا نَزَلَ بِهِ الأَعْرَانُ لَمْ يَخَفْ نَبَوْتَهُ ، وَذَخِيرَةٌ خَفِيفَةُ الْحَمْلِ إِذَا نَابَتْهُ نَائِبَةٌ وَجَدَّهَا - يَعْنِي جَوْهَرًا - وَطَبَاخٌ إِذَا أَقْرَبَتْهُ مِنَ الطَّعَامِ صَنَعَ لَهُ مَا يَهْبِجُ شَهْوَتَهُ ، وَامْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ إِذَا دَخَلَ أَذْهَبَتْ هَمَّهُ . فِي الْحَدِيثِ لِلرَّفُوعِ : خَيْرُ الصَّعَابَةِ أَرْبَعَةٌ ؛ وَخَيْرُ السَّرَائِلِ أَرْبَعُمِائَةٍ ، وَخَيْرُ الْجِيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ،

ولن يُقلب اثنا عشر ألفاً من قِله إذا اجتمعت كِلِمَتُهُمْ .

كان يقال : ثلاثة مَنْ كُنَ فِيهِ لَمْ يُفْلَحْ فِي الْحَرْبِ ؛ الْبَنَى ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا بَنَيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ^(١) ، وَالْمَكْرُ السَّيِّئُ ، قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ^(٢) ، وَالتَّكْتُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْفَكُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ ^(٣) .



يقال : خرجت خارجةً بحراسان على قتيبة بن مسلم ، فَأَهَمَّهُ ذَلِكَ ، فَتَقِيلُ مَا يَهْمُكَ مِنْهُمْ ! وَجَّهَ إِلَيْهِمْ وَكَيْعَ بْنَ أَبِي أَسْوَدَ يَكْفِيكَ أَمْرَهُمْ ، قَالَ : لَا أَوْجِهُهُ ، وَإِنْ وَكَيْعًا رَجُلٌ فِيهِ كِبَرٌ ، وَعِنْدَهُ بَنَى ، يَحْقِرُ أَعْدَاءَهُ ، وَمَنْ كَانَ هَكَذَا قَلَّتْ مِبَالَاتُهُ بِخَصْمِهِ فَلَمْ يَحْتَسِرْ ، فَوُجِدَ عَدُوُّهُ فِيهِ غِرَّةً ، فَأَوْقَعَ بِهِ .

وفي بعض كتب القُرْآنِ : إِنْ بَعْضُ مُلُوكِهِمْ سَأَلَ : أَيْ مَكَايِدَ الْحَرْبِ أَحْزَمُ ؟ فَقَالَ : إِذْكَاءُ الْعِيُونِ ، وَاسْتِطْلَاعُ الْأَخْبَارِ ، وَإِظْهَارُ الْقُوَّةِ وَالسُّرُورِ وَالْعَلَمَةِ ، وَإِمَانَةُ الْفَرَقِ ، وَالْإِحْتِرَاسُ مِنَ الْبَطَانَةِ مِنْ غَيْرِ إِقْصَاءٍ لِمَنْ يَنْصَحُ ، وَلَا اتِّصَاحٍ لِمَنْ يَفْشَى ، وَكَيْفَانُ السَّرِّ ، وَإِعْطَاءُ الْمُبْلَغِينَ عَلَى الْمُشَدِّقِ ، وَمُعَاقِبَةُ الْمُتَوَصِّلِينَ بِالْكَذِبِ ، وَالْأَتْمُحُجُّ هَارِبًا فَتُخَوِّجُهُ إِلَى الْقِتَالِ ، وَلَا تُضَيِّقُ أَمَانًا عَلَى مُسْتَأْمِنٍ ، وَلَا تُدْهَشُكَ الْغَنِيْمَةُ عَنِ الْمَجَاوِزَةِ .

وفي بعض كُتُبِ الْهِنْدِ : يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَحْذَرَ عَدُوَّهُ الْمَحَارِبَ لَهُ عَلَى كَافِلٍ حَالٍ ؛ يَرْهَبُ مِنْهُ لِلْوَائِبَةِ إِنْ قَرُبَ ، وَالْفَارَةِ إِنْ بَعُدَ ، وَالْكَيْبِينَ إِنْ انْكَشَفَ ، وَالْأَسْطَرَادَ إِنْ وَلَّى ، وَالْمَكْرَ إِنْ رَأَاهُ وَحِيدًا . وَيَنْبَغِي أَنْ يُؤَخَّرَ الْقِتَالُ مَا وَجَدَ مُبْدَأًا ، فَإِنَّ النُّفْقَةَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَنْفُسِ ، وَعَلَى غَيْرِهِ مِنَ اللَّالِ .

(٢) سورة ظُحُر ٤٣ .

(١) سورة يُونُسَ ٢٣ .

(٣) سورة الْفَتْحِ ١٠ .

(١٣)

الأجمل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه :

وَقَدْ أُمِرْتُ عَلَيْكُمَا وَفَلَى مَنْ فِي حَيْزِكُمَا مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْتَرِ ، فَاسْتَمِعَا لَهُ وَأَطِيعَا ، وَأَجْعَلَاهُ دِرْعًا وَجَبَّتَا ، فَإِنَّهُ يَمُنُّ لَا يَخَافُ وَهُنَا وَلَا سَقَطَتْهُ ، وَلَا يُطَوِّدُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَالِ الْبَطْءِ عَنْهُ أَمْثَلُ .

[فصل في نسب الأشتر وذكر بعض فضائله]

الشرح :

هو مالك بن الحارث بن عبد يثوث بن مسلة بن ربيعة بن خزيمة بن سعد بن مالك ابن النخع بن عمرو بن علة بن خالد بن مالك بن أدد . وكان فارسا شجاعا رئيسا من أكابر الشيعة وعظمائها ، شديد التحقق بولاء أمير المؤمنين عليه السلام وانصره ، وقال فيه بعد موته : رحم الله مالكاً ، فقد كان لي كما كنتُ لرسول الله صلى الله عليه وآله ! ولما قُتِلَ علي عليه السلام على خمسة وأربعين منهم : معاوية ، وعمرو بن العاص ، وأبو الأعور السلمي ، وحبيب بن مسلة ، وبسر بن أرطاة ، قُتِلَ معاوية على خمسة ، وهم : علي ، والحسن ، والحسين - عليهم السلام - وعبد الله بن العباس ، والأشتر ، ولصمهم . وقد روى أنه قال لما ولى علي عليه السلام بني العباس على الحجاز واليمن والعراق : فلماذا قُتِلنا الشيخ بالأمس ! وإن عليا عليه السلام لما بلغته هذه الكلمة أحضره ولاطفه واعتذر إليه وقال له : فهل وليتُ حسناً أو حسيناً أو أحداً من ولدِ جعفر أخى ، أو عقيلاً

أو واحدا من ولده ! وإنما وليت ولد عمي العباس ، لأنني سمعت العباس يطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله الإمارة مرارا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : يا عم ، إن الإمارة إن طلبتها وكلت^(١) إليها ، وإن طلبتك أعنت عليها . ورأيت بنيي في أيام عمر وعثمان يمدحون في أنفسهم إدا ولي غيرهم من أبناء الطلقاء ولم يول أحدا منهم ، فأحييت أن أصل رَحِمَهُمْ ، وأزبل ما كان في أنفسهم ؛ وبعد فإن علمت أحدا من أبناء الطلقاء هو خير منهم فأتني به . نخرج الأشر وقد زال ما في نفسه .

وقد روى المحدثون حديثا يدل على فصيلة عظيمة للأشتر رحمه الله ، وهي شهادة قاطعة من النبي صلى الله عليه وآله بأنه مؤمن ، روى هذا الحديث أبو عمر بن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " في حرف الجيم ، في باب " حُذِبَ " قال أبو عمر^(٢) :

لما حضرت أبا ذر الوفاة وهو بالْبُدَّة^(٣) بكيت روجه أم ذر ، فقال لها : ما يُكِيك ؟ قالت : مالي لأبكي وأنت تموت بسلامة من الأرض ، وليس عندى ثوب يسعك كفنا ، ولا تدلي من^(٤) القيام بمهلك ! فقال : أبشري ولانسكي ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « لا يموت بين امرأتين مسلمين ولدان أو ثلاثة ، فيصبران ويحتسبان قبران النار أبدا » ؛ وقد مات لنا ثلاثة من الولد . وسمعت أيضا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لنفري أنا فيهم : « ليموتن أحدكم بسلامة من الأرض يشهده عصاة من المؤمنين » ، وليس من أولئك الثمر أحد إلا وقد مات في قرية وجماعة فأنا - لأشك - ذلك الرجل ، والله ما كذبت ولا كُذِّبت ، فانظري الطريق . قالت أم ذر : هلت : أني وقد ذهب الحاج وتقطعت الطرق ! فقال : اذهبي فتبصري . قالت : فكنت

(١) وكلت إليها ، أي احضت إليها ومهرت .

(٢) بسنده عن علي بن المديني ، عن يحيى بن سليم عن عبد الله بن عثمان بن حنيم ، عن مجاهد عن إبراهيم بن الأشتر . عن أبيه .

(٣) الريدة : قرية على ثلاثة أميال من المدينة المنورة قرية من دات مرق .

(٤) الاستيعاب : « القيام » .

أشدّ (١) إلى السَّيِّب ، فأصعد فأَنْظُر ، ثم أرحع إليه فأمرضه ، فيتنا أنا وهو على هذه الحال إذ أنا برجال على رِكابهم (٢) كأنهم الرِّخَم (٣) تَحْبُّ بِهِم رِوَا حِلْمهم ، فأسرعوا إلى حقِّ وقفوا على وقالوا : يا أمة الله ، مالك ؟ قلتُ : امرؤ من المسلمين يموت ، تكفونوه ؟ قالوا : ومن هو ؟ قلتُ : أبو ذرٍّ ، قالوا : صاحبُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلتُ : نعم ، فقدوه بأناسهم وأموالهم ، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه ، فقال لهم : أبشروا فيَّ سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول لنفري أنا فيهم : « ليموتنَّ رجلٌ منكم بعلةٍ من الأرض تشهده عصابةٌ من المؤمنين » ، وليس من أولئك النفري إلا وقد هلك في قرية وجماعة ، والله ما كذبت ولا كذبت ، ولو كان عندي ثوب يسعني كفنا لي أو لأمرائي لم أكنن إلا في ثوب لي أو لها ! وإني أشدكم الله ألا يكفسي رحل منكم كان أميرا أو عريفا أو بريدا أو نقيبا ! قالت : وليس في أولئك النفري أحد إلا وقد فارَّف سمع ما قال ، إلا فني من الأنصار قال له : أنا أكننتك لأعملى ردائي هذا ، وفي ثوبين معي في عييتي من عرلي أتي ؟ فقال أبو ذرٍّ : أمت تكفني ، فأت فكفنه الأنصاري وغسله النفري الذين حَصَرُوهُ وقاموا عليه ودَقُّوهُ ؛ في نفر كلهم يمان (٤) .

روى أبو حمزة بن عبد البرِّ قبل أن يروى هذا الحديث في أوَّل باب جُنْدَب : كان النفري الذين حضروا موتَ أبي ذرٍّ بالرَّبْذَةِ مصادقة جماعة ؛ منهم حُجْر بن الأَدْبَر ، ومالك ابن الحارث الأشتر (٥) .

قلت : حُجْر بن الأَدْبَر هو حُجْر بن عديٍّ الذي قَتَلَه معاويةُ ، وهو من أعلام الشيعة وعظماؤها ، وأما الأشتر فهو أشهر في الشيعة من أبي الهذيل في المعتزلة .

(١) أشد : أعاد . (٢) الاستيحاب : « رحلهم » .

(٣) الرِّخَم : جمع رَخَة ، الطائر اللزوف .

(٤) الاستيحاب : ٨٣ .

(٥) الاستيحاب : « وفني من الأنصار دفنهم أسرته إلى فقهوا موته ، وغمصوا عينيهِ ، وغلوه وكفوه في ثياب الأنصاري ، في خبر يوجب حسن ليه طول » .

قري كتاب " الاستيعاب " على شيخنا عبد الوهاب بن سُكَيْة المحدث وأنا حاضر ، فلما انتهى القارئ إلى هذا الخبر قال أستاذي عمر بن عبد الله الدباس - وكنت أحضر معه سماع الحديث - : لتقل الشيعة بعد هذا ما شئت ، فما قال المرتضى والفيد إلا بعض ما كان حُجْر والأشتر يمتدانه في عثمان ومن تقدمه ، فأشار الشيخ إليه بالسكوت ، فسكت .

ودكرنا آثار الأشتر ومقاماته بصفين فيما سبق .

والأشتر هو الذي عاتق عبد الله بن الزبير يوم الجمل فاصطرها على ظهر فرسها حتى وقعا في الأرض ، فحمل عبد الله بصرخ من تحته : اقتلوني ومالكا ! فلم يعلم من الذي يعنيه لشدة الاحتلاط وثوران النقع^(١) ؛ فلو قال : اقتلوني والأشتر لقتلا جميعا ؛ فلما افترقا قال الأشتر :

أعائش لولا أنتي كنت طاريا ثلاثا لألعبت ابن أختك هالكا^(٢)
غداة يمادي والرماح تنوشيب كوقع الصيبي : اقتلوني ومالكا^(٣)
فجبا مني شيعه وشباهه وأنى شيخ لم أكن متاسكا
ويقال : إن عائشة فقدت عبد الله فالت عنه ، فقبل لها : عهدنا به وهو معانق للأشتر ، فقالت : واتكلى أسماء !

ومات الأشتر في سنة تسع وثلاثين متوجها إلى مصر واليا عليها لعلى عليه السلام . قيل : سقى سُمًا ، وقيل : إله لم يصح ذلك ، وإنما مات حتف أمه .

فأما نساء أمير المؤمنين عليه السلام عيه في هذا الفصل فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل ، ولعمري لقد كان الأشتر أهلا لذلك ، كان شديد البأس ، جوادا

(٢) الطاووي : الجائع .

(١) النقع : الفبار .

(٣) تنوشه : تناوله .

رئيساً حليماً فصيحاً شاعراً ، وكان يجمع بين اللين والعتف ، فيسقط في موضع السطوة ، ويرفق في موضع الرفق .

[نبد من الأقوال الحكيمة]

ومن كلام عمر : إن هذا الأمر لا يصلح إلا لقوي في غير عتف ، ولين في غير صتف .

وكان أبو شروان إذا ولي رحلاً أمر السكائب أن يدع في العهد موضع ثلاثة أسطر ليوقع فيها بحظه ، فإذا أتى بالعهد وقع فيه : سئ خيار الناس بالمودة ، وسيفلتهم بالإخافة ، وامرئج العامة رهبة برغبة .

وقال عمر بن عبد العزيز : إني لأتم أمر أخرج للناس أمراً من العدل ، فأحافؤ إلا تحمله قلوبهم ، فأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا ، فإن نرت القلوب من ذلك سكنت إلى هذا .

وقال معاوية : إني لا أصع سني حيث يكفيني سوطي ، ولا أصع سوطي حيث يكفيني لساني ؛ ولو أن بيني وبين الناس شجرة ما انقطعت . قيل له : كيف ؟ قال : إذا مدوها خلتها ، وإذا خلوها مدتها .

وقال الشعبي في معاوية : كان كالجلجل الطيب . إذا سكيت عنه تقدم ، وإذا ردت تأخر .

وقال يزيد ابنه : قد تبلغ بالوعيد ما لا تبلغ بالإيقاع ، وإياك والقتل ، فإن الله قاتل القتالين .

وأغلظ له رجل فحلم عنه ، فقيل له : أعلم عن هذا ؟ قال : إنا لا نحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا .

وخرّ سليم مولى زياد عند معاوية بن زياد ، فقال معاوية : اسكت ونحك فمأ أدرك
صاحبك بسيفه شيئاً قطّ إلا وقد أدركتُ أكثر منه بلساني .

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : ما السياسة يا أبت ؟ قال : هيبة الخاصة لك ، مع
صدق مودتها ، واقتيادك قلوب العامة بالإصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع .

وقد جمع أمر المؤمنين عليه السلام من أوصاف الثناء والمدح ما فرقه هؤلاء في كلماتهم
بكلمة واحدة قالها في الأشتر ، وهي قوله : « لا يخاف نُكْتُ عَنْ الاسراعِ إليه أحرم ،
ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل .

قوله عليه السلام : « وعلى من في حيزٍ كما » أى في ناحيتكما .

والحِيز : الترس .

والرهن : الصف .

والسَّقطَة : الفلطة والخطأ .

وهذا الرأي أحزم من هذا ، أى أدخل في باب الحزم والاحتياط ، وهذا أمثل من
هذا أى أفضل .

(١٤)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام امسكوا بصفتين قبل لقاء العدو :

لَا تُقَاتِلُونَهُمْ حَتَّى يَبْذُوهَكُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ بِمَحْمَدٍ اللَّهِ عَلَى حُجَّةٍ ، وَتَرَكْتُمْ إِيَّاهُمْ
حَتَّى يَبْذُوهَكُمْ حُجَّةً أُخْرَى لَكُمْ عَنْهُمْ ، فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا
مُدْبِرًا ؛ وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِرًا ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تُهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى
وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاصَكُمْ ، وَسَتَنَ أَمْرًا كُمْ ، فَأُولَئِكَ ضَمِيمَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ ؛
إِنْ كُنَّا لَنُؤَمِّرُ بِالْكَفِّ عَنْهُمْ ، وَإِنْ لَنُشْمُكَاتُ ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَسْأُولُ لِلرَّأَةِ
فِي أَجَاهِلِيَّةٍ بِالْعَهْرِ أَوْ الْهَرَاةِ لِمَقِيمَةٍ بِهَا وَحَقُّهُ مِنْ نَعْدِهِ .



الشرح :

وهي أحبابه عن النبي والانتداء بالحرب ، وقد روى عنه أنه قال : ما نصرت على
الأقرباء الذين قتلهم إلا لأني ما ابتدأت بالمارزة . وهي - إذا وقعت الهزيمة - عن
قتل المدبر ، والإحهاز على الجريح ، وهو إتمام قتله .

قوله عليه السلام : « وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِرًا » هو من يعتصم منك في الحرب بإظهار
عورته لتسكف عنه ، ويحوز أن يكون لثمور هاهنا المريب الذي يظن أنه من القوم وأنه
حاصر للعرب وليس منهم ، لأنه حصر لأمر آخر .

قوله عليه السلام : « وَلَا تُهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى » ، أي لا تحركن كوهن .

والفهر : الحنجر : والهرأوة : العصا .

وعطف « وعقبه » على الضمير المستكن المرفوع في « فيمير » ولم يؤكد للفصل بقوله : بها ، كقوله تعالى : ﴿ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾ ^(١) ، لما فصل بلا عطف ولم يحتاج إلى تأكيد .

[نذ من الأقوال الحكيمة]

ومما ورد في الشعر في هذا المعنى قول الشاعر ^(٢) .

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْكِبَائِرِ عِنْدِي قَتْلُ بِيضَاءِ حُرَّةٍ عَطْبُولٍ ^(٣)

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحَصَّنَاتِ جُرُّ الدُّيُولِ

وقالت امرأة عبد الله بن حنبل الخزاعي بالبصرة لعل عليه السلام بعد ظمرو . وقد

مر بابها : يا علي ، يا قاتل الأحياء ، لا مرحباً بك أنتم الله منك ولذلك كما أيتمت بني

عبد الله بن حنبل ! فلم يرد عليها ، ولكنه وقف وأشار إلى ناحية من دارها ، فهمت

إشارته ، فسكتت وأنصرفت . وكانت قد مدت عندها عبد الله بن الزبير ومروان بن

الحكم ، فأشار إلى الموضع الذي كانا فيه ، أي لو شئت أخرجتهما فلما فهمت أنصرفت ،

وكان عليه السلام حليماً كريماً .

وكان عمر بن الخطاب إذا بعث أمراء الجيوش يقول : بسم الله ، وعلى عون الله ،

(١) سورة الأنعام ١٤٨ .

(٢) من أبيات نسيب لمرين أبي ربيعة ، ملحق ديوانه : ٤٩٨ .

(٣) العطبول : الثابة التي للثقة ؛ وجده :

قُتِلَتْ بَاطِلًا عَلَى غَيْرِ دَسِيبٍ إِنَّ شَرَّ دَرُّهَا مِنْ قَتِيلٍ

وبركته ، فامضوا بتأييد الله ونصره . أوصيكم بتقوى الله ، ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تفتدوا إن الله لا يحب المعتدين . ولا تحبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند الغارة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هريما . ولا امرأة ، ولا وليدا ، وتوقوا أن تعطوا هؤلاء عند التقاء الرخصين وعند حمة النبهات وفي شت الغارات ، ولا تغلوا عند الغنائم ، وبرهوا الجهاد عن عرض الدنيا ، وأشروا بالأرباح في البيع الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم .

واستشار قومكم أكرم من صديق في حرب قوم أرادهم وسألوه أن يوصيهم ، فقال : أقتلوا الخلفاء على أسرائكم ، واثبتوا ، فإن أحرمت الفريقين الركين^(١) ، ورئت عجلة تهب^(٢) ريثا .

وكان قيس بن عاصم المقرئ إذا غزا شهد معه الحرب ثلاثون من ولده يقول لهم : إنا لكم والى ، فإنه ما منى قوم قط إلا دلولوا ؛ قالوا : فكان الرجل من ولده يظلم فلا ينتصف بحافة النمل .

قال أبو بكر يوم حنين : لن نلبي اليوم من قلة - وكانوا اثني عشر ألفا - فهزموا يومئذ هزيمة قبيحة ، وأزل الله تعالى قوله : ﴿ وَبَوْمَ حَمَيْنٍ إِذْ أَهَمَّتْكُمْ كُفْرَتُكُمْ قَلَمُ تَنْزِيلِ عَسْكُمْ شَيْئًا ﴾^(٣) .

وكان يقال : لا ظفر مع ندى ، ولا حمة مع هم ، ولا نساء مع كبر ، ولا سوددة مع شح .

(٢) الرئت : الإبطاء ؛ وهو مثل .

(١) الركين : العزير المتحم .

(٣) سورة التوبة : ٢٥ .

[قصة فيروز بن يزدجرد حين غزا ملك الهياطلة]

ومن الكلمات المستحسنة في سوء عاقبة البغي ما ذكره ابن قتيبة في كتاب "عيون الأخبار" أن فيروز بن يزدجرد بن مهراز لما ملك ساربخوده نحو بلاد الهياطلة، فلما انتهى إليهم اشتد رعب ملكهم أحشوار منه وحده، فهاظر أصحابه ووزرائه في أمره فقال رجل منهم: أعطني مؤثقا من الله وعهدا تظمن إليه نفسي أن تكفيني الغم بأمر^(١) أهل وولدي، وأن تحسن إليهم، وتحلفي فيهم، ثم انقطع يدي ورجلي والقي في طريق فيروز حتى يمر في هو وأصحابه، وأما أكرمك أمرهم^(٢)، وأوزطهم مؤثقا تكون فيه هلكتهم. فقال له أحشوار: وما الذي ننتفع به من سلامتكم وصلاح حالكم إذا أتت هلكت ولم تشركنا في ذلك! فقال: إني قد بلغكم ما كنت أحب أن أبلغ من الدنيا، وأما موقن أن الموت لا بد منه، وإن فاتكم أيما قليلة، فاحب أن أحتم على أفضل ما يحتم به الأعمال من النصيحة سلطاني، والسكاية في عدوي، فيشرّف بذلك عني، وأصيب سعادة وحطوة فيما أمانى.

فعل أحشوار به ذلك، وحمله فلقاه في الموضع الذي أشار إليه، فمر به فيروز في جنوده، فسأله عن حاله، فأخبره أن أحشوار فعل به ما يراه وأنه شديد الأسف، كيف لا يستطيع أن يكون أمام الجيش في غزو بلاده وتخريب مدينته، ولكنه سيدل الملك على طريق هو أقرب من هذا الطريق الذي يريدون سلوكه وأحق، فلا يشعر أحشوار حتى يهجم عليه فينتقم الله منه سكر، وليس في هذا الطريق من المكروه إلا تفور^(٣) يومين، ثم تقصون إلى كل ما تحبون.

(١) العيون: «أن تكفيني أهل وولدي». (٢) العيون: «أكرمك مؤثقتهم وأمرهم».

(٣) التفور: إبان المورد. وفي عيون الأخبار: «مور يومين»: أي السير في القارة.

فقبل فيروز قوله بعد أن أشار إليه ورداؤه بالانتهام له ، والخبر منه ، [وبغير ذلك]^(١) . فخالفهم وسلك تلك الطريق ، فأتوها بعد يومين إلى موضع من المفازة لأصدر لهم عنه ، ولا ماء معهم ، ولا بين أيديهم ، وتبين لهم أنهم قد جُدِعُوا ، فتفرقوا في تلك المفازة يمينا وشمالا يلتمسون الماء ، فقتل العطش أكثرهم ، ولم يَسَلْ مع فيروز إلا عدّة يسيرة ، فأنهى إليهم أحشوار بحيشه ، فواقعهم في تلك الحال التي هم فيها من القلة والموت والجهد ، فاستسكنوا منهم ، بعد أن أعظموا^(٢) النكابة فيهم .

وأسير فيروز ، فرغب أحشوار أن يَمُنَّ عليه وعلى من بقي من أصحابه على أن يحمل له عهد الله وميثاقه ؛ ألا ينزّوهم أبدا ما بقي ، وعلى أن يَحُدَّ فيما بينه وبين مملكتهم حدا لا يتجاوز جنوده . فرضى أحشوار بذلك ، ونحى سيده ، وحمل بين الملكتين حجرا^(٣) لا يتجاوز كل واحد منهما .

فكث فيروز برّعة من دهره ، ثم حنه الألف على أن يعود لنزو الهياطة ، ودعا أصحابه إلى ذلك ، فهو منه ، وقالوا : إياك قد عاهدته ، ونحن نتخوف عليك عاقبة النفي والعدر ، مع ما في ذلك من العار وسوء القالة^(٤) .

فقال لهم : إنما اشترطت له ألا أحوز الحجر الذي جعلناه بيننا ، وأنا أمر بالحجر فيحمل أماننا على عجل .

فقالوا : أيها الملك ، إن اليهود وللواثق التي يتعاطاها الناس بينهم لا تحمل على ما يسره المولى لها ، ولكن على ما يعلن به المولى إياها ، وإنما جعلت عهد الله وميثاقه على الأمر الذي عرفه ، لأعلى الأمر الذي لم يحظر له ببال . فأبى فيروز ومضى في غزوته حتى انتهى إلى الهياطة ، وتضاف الفريقان للقتال .

(١) من عيون الأخبار . (٢) عبون الأخبار : « وأعظموا النكابة » .

(٣) عبون الأخبار : « حدا لا يتجاوز » .

(٤) القول في الخبر ، والقالة في النسر ، وفي عيون الأخبار : « القالة » .

فأرسل أخشنوار إلى فيروز يسأله أن يبرز فيما بين صفيتهم ، نخرج إليه ، فقال له أخشنوار : إني قد ظننت أنه لم يدعك إلى مقاميك هذا إلا الأنف مما أصابك ، ولعمري إن كنا قد احتلنا لك بما رأيت لقد كنت التفتت منا أعظم منه ، وما ابتدأناك ببغى ولا ظلم ، وما أردنا إلا دفعك عن أنفسنا وحرماننا ، ولقد كنت جديرا أن تكون من سوء مكافأتنا بمنّا عليك وعلى من معك ، ومن نقص العهد والميثاق الذي أكدته على نفسك أعظم أنفاً ، وأشدّ امتعاضاً مما نالك منا ، فإذا أطلقناكم وأنتم أسارى ، ومنا عليكم وأنتم على الهلكة مشرفون ، وحققاً دماءكم ولنا على سفكها قنطرة . وإنا لم نجبرك على ما شرطت لنا ، بل كنت أنت الراغب إلينا فيه ، والمريد لنا عليه ، ففكر في ذلك ، وميز بين هذين الأمرين فاطر أيهما أشدّ عارا ، وأقبح سماعا ، إن طلب رجل أمرا فلم يقدر له ولم يصحح في حيلته وسلك سبيلا فلم يظفر فيه ببغيته ، واستمكن منه عدوه على حال جهذ وصيحة منه وممن هم معه .

فمن عليهم وأطلقهم على شرط ، شرطوه وأمر اصطلحوا عليه ، فاصطبر^(١) بكرهه القضاء ، واستحيا من العذر والنسك ، أن يقال : نقص العهد وأخفر^(٢) الميثاق ، مع أني قد ظننت أنه يزيدك الحاجة^(٣) ما تنق به من كثرة جنودك ، وما ترى من حسن عدتهم ، وما أجدي أشك أنهم أو أكثرهم كارهون لما كان من شخصيك بهم ، عارفون بأنك قد حملتهم على غير الحق ، ودموتهم إلى ما يسخط الله ، وأنهم في حربنا غير مستبصرين ، ونياتهم على مناصحتك مدخولة .

فانظر ما قدر غناء من يقاتل على هذه الحال ، وما عسى أن يبلغ مكابته في عدوه ، إذا كان عارفا بأنه إن ظفر فمع عار ، وإن قتل فإلى النار ! وأنا أذكرك الله الذي جعلته

(١) عيون الأخبار : « فاصطر » .

(٢) أخفر ميثاقه : نقص عهده ؛ وفي عيون الأخبار : « خفر الميثاق » .

(٣) عيون الأخبار : « نجاها » .

على نفسك كفيلا ، وأذكرك نعمتي عليك وعلى من معك ، بعد بأسكم من الحياة ، وإشفاقكم على الممات ، وأدعوك إلى ما فيه خطك ورشدك من الوفاء بالعهد ، والافتداء بآثائك وأسلافك الذين مصوا على ذلك في كل ما أحبوه وكرهوه ، فأحمدوا عواقبه وحسن عليهم أثره .

ومع ذلك فإنك لست على ثقة من الطعربا ، وبلوع شهمتك^(١) فينا ، وإما تلتص أسراً يلتص منك مثله ؛ وتنادى عدوا لعل يمح النصر عليك ، فاقبل هذه النصيحة فقد بالقت في الاحتجاج عليك ، وتقدمت بالإعداد إليك ، ونحن نستظهر بالله الذي اعتذرنا إليه ، ووثقا بما جعلت لنا من عهده ، إذا استظهرت بكثرة حمودك ، وازدهت عدة أصحابك ، فتوكل هذه النصيحة ، والله ما كان أحد من أصحابك يبالغ لك أكثر منها ، ولا يزيدك عليها ، ولا يحرملك منفعها يخرجها مني ، فإنه ليس يرى بالمنافع والمصالح عدد دوى الآراء صدورها عن الأعداء كما لا تحس المصار أن تكون على أيدي الأصدقاء .

واعلم أنه ليس يدعوني إلى ما تسمع من محاطبتي إيتاك ضعف من نفسي ، ولا من قلة جمودي ، ولكني أحببت أن أرداد بذلك حجة واستظهارا ، فأزداد به للنصر والمعونة من الله استيحاها ، ولا أوتر على العافية والسلامة شيئا ما وجدت إليهما سبيلا^(٢) .

فقال فيروز : لست ممن يردعه عن الأمر يهت به الوعيد ، ولا يصدقه التهديد والترهيب ، ولو كنت أرى ما أطلب عذرا مني ، إذا ما كان أحد أنظر ولا أشد إبقاء مني على نفسي ، وقد يعلم الله أني لم أجعل لك العهد والميثاق إلا بما أصحرت في نفسي ، فلا يمر بك الحال التي كنت صادقنا عليها من القلة والجهد والضعف .

(١) التهمة : الخلة والصهوة .

(٢) في عيون الأخيار بعدها : « فأبى فيروز إلا تسلط لحجه في الحبر الذي جله جدا بينه وبينه » .

فقال أحسنوار : لا يفرئك ما تمدح به نفسك من تخليك الحجر أمامك ، فإن الناس لو كانوا يطمنون اليهود على ما تصف من إصرار أمير وإعلان آخر ، إذا ما كان ينبغي لأحد أن يفتخر بأمان ، أو بثق تعهدها ، وإذا ما قبل الناس شيئاً مما كانوا يطمنون من ذلك ، ولكنه وضع على العلانية ، وعلى بية من تعهده اليهود والشروط . ثم انصرف . فقال فيروز لأصحابه : لقد كان أحسنوار حسن المحاورة ، وما رأيت للعرس الذي كان تحته نظيراً في الدواب ، فإنه لم يرل قوائمه ، ولم ير أع حوافره عن مواضعها ، ولا سهل ، ولا أحدث شيئاً يقطع به المحاورة في طول ما نواقصا .

وقال أحسنوار لأصحابه : لقد واقت فيروز كما رأيتم وعليه السلاح كله ، فلم يتحرك ، ولم ينزع رجله من ركابه ، ولا حتى ظهره ، ولا التفت يمينا ولا شمالا ، ولقد توركت أنا مرارا ، ونمطيت على فرسي ، والتفت إلى من تحتي ، ومددت بصري فيما أمامي ، وهو متصب ساكن على حاله ، ولولا محاورته إيتاني لقلنت به لا يصرفني . وإنما أراد بعوا صفامن ذلك أن يندشر هذان الحديثان في أهل عسكرهما فيستظوا بالإقامة فيهما ، عن النظر فيما تذاكرا . فلما كان في اليوم الثاني أخرج أحسنوار الصحيفة التي كتبها لم فيروز ، ونصبها على رُمح ليراها أهل عسكر فيروز فيعرفوا غدره وبغيه ، ويخرجوا من متابعته على هواه ، فما هو إلا أن رأوها ، حتى انتفض عسكرهم واحتلفوا ، وماتلبثوا إلا يسيراً حتى انهزموا ، وقتل منهم خلق كثير ، وهلك فيروز ، فقال أحسنوار : لقد صدق الذي قال : لا مرد لما قدر ولا شيء أشد إحالة لمنافع الرأي من الهوى واللجاج ، ولا أضيع من نصيحة يمتنعها من لا يوطن نفسه على قبولها ، والصبر على مكروهاها ، ولا أسرع عقوبة وأسوأ عاقبة من البغي والعذر ، ولا أحب لعظيم المدي والمضوح من الألف والإفراط المعجب (١) .

(١٥)

الأصل

وكان عليه السلام يقول إذا لقي العدو محارباً :

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ ، وَمُدَّتِ الْأَعْنَاقُ ، وَشَخَصَتِ الْأَنْصَارُ ، وَثِقَلَتِ
الْأَقْدَامُ ، وَأُصِيتِ الْأَبْدَانُ .

اللَّهُمَّ قَدْ صَرَخَ مَكُونُ الشَّانِ ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَانِ .
اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا ، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا ، وَتَشْتَتِ أَهْوَانَنَا .
رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ حَيُّ الْعَالَمِينَ .

• • •

الشرح :

أفضت القلوب : أى دنت وقرّبت ، ومنه أفصى الرجل إلى امرأته أى غشيها ،
ويجوز أن يكون « أفضت » أى بسرّها ، لحذف للفعول .

وأصيت الأبدان : هزلت ، ومنه النضو ، وهو الجبر للهرؤل .

وصرّح : انكشف . والشان : البغضة .

وجاشت : تحرّكت واضطربت .

وللمراجل : جمع مرّجل ، وهى القدر .

والأضغان : الأحقاد ، واحداً ضغن .

وأخذ سديف مولى للصور هذه الألفظة فكان يقول فى دعائه : اللهم إنا نشكو

إليك غيبة نبينا وتشتت أهوائنا، وما شملنا من زبغ الفتن، واستولى علينا من غشوة الخيرة
 حتى عاد فينا حولة بعد القسمة، وأمارتنا غلبة بعد للشورة؛ وعدنا ميراثا بعد الاختيار للأمة؛
 واشتريت الملامى والمعاريف بمال اليتيم والأرملة، ورعى في مال الله من لا يرعى له حرمة،
 وحكم في أبحاث المؤمنين أهل الذممة، وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محلة، فلا ذائد يذودهم
 عن هلكة، ولا رايح ينظر إليهم بعين رحمة، ولا ذر شفقة يشبع الكبد الحرى من
 مستغبة، فهم أولو ضرع وفاقة، وأسراء فقر ومسكنة، وحلفاء كآبة وذلة. اللهم وقد
 استحصد زرع الباطل وبلغ نهايته، واستحك عموده، واستجمع طريدته، وحذف
 وليده، وضرب بحرانه، فأصبح له من الحق يدا حاصدة، مجد سنانته، وتهشم سوقه،
 وتصرع قائمه، ليستحق الباطل بشح حليته، وبظهر الحق بحسن صورته.
 ووجدت هذه الألفاظ في دعاء منسوب إلى علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام،
 ولعله من كلامه، وقد كان سديف يدهره.

(١٦)

الأصل :

وكان يقول عليه السلام لأصحابه عند الحرب :

لَا تَشْتَدُّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرْةٌ ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا خَلَّةٌ ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا ، وَوَطَّنُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا ، وَادْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّاعِي ، وَالضَّرْبِ الطَّلْحِيِّ ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أُطْرِدَ لِلْعَمَلِ .
وَالَّذِي فَلَقَ آخِلَةَ ، وَتَرَأَى النِّسَةَ ، مَا أَسْمَعُوا وَلَكِنْ اسْتَنْفَعُوا ، وَأَسْرُوا الْكُفْرَ ،
فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوا .

الشرح :

قال : لا تستصعبوا فرّة تفرّثونها بعدها كربة ، تحبسون بها ما تكسر من حالكم ،
ولمّا الذي يبني لكم أن تستصعبوه فرّة لا كربة بعدها ؛ وهذا حضّر لهم على أن يكرّروا
ويعودوا إلى الحرب إن وقعت عليهم كسرة .

ومثله قوله : « وَلَا حَوْلَةٌ بَعْدَهَا خَلَّةٌ » ، والجولة : هزيمة قريبة ليست بالمعنة ^(١) .
وادْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ ، مِنْ ذَمَرِهِ عَلَى كَذَا أَى حَصَمَهُ عَلَيْهِ ، وَالطَّعْنِ الدَّاعِي : الذى
يُحْشَى بِهِ أَجْوَافُ الْأَعْدَاءِ ، وَأَصْلُ الدَّاعِي الْحَشْوُ ، دَعَيْتُ الْوَعَاءَ : حَشَوْتَهُ .
وَضَرْبِ طَلْحِي ، نَكْسَرُ الطَّاءَ وَفَتَحَ اللَّامَ ، أَى شَدِيدَ ، وَاللَّامُ زَائِدَةٌ .

(١) المعنة : من الإطعان ؛ وفى ب : « ممة » تحريف .

ثم أَمَرَهُمْ بِإِمَاتَةِ الأصوات ، لأنَّ شِدَّةَ الصَّوْءِ فِي الْحَرْبِ أَمَارَةٌ لِلْخَوْفِ وَالْوَجَلِ .
ثم أَقْسَمَ أَنَّ مَعَاوِيَةَ وَعَمْرَأَ وَمَنْ وَالَاهُمَا مِنْ قُرَيْشٍ مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنْ اسْتَسْلَمُوا خَوْفًا
مِنَ السَّيْفِ وَنَاقَضُوا ؛ فَلَمَّا قَدَّرُوا عَلَى إِظْهَارِ مَا لَى أَنْفُسُهُمْ أَظْهَرُوهُ ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ جَعَلَ مَخَارِطَهُمْ لَهُ كُفْرًا .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي شَرْحِ حَالِ مَعَاوِيَةَ وَمَا يَذْكُرُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِنَا مِنْ فُسَادِ عَقِيدَتِهِ
مَافِيهِ كِفَايَةٌ .

[بَدَ مِنْ الْأَقْوَالِ الْمُتَشَابِهَةِ فِي الْحَرْبِ]

وَأَوْصَى أَكْثَمُ بْنُ حَنْبَلٍ قَوْمًا سَهِرُوا إِلَى الْحَرْبِ فَقَالَ : ابْرِزُوا لِلْحَرْبِ ، وَادَّرِعُوا
الْقَبِيلَ ، فَإِنَّهُ أَحْيَى لِلْوَيْلِ ، وَلَا جَمَاعَةً تَمُنُّ بِإِخْتِلَافٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ كَثْرَةَ الصَّيَاحِ مِنَ الْعَشَلِ ،
وَالْمَرَّةِ يَمُحَرُّ لَا مَحَالَةَ .

وَسَمِعْتُ عَائِشَةَ يَوْمَ الْجَمَلِ أَصْحَابَهَا يُكْثِرُونَ ، فَقَالَتْ : لَا تَكْثُرُوا هَاهُنَا ، فَإِنَّ
كَثْرَةَ التَّكْبِيرِ عِنْدَ الْقِتَالِ مِنَ الْعَشَلِ .

وَقَالَ بَعْضُ السَّافِ : قَدْ جَمَعَ اللَّهُ أَدَبَ الْحَرْبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ... ﴾ ^(١) الْآيَتِينَ .

وَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَيْحَةَ لِقُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ : أَلَا تَرَوْنَهُمْ - يَعْنِي أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ - جُشِيًّا عَلَى الرُّكْبِ ، يَتَلَمَّطُونَ تَلَمَّطَ الْحَيَاتِ !

وَأَوْصَى عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ أَمِيرَ سَرِيَّةٍ نَحْبَهَا ، فَقَالَ : أَسْتَ تَاجِرُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ ، فَكُنْ
كَالضَّارِبِ الْكَاسِسِ الَّذِي إِنْ وَجَدَ رِيحًا نَجَرَ ، وَإِلَّا احْتَفَظَ بِرَأْسِ لَالٍ ؛ وَلَا تَطْلُبْ

الغنيمة حتى تموز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال
عدوك عليك .

وفي الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال لزيد بن حارثة : لا تُشقي حبشك ؛
فإن الله تعالى يبصر القوم بأضعفهم .

وقال ابن عباس - وذكر علياً عليه السلام : مارأيت رئيساً يؤرنه ، لقد رأيت يوم
صيفين وكان عينيهِ سراحاً سليطاً ^(١) وهو يحمّس أحماته إلى أن انتهى إلى وأبى كنف
فقال : يا معشر المسلمين ، انشعروا الخشية ، وتحلبوا الكينة ، وأكملوا الأمة... الفصل
للذكور فيما تقدم .

(١) السليط : زيت به يضاء .

(١٧)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتاب منه إليه :

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَى الشَّامِ ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَعْطِيكَ الْيَوْمَ مَا سَأَلْتُكَ أَمْسِي .
وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّا الْحَرْبُ قَدْ أَكَلَتْ الْعَرَبَ ، لَا حُشَاةَ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ ، إِلَّا وَمَنْ
أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ .
وَأَمَّا أَسْتَوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرُّحَالِ ، فَسَتَ بَأْمَصَى عَلَى الشُّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ ،
وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ .
وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّا نُوْءُ عِنْدَ مَنَافٍ لِسَفْكَدِهِمْ ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمِّيَّةٌ كَهَاشِمٍ ،
وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَلَا أَبُو سُمَيَّانَ كَأَبِي طَالِبٍ ، وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيْقِ ، وَلَا
الصَّرِيحُ كَالصَّيْقِ ، وَلَا الْحَقُّ كَالْمَنْطَلِ ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُذْعِلِّ . وَلَيْسَ الْخَلْفُ
حَلْفٌ يَنْتَبِعُ سَلَمًا هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

وَفِي أَيْدِينَا نَعْدُ فَضْلَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي أَدْلَمْنَا بِهَا الْعَرِيزَ ، وَنَعْتَنَّا بِهَا الدَّلِيلَ . وَلَمَّا
أَدْخَلَ اللَّهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجًا ، وَأَسْمَتَ لَهُ هَدْيَهُ الْأُمَّةُ طَوْعًا وَكَرْهًا ، كُنْتُمْ مِنْ
دَخَلَ فِي الدِّينِ ؛ إِمَّا رَعْبَةً وَإِمَّا رَهَةً ، عَلَى حِينِ فَرَ أَهْلُ السُّنَنِ يَسْتَفِيهِمْ ، وَذَهَبَ
الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ بِمَصْنَعِهِمْ ؛ فَلَا تَجْمَعَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيبًا ، وَلَا عَلَى
نَفْسِكَ سَبِيلًا . وَالسَّلَامُ .

البُخ :

يقال : طلستُ إلى فلان كذا ، والتقدير طلبتُ كذا راغباً إلى فلان ، كما قال تعالى : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ ^(١) أى مُرسلاً .

ويُروى « إِلَّا حُشَاةَ نَفْسٍ » ، بالإنفراد ، وهو بقية الروح في بدن المريض .
وروي : « أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فِي النَّارِ » ، وهذه الرواية أليق من الرواية للذكورة في أكثر الكتب ، لأن الحق يأكل أهل الباطل ، ومن روى تلك الرواية أضمر مضافاً تقديره « أعداء الحق » ، ومضافاً آخر تقديره « أعداء الباطل » . ويجوز أن يكون مَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فِي النَّارِ ، أى من أفضى به الحق ونصرته والقيامُ دونه إلى القتل ؛ فإن مصيره إلى الجنة ، فيسمى الحق لما كانت نصرته كالسبب إلى القتل أكلاً لذلك المقتول ، وكذلك القول في الجانب الآخر .

وكان الترتيب يقتضى أن يجعل هاشماً ياراء عبد شمس ، لأنه أخوه في قعد ^(٢) ، وكلاهما ولدُ عبدٍ مضاف لصلبه ، وإن يكون أمة ياراء عبد للطلب ، وأن يكون حرب ياراء أى طالب ، وأن يكون أبو سعيان ياراء أمير المؤمنين عليه السلام ، لأن كل واحد من هؤلاء في قعدٍ صاحبه ، إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام لما كان في حميم ياراء معاوية اضطُرَّ إلى أن جعل هاشماً ياراء أمة بن عبد شمس .

إن قلت : فهلاً قال : « وَلَا أَمْ كَأَنْتَ » ؟ قلت : قبيحٌ أن يقال ذلك ، كما لا يقال : السيفُ أمسى من العصا ، بل قبيحٌ به أن يقولها مع أحدٍ من المسلمين كافةً ، نعم قد يقولها لا تصرحاً ، بل تعريضاً ، لأنه يرمع منه على أن يقيسها بأحد .

وها هنا قد عرّض بذلك في قوله : « وَلَا لِلْهَاجِرِ كَالطَّلِيقِ » . فإن قلت : فهل معاوية

(١) سورة التل ١٢ .

(٢) قعد : أى قريب الآباء من الجد الأكبر .

من الطلقاء؟ قلت: نعم، كل من دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله مسكة عنوة بالسيف فلكه ثم من عايه عن إسلام أو غير إسلام فهو من الطلقاء ممن لم يسلم كصفوان ابن أمية، ومن أسلم معاوية بن أبي سفيان، وكذلك كل من أسرى في حرب رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم امتن عليه بفداء أو بغير فداء فهو طليق، فمن امتن عليه بفداء كسهيل بن عمرو، ومن امتن عليه بغير فداء أبو عزة الجعفي، ومن امتن عليه بمعاوضة أي أطلق لأنه يزاء أسير من المسلمين ثمرو بن أبي سفيان من حرب، كل هؤلاء مملودون من الطلقاء.

فإن قلت: فما معنى قوله: «ولا الصريح كالاصيق»، وهل كان في سب معاوية شبهة ليقول له هذا؟

قلت: كلاً إياه لم يقصد ذلك، وإنما أراد الصريح بالإسلام والاصيق في الإسلام، فالصريح فيه هو من أسلم اعتقاداً وإخلاصاً، والاصيق فيه من أسلم تحت السيف أو رغبة في الدنيا، وقد صرح بذلك فقال: «كنتم ممن دخل في هذا الدين إثمًا رغبة وإثمًا رهبة».

فإن قلت: فما معنى قوله: «ولئس الخف حنفاً يتبع سلفاً هو في نار جهنم»؟ وهل يُعاب المسلم بأن سلفه كانوا كفاراً؟

قلت: نعم، إذا تبع آثار سلفه واحتدى حنومهم، وأمير المؤمنين عليه السلام ما عاب معاوية بأن سلفه كفار فقط، بل بكونه متبع لهم.

قوله عليه السلام: «وفي أيدينا بعد فضل النبوة» أي إذا فرضنا تساوي الأقدام في مآثر أسلافكم كان في أيدينا بعد الفضل عليكم بالنبوة التي نعيش بها الخامل، وأختلنا بها النبيه.

قوله عليه السلام: «على حين فار أهل التنبق»، قال قوم من النحاة:

« حين » مبنى هاهنا على الفتح. وقال قوم : بل منصوب لإضافته إلى الفعل .

قوله عليه السلام : « فلا تخمّلنّ للشيطان فيك نصيبا » ، أى لا تستلزم من أفعالك ما يلزم به كون الشيطان ضارّا فيك بنصيب ، لأنه ما كتب إليه هذه الرسالة إلا بعد أن صار للشيطان فيه أوفر نصيب ، وإنما المراد نهيه عن دوام ذلك واستمراره .

• • •

[ذكر بعض ما كان بين عليّ ومعاوية يوم صفين]

وذّكر نصر بن مراحم بن نثار العقيليّ في كتاب " صفين " أن هذا الكتاب كتبه عليّ عليه السلام إلى معاوية قبل ليلة الحرير يومين أو ثلاثة . قال نصر : أظهر عليّ عليه السلام أنه مصّحّ معاوية ومناجز له ، وشاع ذلك من قوله . ففرع أهل الشام لذلك ، واسكروا لقوله لو كان معاوية بن الصّحاح بن سفيان صاحب راية بنو سليم مع معاوية مصصا لمعاوية وأهل الشام بوله خوفاً مع أهل العراق وعليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وكان يكتب بأخبار معاوية إلى عبد الله بن الطفيل العامريّ ، وهو مع أهل العراق ، فيخبر بها عليّاً عليه السلام ، فما شاعت كلمة عليّ عليه السلام وجعل لها أهل الشام ، ومن أن الصحاح إلى عبد الله بن الطفيل : إني قاتل شعراً أدعربه أهل الشام وأرغم به معاوية ، وكان معاوية لا يهتم ، وكان له فصل وتحدّة ولسان ، فقال ليلاً ليستمع أصحابه :

ألا ليت هذا الليل أطلق سرّمداً	عليها وأنا لا ترى بعده غمداً
وباليتّه إن جاءنا بصباحه	وحذّنا إلى محرى الكواكب مضجداً
حذار عليّ إله غير محنّ	مدى الدهر مالبّ الملبّون مؤعداً
وأما قرارى في البلاد فليس لي	مقام وإن جاوزت جابلق مضجداً

كأنى به في الناس كاشف رأسه على ظهر خوار الرحالة أحرّدا
 يخوض غمار الموت في مرجئة ينادون في نفع السجّاج محمد^(١)
 فوارس بدر والنّصير وخير وأحد يهزون الصفيح للهندا
 وروم حنين جالدوا عن نبيهم فريقاً من الأحزاب حتى تبدّدا^(٢)
 هنالك لا تلوي مجوزاً على أبنها وإن كثرت من قول: نفسي لك القدا
 قتل لابن حرب ما الذي أنت صانع أنذبت أم ندعوك في الحرب فعدّدا^(٣)
 فسلا رأى إلا تركنا الشام جرة وإن أبرق الفعجاج فيها وأرعدا^(٤)

فلما سمع أهل الشام شعره أتوا به معاوية ، فهم يقتله ، ثم راقب فيه قومه ، فطرده
 من الشام ، فبلغ بمصر وندم معاوية على تسميره إياه . وقال معاوية : لشعر السلي^(٥) أشدّ
 على أهل الشام من لقاء على . **الله قاتله الله** ، لو صار حلف جابلق مصدا
 لم يأمن عليا ! ألا تعلمون ما جابلق ؟ بقوله لأهل الشام : قالوا : لا ، قال : مدينة في أقصى
 للشرق ليس بعدها شيء .

• • •

قال نصر : وتناقل الناس كلمة على عليه السلام . ولأنا حزّتهم مصعاً^(٦) ، فقال الأشتر :
 قد دبا الفصل في الصّباح وليسّلم رجالاً وللعروب رجال

(١) المرجئة : الأمر العظيم .

(٢) جالدوا : دافعوا .

(٣) القصد : الجان القاعد عن الحرب ؛ وبمعنى في صبي :

وخطي بالآلا يصبر القوم موقفاً يقفه وإن لم يجر في الدهر للدي

(٤) الفعجاج : كثير الكلام للتشع بما ليس عنده .

(٥) سلي : لقول السلي .

(٦) صفيين : إلى مناجز القول إن أصبحت .

فرجال الحروب كلٌ خِدْبٍ مقمٍ لآهذه الأموال^(١)
 يضرب الفارس للذَّججِ بالسيِّفِ ف إذا قرَّ في الوغى الأكنالُ
 فإنَّ هنديَّ شدَّ الحيازيمَ للمو ت ولا تنهين بك الأمالُ
 إن في الصبح إن بقيت لأمرأى تنفادي من هوله الأنطالُ
 فيه عزَّ العراق أو طمر الشا م بأهسل العراق والزلالُ
 فاصبروا للطعان بالأسلِ السَّ ير وصرت تجرى به الأمثالُ^(٢)
 إن تكونوا قتلتم العرَّ اليه هن وغالت أولئك الآجالُ^(٣)
 فلنا مثاهم غداة التلاقى وقليل من مثاهم أبدالُ
 يخضون الوشيج طغنا إذا حرمت من اللوت بينهم أذبالُ^(٤)
 طلب القور في الحاد وفيه تُتهان النفوس والأموالُ

قال : وما انتهى إلى معاوية شعرُ الأشراف : شعرٌ مسكر ، من شاعرٍ منكر ،
 رأس أهل العراق وعظيمهم ، وميسر حُرَّ بهم ، وأول العتية وأحرُّها ، قد رأيت أن أعاد علياً
 وأسأله إقرارى على الشام ، فقد كنت كنت إليه ذلك فلم يحب إليه ، ولأكتبن
 ثابئة قاتلى ونفسه الشك والرقه . فقال له عمرو بن العاص وضحك : أين أنت يا معاوية
 من خدعة علي ؟ قال : ألسنا بنى عبد مناف ؟ قال : بلى ، ولكن لم النبوة دونك ،
 وإن شئت أن تكتب فاكُتب ؛ فكتب معاوية إلى علي عليه السلام مع رجل من
 السكاسك يقال له عبد الله بن عتبة ، وكان من نافذة أهل العراق :

أما بعد فإنك لو علمت أن الحرب تلغ ساوئك ما بلغت لم يحنها بعضنا على

(١) الخدب : الشديد الصلب ، والنعم ، من فحم و الأمر كنصر نعوما ؛ إذا رى نفسه فيه
 فجأة بلا روية .
 (٢) الأسل : الرماح . والنم : القوال .
 (٣) يقال : غاله غول ؛ إذا أهلكه .
 (٤) الوشيج : شجر الرماح .

بعض ، ولئن كنا قد غلبنا على عقولنا لقد بقي لنا منها ما نتدم به على ماضى ، ونصلح به ما بقى ، وقد كنت سألتك الشام على أن تزمى لك بيعة وطاعة ، فأيت ذلك على ، فأعطانى الله مامنت ، وأنا أدعوك اليوم إلى مادعوتك إليه أمس ، فإني لا أرجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف ، وقد والله فارت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنوعيد مناف ؛ ليس لبعضنا على بعض فصل إلا فصل لا يستدل به عزيز ، ولا يسترق به حر ، والسلام .

هذا انتهى كتاب معاوية إلى على عليه السلام قرأه ، ثم قال : العجب لمعاوية وكتابه !^(١) ودعا عبيد بن أبى رافع كاتبه ، فقال : اكتب جوابه .

أما بعد ، فقد جاءنى كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ ما وبك ما بلغت لم يحبسنا على بعض ، فإني لو قبلت في ذات الله ، وحيث ؛ ثم قُلت ثم حيث سبعين مرة لم أرحع عن الشدة في ذات الله والجهاد لأعداء الله ، وأما قولك : إنه قد بقي من عقولنا ما سدم به على ماضى ، فإني ما عصيت عقلى ، ولا ندمت على فعلى . وأما طلبك الشام فإني لم أكن أعطيك اليوم مامنتك أمس ، وأما استوائنا في الخوف والرجاء فلست أمدى على الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة . وأما قولك : إنا سو عبيد مناف ليس لبعضنا فصل على بعض فلمصرى إنا سو أب واحد ، ولكن ليس أمية كهاتم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا الحق كالباطل ، وفي أدينا بعد فصل النبوة التى أدخلنا بها العزيز وأعزنا بها الدليل . والسلام .

فلما أتى معاوية كتاب على عليه السلام كتمه عن عمرو بن العاص أياما ، ثم دعاه

(١-١) صعب : « ثم دعا عبيد الله بن أبى رافع كاتبه ، فقال : اكتب لى معاوية » .

فأقرأه إياه ، فشمت به عمرو - ولم يكن أحد من قريش أشد إعظاماً لعلّ من عمرو بن العاص منذ يوم لقيه وصفح عنه - فقال عمرو فيما كان أشار به على معاوية :

ألا لله درك ابن هندٍ وترد الأمرين لك الشهود !
 أنطمع لا أبا لك في عليٍّ وقد قرع الحديد على الحديد !
 وترجو أن تحبّه بشكٍّ وتأمل أن يهابك بالوعيد^(١)
 وقد كشف القناع وحسّ حرّها يشبّ لها رأس الوليد
 له جأواه مظلمة طحونٌ فوارسها تلهب كالأسود^(٢)
 يقول لها إذا رجعت إليه^(٣) وقد مت طمان القوم : عودي
 فإني وردت فأولها وردوا وإن صدت فليس بذي صدود
 وماهي من أبي حسن بنك^(٤) ولا هو من مائك بالعيد
 وقلت له مقالة مستحسنة حبيب الزكن مقطوع الزيد
 دعن لي الشام حسبك ابن هندٍ من الفسوات والرأي الزهيد
 ولو أعطاكها ما زددت عزّاً ولا لك لو أجابك من مزيد
 فلم تكسر بذلك الرأي عوداً لركته ولا ما دون عود^(٥)

فلما بلغ معاوية شعر عمرو دعاه فقال له : العجب لك ! تفيل رأيي ، وتعظم عليّ وقد مضحك ! فقال : أما تفيل رأيك فقد كان ، وأما إعظامي عليّ فإنك يعظامه أشدّ معرفة مني ، ولكنك تطوبه وأه أشره . وأما فضيحتي فلم يفتصح أمرواً لعلّ أبا حسن^(٥) .

(١) صعب : « وترجو أن يهابك بالوعيد »

(٢) الجأواه : الكتيبة يتوھا السواد لكثرة الدروع .

(٣) صعب : إذا دلفت إليه .

(٤) الركة : الضرب . (٥) صعب ٥٣٥ - ٥٤٠

(١٨)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس وهو عامله على البصرة :
 وَأَعْلَمَ أَنَّ التَّصَرُّفَ مَهْطٌ إِبْلِيسَ ، وَمَغْرَسُ الْفِتَنِ ، فَحَادِثُ أَهْلِهَا بِالْإِحْسَانِ
 إِلَيْهِمْ ، وَأَحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ .
 وَقَدْ بَلَّغْنِي تَسْرُكَ لَيْسَى تَمِيمٍ ، وَغِطَّتْكَ عَيْنِيهِمْ ؛ وَإِنْ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِيبْ
 لَهُمْ نَحْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ ، وَإِذَا لَمْ يَسْتَقُوا يَوْمًا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ،
 وَإِنْ لَهُمْ بِنَا رَحِمًا مِائَةٌ ، وَقِرَاءَةٌ حَاصَّةٌ ، نَحْنُ مَا جُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا ، وَمَا زُورُونَ
 عَلَى قَطِيعَتِهَا .
 فَأَرْبَعٌ أَمَّا الْعَاسِ رَحِمَكَ اللَّهُ فِيمَا جَرَى عَلَى يَدِكَ وَلِسَانِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ !
 فَإِنَّا شَرِيكَاكَ فِي ذَلِكَ ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ خَلْقِكَ ، وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيُ
 فِيكَ ، وَالسَّلَامُ .

الشرح :

قوله عليه السلام : مَهْطٌ إِبْلِيسَ : موضع هبوطه .
 وَمَغْرَسُ الْفِتَنِ : موضع غرسها ، ويرى « وَمَغْرَسُ الْفِتَنِ » ، وهو للوضع الذي
 ينزل فيه القوم آخر الليل للاستراحة ، يقال غَرَسُوا وَأَغْرَسُوا .
 وقوله عليه السلام : « فَحَادِثُ أَهْلِهَا » ، أى تهذم بالإحسان ، من قولك :
 حادثت السيفَ بالصَّعَالِ .

والتنمر للقوم : العُلطة عليهم ، والمصنة لهم بأحلاق النمر ، من الجرأة والوثوب ،
وسند كرتصديق قوله عليه السلام : « لم يعب لم نحم إلا طلع لم آخر » .
والوغم : الثرة ، والأوعام : الثرات ، أى لم يهدر لهم دم فى جاهلية ولا إسلام ،
يصفهم بالشجاعة والحمية .

ومأزورون ، كان أصله « مؤزورون » ، ولكنه جاء بالالف ليحاذى به ألف
« مأجورون » وقد قال النبي صلى الله عليه وآله مثل ذلك .

قوله عليه السلام : « فارتع أبا العباس » ، أى قف وتثبت فى جميع ما تعتمد فملا
وقولا من خير وشر ، ولا تعمل به فى شريكك فيه إذا أت عامل والنائب عني .
وعنى بالشر ما هنا الصرر فقط ، لا العلم والعمل الصريح .

قوله عليه السلام : « وكن عند صلب من فيك » ، أى كن واقفا عنده كأنك
تشاهده وتمسك مشاهدته عن فعل مالا يجوز
قال الراى بغير ، أى صنف وأخطأ .

• • •

[فصل فى بنى تميم وذكر بعض فضائلهم]

وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن لثلى فى كتاب " التاج " أن لبنى تميم مآثر لم
يشركهم فيها غيرهم . أما بنو سعد بن زيد مناة فلها ثلاث خصال يعرفها العرب :
إحداها : كثرة العدد فإنه أصعب عندها على بنى تميم حتى ملأت السهل والجبل
عدلت مضر كثرة ، وعامة العدد منها فى كعب بن سعد بن زيد مناة ، ولذلك قال أوس
ابن مخرم :
ابن مخرم :

كُنِيَ مِنْ خَيْرِ الْكُفَّارِ كُنَّا مِنْ خَيْرِهَا فَوَارِسًا وَعَقْبًا
• تَعْدِلُ جَنَابًا وَنَعِيمَ جَنَابًا •

وقال الفرزدق أيضا فيهم هذه الأبيات :

لو كنت تعلم ما يرمل موبيل فقرى عمان إلى ذوات حُجُورٍ
لعلت أن قبائلا وقبائلا من آلِ سعدٍ لم تدن لأبيير
وقال أيضا :

تبكى على سعدٍ وسعدٍ مقبلةً بيثرين قد كاذت على الناس تصف (١)
ولذلك كانت تسمى سعد الأكرين . وفي المثل : « في كل وادئ سعد » (٢) .
والثانية : الإفاضة في الجاهلية ، كان ذلك في بني عطارٍ ، وهم يتوارثون ذلك كاراً
عن كابر ، حتى قام الإسلام ، وكانوا إذا اجتمع الناس أيام الحج بمنى لم يبرح أحدٌ
من الناس ديناً وسنة حتى يحوز القائم بذلك من آلِ كُرب بن صفوان ، وقال أوس
ابن مخرم :
ولا يريمون في التمرير موقعهم حتى يقال : أجزوا آلَ صعواء

وقال الفرزدق :

إذا ما التقيت بالحصب من منى صبيحة يوم النحر من حيث عرفوا (٣)
ترى الناس ما يبرحنا يبرون حولنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
والثالثة : أن منهم أشرف بيت في العرب الذي شرفته ملوك ظلم . قال المنذر بن
الدير بن ماء السماء ذات يوم وعنده وفود العرب ودعا بُردى أبيه محرق بن المنذر
فقال : ليلبس هذين أعز العرب وأكرمهم حساً . فأحسم الناس ، فقال أخيمر بن

(١) ديوانه ٦٩ هـ .

(٢) مجمع الأمثال ٢ : ٨٣ ؛ ولفظه فيه . « في كل أرض سعد بزريد » ؛ قاله الأصبط بن قريش .

(٣) مرقوا ؛ أي وقفوا برفات .

خلف بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم : أنا لهما ، قال الملك :
بماذا ؟ قال : بأن مَصْرًا كَرَّمُ العرب وأعرُّها وأكثرها عديدا ، وأن تَمِيمًا كاهِلِيًّا^(١)
وأكثرها ، وأن بَيْتَهَا وعددها في بني بهدلة بن عوف ، وهو حَدَي . فقال : هذا
أنت في أَصْلِكَ وعشيرتك ، فكيف أنت في عِزَّتِكَ وأدائك !

قال : أنا أبو عَشْرَةٍ ، وأخو عَشْرَةٍ ، وعمّ عَشْرَةٍ . فدفعها إليه ، وإلى هذا أشار
الزُّبَيْرِيُّ قُلَانُ بْنُ مَدْرٍ في قوله :

وَبُرْدَا بْنُ مَاءِ الْمَزْنِ عَمِّي أَكْتَسَاهَا مِمَّنْ مَعَدِّي حَيْثُ عُدَّتْ نَحَاصِلُهُ

قال أبو عُبَيْدَةَ : ولم في الإسلام خَصْلَةٌ ، قديم قيس بن عاصم المُنَقَرِيّ على رسول الله
صلى الله عليه وآله في نَفَرٍ من بني سعد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : هذا
سَيِّدُ أَهْلِ الْوَرِّ ، فجعله سَيِّدَ حَنْدِفٍ وقَيْسٍ مِمَّنْ يَسْكُنُ الْوَرَّ .

قال : وأما أبو حَنْظَلَةَ بْنُ مَالِكٍ بْنُ زَيْدٍ مِنْ مَنَاءَ بْنِ تَمِيمٍ فلهِم حِصَالٌ كَثِيرَةٌ . قال : في
بني دارم بن مالك بن حَمْطَلَةَ ، وَهُوَ بَيْتُ مُصَرٍّ ، فمن ذلك زُرَّارَةُ بْنُ عُدَّاسِ بْنِ رَيْدِ بْنِ
دارم يقال : إنه أشرف البيوت في بني تميم ، ومن ذلك قَوْسُ حَاجِبِ بْنِ زُرَّارَةَ الْمُرْهُونَةُ
عند كِسْرَى عن مُصَرِّ كُلِّهَا ، وفي ذلك قيل :

وَأَقْسَمُ كِسْرَى لَا يَصَالِحُ وَاحِدًا مِنْ النَّاسِ حَتَّى يَرَهُنَ الْقَوْسَ حَاجِبُ

ومن ذلك في بني مُجَاشِعِ بْنِ دَارِمٍ مَعْصَمَةُ بْنُ نَاجِيَةَ بْنِ عَقَالِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُفْيَانَ
ابن مجاشع ، وهو أوَّلُ مَنْ أَحْبَبَ الْوَلِيدَ ، قام الإسلامُ وقد اشترى ثلاثمائة مؤمنة فاعتقهن
ورباهن ، وكانت العرب تنبئ البنات خوف الإملاق .

ومن ذلك غَالِبُ بْنُ مَعْصَمَةَ ، وهو أبو التَّرْزُدِيِّ ، وغَالِبٌ هُوَ الَّذِي قَرَى مِائَةَ
صَيْفٍ ، واحْتَمَلَ عَشْرَ دِيَّاتٍ لِقَوْمٍ لَا يَعْرِفُهُمْ ، وكان من حديث ذلك أَنَّ بَنِي كَلْبٍ

(١) كاهلها ، أي أملاها .

ابن وبرة افتخرت يسها في أنديتها ، فقالت : نحن لبسب العرب وقلبها ، ونحن الذين
لا تنازع حسبا وكرما . فقال شيخ منهم : إن العرب غير مقررة لكم بذلك ، إن لها
أحسابا ، وإن منها ألبابا ، وإن لها فعلا ، ولكن ابعثوا مائة منكم في أحسن هيئة وبرة
ينمرون من سرثوابه في العرب ويسألوه عشر ديات ، ولا ينسبون له ، فمن قراهم وبذل
لم الديات فهو الكريم الذي لا يسارع فصلا ؛ فخرجوا حتى قدموا على أرض بني نعيم
وأسد ، فتمعروا الأحياء حيا غنيا ، وماء فناء ، لا يحدون أحدا على ما يريدون ؛ حتى مروا على
أكرم بن صيفي ، فسألوه ذلك ، فقال : من هؤلاء القتل ؟ ومن أتم ؟ وما قصتكم ؟ فإن
لكم لثانا باختلافكم في كلامكم ! فعدلوا عنه ، ثم مروا بقتيبة بن الحارث بن شهاب
اليربوعي فسألوه عن ذلك ، فقال : من أتم ؟ قالوا : من كلب بن وبرة . فقال : إني لأرى
كلنا بدم ، فإن أسلخ الأشهر الحرم وأنتم بهذه الأرض وأندكم الحيل نكثت بكم
وأثكلتكم أمهاتكم . فخرجوا من عديرة مرعويين ، فمروا بطاريد بن حاجب بن درارة ،
فسألوه ذلك ، فقال : قولوا بيانا وحذوها ، فقالوا : أما هذا فقد سألكم قبل أن يعطىكم
فتركوه ، ومروا ببني محاشع بن دارم فاتوا على واد قدامتلا إلا فيها غالب بن صمصمة يهنا^(١)
منها إبلا ، فسألوه القرى والديات ، فقال : هاكم البرل قبل النزول فابتزوها من البرك وحوزوا
ديانتكم ، ثم انزلوا ، فتنزلوا وأخبروه بالخال ، فقالوا : أرشدك الله من سيد قوم ! لقد أرحمتنا
من طول النصب ، ولو علمنا لقصدنا إليك ، فذلك قول القرزدي :

فَلله عَيْنًا مَنْ رَأَى مِثْلَ غَالِبٍ قَرَى مائة ضيفا ولم يكلم^(٢)
وَإِذْ بَعَثَ كَلْبٌ عَلَى النَّاسِ مِنْهُمْ أَحَقُّ بِتَاجِ الْمَاجِدِ الْمُكْرَمِ

(١) هنا الإبل يهوها : ملاعها بطناء ، وهو الطران .

(٢) ديوانه ٧٥٩ ، وروايته : « ألا هل علمت منا قبل غلب » .

فلم يَجْلُ عن أصحابها غسبر غالب جركى يبنائى كلّ أبلج خضرم^(١)
قال : فأما بنو يربوع بن حنظلة ، فهم . ثم من بني رباح بن يربوع عتاب بن هرمي
ابن رباح ، كانت له رداة للوك ، موك آي المدير ، وريادة الملك أن يُنقى به في الشرب ،
وإذا غاب الملك حلقه في محبسه ، وورث ذلك سوء كبراً عن كابر ، حتى قام الإسلام ،
قال لبيد بن ربيعة :

وشهدت أنجبة الأكارم علماً كغنى وأرداف الملوك شهود^(٢)
ويربوع أول من قتل قتيلاً من المشركين ، وهو واقد بن عبد الله بن ثعلبة بن
يربوع ، حليف عمر بن الخطاب ، قتل عمرو بن الحصري في سرية حلة ، فقال عمر
ابن الخطاب يفتخر بذلك :

سَقَمًا من ابن الحصري رماحنا سحلة لما أوقد الحرب واقد
وظل ابن عبد الله عمان يفت يمارعه عل من القد عاند^(٣)
ولها جواد العرب كلها في الإسلام ؛ بدأ العرب كلها جوداً ، خالد بن عتاب من ورقاء
الرماسي . دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك ، وكان يشنؤه لكثرة باؤه^(٤) وغره ،
فصحه وتكرهه ، وأعطاه في خطبه حتى قال : من أت لأم لك ! قال : أو ما تعرفني
يا أمير المؤمنين ؟ أنا من حمى من أدنى العرب ، وأحلم العرب ، وأسود العرب ، وأجود العرب
وأشجع العرب ، وأشعر العرب . فقال سليمان : والله لتحتجن لما ذكرت أو لأوحمن ظهرك ،
ولأبعدن دارك . قال : أما أدنى العرب فخاحب بن ررارة ؛ رهن قوسه عن العرب
كلها وأدنى . وأما أحلم العرب فالأحيف بن قيس يُصرَب به المثل حليماً ، وأما أسود
العرب فقيس بن عاصم ، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « هذا سيد أهل الوبرة » ؛

(١) الأبلج : الواسع والمخرم : الجواد للمضاء . (٢) لم أحده في ديوانه .

(٣) الفل بالضم : ملوك من حديد يجل في المنق ، والجمع أعلال . (٤) الأور : الغر .

وأما أشجعُ العرب فالحريش بنُ هلال السحدي ؛ وأما أجودُ العرب فغالد بن عتاب
ابن ورفاء الرياحي ، وأما أشعرُ العرب فهانذا عندك ! قال سليمان : فما جاء بك ؟ لا شيء
لك عندنا ، فارْجِعْ على عَقِبِكَ ؛ وغنم ما تَمِيعُ مِنْ عِزَّةٍ ، ولم يَسْتَطِعْ لَهُ رَدًّا ، فقال
الفرزدق في أبيات :

أَتَبْنَاكَ لَا مِنْ حَاجَةٍ عَرَّضْتُ لَكَ إِلَيْكَ وَلَا مِنْ قَلَّةٍ فِي مَجَاشِعِ^(١)

قلتُ : ولو ذكر عُتَيْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ شِهَابِ الْبَرْبُوعِيِّ وقال : إنه أشجعُ العرب
لَكَانَ غَيْرَ مُدَافِعٍ . قالوا : كانت العرب تقول : لو وَقَعَ الْقَصْرُ إِلَى الْأَرْضِ لَمَا التَّقَّهَ إِلَّا
عُتَيْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ لثَقافته بِالرُّمُحِ . وكان يقال له : صَيَادُ الْفَوَارِسِ وَسَمُ الْفَوَارِسِ ، وهو
الذي أَسْرَعَ بِسَطَامَ بْنِ قَيْسٍ ، وهو فارسٌ رِيحَةٌ وَشُعَاهُهَا ، ومَكَثَ عِنْدَهُ فِي الْقَيْدِ مُدَّةً
حَتَّى اسْتَوْفَى فِدَاءَهُ وَجَرَ مَاصِيَتَهُ ؛ وَحَلَّى لَصِيْلَهُ عَلَى الْأَبْرُوِّ بْنِ يَرْبُوعٍ . وعُتَيْبَةُ هَذَا
هُوَ اللَّقْدَمُ عَلَى فُرْسَانَ الْعَرَبِ كُلِّهَا فِي كِتَابِ طَبَقَاتِ الشُّجْعَانِ وَمَقَاتِلِ الْفُرْسَانِ ،
وَلَكِنْ الْفَرَزْدَقُ لَمْ يَذْكُرْهُ وَإِنْ كَانَ تَمِيمِيًّا ، لِأَنَّهُ حَرَّرَا يَفْتَخِرُ بِهِ ، لِأَنَّهُ مِنْ بَنِي
يَرْبُوعٍ ، لِحِمْلَتِهِ عِدَاوَةً جَرِيرَ عَلَى أَنْ عُدِلَ عَنْ ذِكْرِهِ .

•••

قال أبو عبيدة : ولبنى عمرو بن تميم حصان تعرفها لهم العرب ولا ينازعهم فيها^(٢)
أحد ؛ فمنها أكرمُ الناسِ حمًا وعمَّةٌ ، وجدًا وجدَّةٌ ، وهو هند بن أبي هالة ، واسم
أبي هالة نَبَاشُ بْنُ ذُرَّارَةَ أَحَدُ بَنِي عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ ، كانت خديجةُ بنتُ حويلٍ قبلَ

(١) ديوانه ٤٩١ .

(٢) ١ : « عليها » .

النبي صلى الله عليه وآله تحت أبي هالة ، فولدت له هنداً ، ثم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وهندُ بنُ أبي هالة غلامٌ صغير ، ففتناه النبي صلى الله عليه وآله ، ثم ولدتُ خديجةً من رسول الله صلى الله عليه وآله القاسمَ والطاهرَ وزينبَ ورقيةَ وأمَّ كلثومَ وفاطمةَ ، فكان هذُ بنُ أبي هالة أحسنَ لأئمتهم ، ثم أولدَ هندُ بنُ أبي هالة هندَ بنَ هندَ ، فهندُ الثاني أكرمُ الناسِ جدّاً وَحْدَهُ ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجةُ ، وأكرمُ الناسِ عمّاً وَحْدَهُ - يعنى بنى النبي صلى الله عليه وآله وبناته .

ومنها أن لهم أحكمَ العربِ في زمانه أكرمُ بنَ صَيْفٍ ؛ أحدُ بنى أسدِ بنِ عمرو بنِ تميم ، كان أكثرَ أهلِ الحاهلية حِكمًا ومثلاً وموعظةً سائرة .

ومنها ذو الأعواز ، كان له خراجٌ على سمرِ كافةٍ تؤدّيه إليه ، فشاعَ حتى كان يُحمَلُ على سريرٍ يُطافُ به على مياهِ العرسِ ، فيؤدّى إليه الخراجُ ، وقال الأسودُ بنُ يعفرَ النَّهْشَلِيُّ وكان ضريباً :

ولقد علمتُ خلافَ ما تُشائى أن السبيلَ سبيلُ دى الأعوارِ

ومنها هلالُ بنُ أحوَرَ المازنى الذى سادَ تيمياً كلَّها فى الإسلام ، ولم يسُدّها غيره .

قال : ودخلَ خالدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ الوليدِ بنِ المعيرةِ الحِمْيَرِيّ مسجدَ الكوفةِ ، فأتتهى إلى حلقَةٍ فيها أبو الصَّقْعَبِ التيميّ ، من تيمِ الرُّبابِ ، والحِمْيَرِيّ لا يعرفه ، وكان أبو الصَّقْعَبِ من أعلمِ الناسِ ، فلما سمعَ عنه وحديثه حسده ، فقال له : بمنَ الرجلُ ؟ قال : من تيمِ الرُّبابِ ؛ فطَنَّ الحِمْيَرِيّ أنه وَحْدَ فرصةٍ ، فقال : واللهِ ما أنت من سعدِ الأكثرين ولا من حنظلةِ الأكرمين ، ولا من عمروِ الأشدّين ! فقال أبو الصَّقْعَبِ : فمنَ أنت ؟ قال من بنى تحزوم . قال : واللهِ ما أنت من هاشمِ المتخبين ، ولا من أميةِ المستخلفين ،

ولا من عبد الدار المستعجبين ، فبمَ تضرع ؟ قال : نحن ربحانة قريش ، قال أبو الصقب :
كُتِبَ لِمَا حُتَّ بِهِ ! وهل تدري لم سُميتَ مخزوم وريحانة قريش ؟ سُميتَ لخطوة نساها
عند الرجال ، فأفحمه .

روى أبو العباس المبرّد في كتاب " الكامل " أن معاوية قال للأحنف بن قيس
وجارية ^(١) بن قدامة ورجال من بني سعد معها كلاما أحفظهم ، فردّوا عليه جواباً مقدّراً ،
واسمراؤه فاختة بنت قرظلة في بيت يقرّب منهم ، وهي أمّ عبد الله بن معاوية ، فسمعت
ذلك ، فلما خرجوا قالت : يا أمير المؤمنين ، لقد سمعت من هؤلاء الأجلاف كلاماً تلقوا
به فلم تُشكّر ، فكذبت أن أخرج إليهم فأسطو بهم ! فقال معاوية : إن مضرَ كاهلُ
العرب ، ونيما كاهلُ مضر ، وسعدا كاهلُ نيم ، وهؤلاء كاهلُ سعد ^(٢) .

وروى أبو العباس أيضاً أن عبد الملك ذكر يوماً بني دارم فقال أحد جلسائه :
يا أمير المؤمنين ، هؤلاء قوم مخفوظون - يعني في كثرة النسل وكماء الذرية - فلذلك انتشر
صيتهم . فقال هبّ لللك : ما تقول ! هذا وقد مضى منهم لقيط بن زُرارة ولم يخلف عتبا ،
ومضى قعقاع بن مَعْبَد بن زُرارة ولم يخلف عتبا ، ومضى محمد بن عُمير بن عطارد بن
حاجب بن زُرارة ولم يخلف عتبا ! والله لا تنسى العرب هذه الثلاثة أبداً ^(٣) .

قال أبو العباس : إن الأصمعي قال : إن حرباً كانت بالبادية ثم اتصلت بالبصرة ،
فتفأتم الأمر فيها ، ثم مشى بين الناس بالصلح ، فأجتمعوا في المسجد الجامع . قال : فُعِشتُ
وأنا غلام إلى ضرار بن القعقاع من بني دارم ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فدخلتُ ،
فإذا به في ثَمَلَةٍ يَحْلَطُ بَرّاً لَمَنْزِلِهِ حُلُوبٌ ، فغيرته بجميع القوم ، فأسهل حتى أكلتِ
العز ، ثم غَسَلَ الصَّحْفَةَ وصاح : يا جارية ، غَدِينَا ، فأنته بزيت وتمر ، فدعاني ، فقَدَرْتَهُ

(١) ب : « حارة » ، والصواب ما في ١ والكامل .

(٢) الكامل ١ : ٣٠٨ .

(٣) الكامل ١ : ٦٥ .

أن آكل معه حتى إذا قَعَى من أكله وحاحته وطَرا وَتَبَّ إلى طِينٍ مُلْتَقَى في الدار، ففسل به يده، ثم صاح : يا حارية ، اسقيني ماء ؛ فأتته بماء، فشربه ومسح ففصله على وجهه، ثم قال : الحمد لله ، ماء القُرَات بِشَمَرِ البَصرة بِزَيْتِ الشَّام ، متى نُوذِي شَكَرَ هذه النِّعم اثم قال : على بردائي ، فأتته بِرِداءِ عَدَنِي^(١) فارتدَّى به على تلك الثَّملة . قال الأصمعي : فتجاوَيْتُ عنه استقباحاً لزيَّته ، فلما دخل المسجدَ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، ثم مشى إلى القوم ، فلم تَقَ حُدُوءُهُ إِلَّا حُلَّتْ إِعْظَامُ لَهُ ، ثم جلس فتحمل جميع ما كان بين الأحياء في ماله ثم انصرف^(٢) . قال أبو العباس : وحدثني أبو عَمْرٍو المَدَنِي ، عن أبي عُبَيْدة ، قال : لما أَتَى زِيَادُ ابْنُ عَمْرٍو المَدَنِيَّ في عَقِبِ قَتْلِ مَعُودِ بْنِ عَمْرٍو المَدَنِيَّ ، وجاء رِيَادُ بْنُ عَمْرٍو بن الأشرف العتكي لِيُنْزِلَ بِهِ مِنْ بَيْتِ تَيْمِ صَفِّ أَصْحَابِهِ ، فحَمَلَهُ في الليمنة بكرَّسٍ واثِلٍ ، وفي اللَّيْسة عبد القيس ، ومم لُكَيْزُ بْنُ أَفْصَى بْنِ دُعْمَى بْنِ حَذَلَةَ بْنِ أُسْدٍ بْنِ رَبِيعَةَ ، وكان زِيَادُ بْنُ عَمْرٍو العتكي في القُلبِ ، فَمَلَحَ ذَلِكَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ، فقال : هذا غلامٌ حَدَّثَ ، شَأْنُهُ الشُّهْرَةُ ، وليس يَبَالِي أَيْنَ قَدَفَ نَفْسَهُ أَهْدَبَ أَصْحَابِهِ ، فجاءه حارثة بن بَدْرِ المَدَنِيَّ ، وقد اجتمعتْ مَوْتِمِمْ ، فلما أَتَى^(٣) قال : قوموا إلى سَيْدِكُمْ ، ثم أَجْلَسَهُ فَنَافَلَهُ ، فمَلَعُوا سَعْدًا وَالرَّيَّابَ في القُلبِ ورئيسهم عَبْسُ بْنُ طَلْحٍ الطَّعْمَانُ المَعْرُوفُ بِأَخِي كَنْهَمَسٍ ، وهو أَحَدُ بَنِي صُرَيْمٍ بْنِ يَرْبُوعٍ ، فَكَانُوا بِحِذَاءِ رِيَادِ بْنِ عَمْرٍو ومن معه من الْأُرْدِ ، وجعل حارثة بن بدر المَدَنِيَّ في بَيْتِ حَمْظَلَةَ بِحِذَاءِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، وجعل عمرو بن تَيْمِمْ بِحِذَاءِ عَبْدِ الْقَيْسِ ، فَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ حارثة بن بدر للأخنف :

سَيَكْفِيكَ عَسٌّ أَحُو كَنْهَمَسٍ مُقَارَعَةُ الْأُرْدِ فِي الْمَزِيدِ^(٤)
وَيَكْفِيكَ عَمْرٍو عَلَى رِشْبٍ لُكَيْزُ بْنُ أَفْصَى وَمَا عَدُّوا

(١) عَدَنِي : منسوب إلى عَدَنَ أَيْمَنَ ، وهي حريرة باليمن ، تنسب إليها الثياب المدفنة .

(٢) الكامل ١ : ١٣٩ . (٣) الكامل : « طلع » .

(٤) في هذا البيت إلواء .

وَنَكْفِيكَ بَكَرًا إِذَا أَقْبَلْتَ بِضَرْبِ يَشِيبُ لَهُ الْأَمْرُ ذُ

وَلَكَيْزُ بْنُ أَفْصَى نَعِمَ عَبْدَ الْقَيْسِ . قَالَ : فَلَمَّا تَوَاقَعُوا مَثَّ إِلَيْهِمُ الْأَحْنَفُ : بِمَعْشَرِ الْأُرْدُ مِنْ الْيَمَنِ وَرَبِيعَةَ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَةِ ، أَنْتُمْ وَاللَّهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَمِيمِ الْكُوفَةِ ، وَأَنْتُمْ جِيرَانُنَا فِي الدَّارِ ، وَبِذُنَا عَلَى الْعَدُوِّ ، وَأَنْتُمْ بِنَاغَمُونَا بِالْأَمْسِ ، وَوَطَنُكُمْ حَرِيمُنَا ، وَحَرَّتُكُمْ عَلَيْنَا ، فَذَمَّصْنَا عَنْ أَمِينِنَا ، وَلَا حَاجَةَ لَنَا فِي الشَّرِّ مَا ظَلَمْنَا فِي الْخَيْرِ مَسْلَكًا ، فَتَيَمَّمُوا سَبِيلَ طَرِيقَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ^(١) . فَوَجَّهَ إِلَيْهِ زِيَادُ بْنُ عَمْرٍو ، تَحْمِيضُ خَلَّةٍ مِنْ ثَلَاثٍ : إِنْ شِئْتَ فَانْزِلْ أَسْتَ وَقَوْمُكَ عَلَى حَكْمِنَا ، وَإِنْ شِئْتَ فَخَلِّ لَنَا عَنِ النَّصْرَةِ ، وَارْحَلْ أَسْتَ وَقَوْمُكَ إِلَى حَيْثُ شِئْتُمْ ، وَإِلَّا فَدُّوا قَدْلَانَا ، وَاهْدُرُوا دِمَاءَكُمْ ، وَلِيُودَ مَسْعُودٌ دِيَةَ الْمَشِيرَةِ .

— قَالَ أَبُو الْعَاسِ : وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ : « دِيَةُ الْمَشِيرَةِ » ، يُرِيدُ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ الرَّحْلُ إِذَا قُتِلَ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلُوكَةِ وَدِيَّةَ عَشْرِ دِيَّاتٍ — مَثَّ إِلَيْهِ الْأَحْنَفُ : سَلَخْتَارٌ . فَانْصَرَفُوا فِي يَوْمِكُمْ ، فَهَرَبَ الْقَوْمُ رَايَاتِهِمْ وَانْصَرَفُوا ، فَمَا كَانَ الْعَدُوُّ مَثَّ الْأَحْنَفِ إِلَيْهِمْ : إِنْكُمْ حَيَّرْتُمُونَا خِلَالًا لَيْسَ لَنَا فِيهَا خِيَارٌ ، أَمَّا النُّزُولُ عَلَى حَكْمٍ فَكَيْفَ يَكُونُ وَالْكَلَمُ^(٢) يَقْطُرُ ، وَأَمَّا تَرْكُ دِيَارِنَا فَهُوَ أَحْوَجُ الْقَتْلِ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ احْرِثُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلْتُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾^(٣) ، وَلَكِنْ الدَّائِلَةُ لِأَنَّمَا هِيَ تَحُلُّ عَلَى الْمَالِ ، فَنَحْنُ سَطِلُ دِمَائِنَا ، وَبَدَى قَتْلَاكُمْ ، وَإِنَّمَا مَسْعُودُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى أَنْ يَقْبَعُوا أَمْرَ مَسْعُودَ ، وَيُعِيدُوا السِّيفَ ، وَتُودَى سَائِرُ الْقَتْلَى مِنَ الْأُرْدِ وَرَبِيعَةَ ، فَصَمِنَ ذَلِكَ الْأَحْنَفُ ، وَدَمَعَ إِلَيْهِمْ إِيَّاسُ بْنُ قَنَادَةَ الْحَاشَعِيُّ رَهْبَةً حَتَّى يُوْدَى هَذَا الْمَالُ ، فَرَضَى بِهِ الْقَوْمُ ، فَفَخَّرَ بِذَلِكَ الْفَرَزْدَقُ ، فَقَالَ بِالْجُرْجَرِ :

(٢) الْكَلَمُ : الْجُرْجَرُ .

(١) الْكَامِلُ : « مُسْتَقِيمَةٌ » .

(٣) سُورَةُ النَّسَاءِ ٦٦ .

ومنا الذي أعطى يديه رهينة لغاري سحريوم ضرب الجماجم^(١)
 عشية سأل الربيدان كلامها عجاظة موت بالسيف الصوارم
 هنالك لو تبني كلياً وجدتها أذل من القردان تحت للناسم
 ويقال : إن تميا في ذلك الوقت مع ياديتها وحلقائها من الأسورة والزط والسباحة
 وغيرهم كانوا زهاء سعين ألفاً ، وفي ذلك يقول جرير :

سائل ذوى يمن ورهط محرق والأزد إذ مدبوا النامسود^(٢)
 فأنام سحون ألف مدجج متسرلين هلاميًا وحديدًا^(٣)

قال الأحنف بن قيس : فكثر على الديات فلم أجدها في حاضرة تميم ، فخرجت
 نحو يثرب إلى بادية تميم ، فسالت عن التصود هناك ، فأرشدت إلى قبة ، فإذا شيخ
 جالس بفنائها مؤتزراً بشملة ، محتجب بحبل ، فسلمت عليه ، وانقبت له ، فقال لي :
 ما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قلت : توفي . قال : فما فعل عمر بن الخطاب الذي
 كان يحفظ العرب ويحوملها ؟ قلت : توفي . قال : فأى خير في حاضرتم بعدهما ؟ قال :
 فذكرت له الديات التي لزمنا للأزد وريمة ، قال : فقال لي : أقم ، فإذا راع قد أراح
 عليه ألف بعير ، فقال : خذها ، ثم أراح علينا آخر مثلها ، فقال : خذها ، فقلت : لا أحتاج
 إليها . قال : فانصرفت بالآلف عنه ، والله ما أدري من هو إلى الساعة^(٤) !

(١) ديوانه ٨٦١ . والنيران ، منى غر ، وهو الجيش . (٢) ديوانه ١٧٢ ؛ وهو مسعود بن عمرو السكي .
 (٣) اليلاق : جم يلقي ؛ وهو القباء ، قرسي معرب . وفي الكامل : « يلامعا » ، والبلع : هو الفرس .
 (٤) الكامل ١ : ١٤٠ - ١٤٣ .

(١٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض محاله :

أَمَّا نَعْدُ ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلَ بَلَدِكَ شَكَّوْا مِنْكَ غِلْظَةَ وَقَسْوَةَ ، وَاحْتِقَارًا
وَجَفَوَةَ ، وَنَظَرَتْ فَتَمَّ أَرَمَ أَهْلًا لَأَنْ يُذَنِّبُوا لِشِرْكِهِمْ ، وَلَا أَنْ يُقَصِّصُوا وَيُجَفِّفُوا
لِقَهْدِهِمْ ، فَالْبَسَ لَهُمْ جَلْبَابًا مِنَ الْقَبْرِ نَشُوبُهُ بِطَرْفٍ مِنَ الشِّدَّةِ ، وَدَاوِلَ لَهُمْ بَيْنَ
الْقَسْوَةِ وَالرَّافَةِ ، وَأَمْرُجَ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِذْنَاءِ ، وَالْإِبْسَادِ وَالْإِقْصَاءِ .
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الشرح :

الدَّهَاقِينَ : الزعماء أربابُ الأُمَلِكِ بالتراد ، واحْدُمُ دِهْقَانٌ بكسر الدال ،
ولفظه معرَّب .

ودَاوِلَ يَنْهَمُ ، أَيْ مَرَّةً هَكَذَا وَمَرَّةً هَكَذَا ، أَمْرُهُ أَنْ يَسْلُكَ مَعَهُمْ مَنَاجِيَا
مَتَوَسِّطًا ، لَا يُذَنِّبُهُمْ كُلُّ الذَّنْوِ لِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ ، وَلَا يَقْصِيهِمْ كُلُّ الْإِقْصَاءِ لِأَنَّهُمْ
مُعَاهِدُونَ ، فَوَجِبَ أَنْ يَعَامِلَهُمْ مَعَامِلَةَ آحِذَةٍ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَسَمَيْنِ بِنَصِيْبِ .

(٢٠)

الأصل

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه وهو حليعة عامله عبد الله بن عباس على التصرة - وعد الله عامل المؤمنين عبد السلام يومئذ عليها وعلى كور الأهواز وفارس وكرمان وغيرها :

وإني أقسم بالله قسماً صادقاً ، لئن بدعتي أهلك خنت من وراء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً ، لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر ، ثقیل الظهر ؛ صئيل الأمر . والسلام .

• • •

التفسير :

سيأتي ذكر نسب زياد وكيفية استحقاق معاوية له فيما بعد إن شاء الله تعالى . قوله عليه السلام : « لأشدن عليك شدة » ، مثل قوله : « لأحملن عليك حلة » ، والمراد تهديده بالأخذ واستصفاء المال .

ثم وصف تلك الشدة فقال : « إنها تتركك قليل الوفر » ، أى أفقرك بأخذ ما احتجت من بيت مال المسلمين .

وثقیل الظهر ، أى مسكين لا تقدر على مشونة عيالك .

وصئيل الأمر ، أى حقير ، لأهلك إعمالك كست بينها بين الناس بالعنى والثروة ، فإذا افتقرت صغرت عندهم ، واقتصفتك أعينهم .

(٢١)

الأصل

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد أيضا :

فَدَيْحُ الْإِسْرَافِ مُقْتَصِدًا ، وَأَذْكُرِي الْيَوْمَ غَدًا ، وَأَمْسِكْ مِنْ الْمَالِ بِقَدْرِ
صَرُورَتِكَ ، وَقَدِّمِ الْعَصَلَ لِيَوْمِ حَاحَتِكَ ، أَتَرْجُو أَنْ يُفْطِكَ اللَّهُ أَجْرَ
الْمُتَوَاصِمِينَ ، وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ التَّكْبِيرِينَ ! وَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مُتَمَرِّعٌ فِي التَّمِيمِ أَنْ تَمْسَهُ
الصَّيْفَ وَالْأُزْمَلَةَ ، وَأَنْ يُوحِيَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ ؛ وَإِنَّمَا الْمَرْءُ يَحْرِي بِمَا
أَسْلَفَ ، وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ . وَالسَّلَامُ .

•••

الشرح :

للمترع في التميم : المتقلب فيه . وسهوا عن الإسراف وهو التسدير في الإغراق ،
وأمره أن يمسك من المال ما تدعو إليه الضرورة ، وأن يقدم فصول أمواله وما ليس له
إليه حاجة ضرورية في الصدقة فيدخره ليوم حاجته ، وهو يوم النعث والقشور .
قلت : قبح الله زيادا ! فإنه كافأ إتمام على عليه السلام وإحسانه إليه واصطناعه له
بملاحة إلى شرحه من أعماله القبيحة شيمته وعييه والإسراف في لعنه ، وتهجين
أعماله ، والمبالغة في ذلك مما قد كان معاوية يرمى باليسير منه ، ولم يكن يفعل ذلك لطلب
رضا معاوية ، كلا ، بل بفعله بطعمه ، ويماديه بباطنه وظاهره ، وأنى الله إلا أن يرجع إلى
أمة ، ويصحح نسبه ، وكل إناء يصحح بما فيه . ثم جاء ابنه بعد نخم تلك الأعمال السيئة
بما ختم ، وإلى الله ترجع الأمور .

(٢٢)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس رجه الله تعالى ، وكان ابن عباس يقول : ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله كأنتفاعي بهذا الكلام :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ لِلرَّءِ قَدْ بَسُرُهُ دَرَكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِبَقُوتِهِ ، وَيَسُوءُهُ قَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُذِرْكَ ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ عَمَّا يَلْتَمِزُ مِنْ آخِرَتِكَ ، وَلْيَكُنْ أَسْفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا ، وَمَا يَلْتَمِزُ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحًا ، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَرَحًا ، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ مِمَّا بَعْدَ الْمَوْتِ

•••

الشرح :

يقول : إِنْ كُلَّ شَيْءٍ يَصِيبُ الْإِنْسَانَ فِي الدُّنْيَا مِنْ نَفْعٍ وَضَرٍّ فَبِقِصَامٍ مِنَ اللَّهِ وَقَدَرِهِ تَعَالَى ؛ لَكِنَّ النَّاسَ لَا يَنْظُرُونَ حَقَّ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ ، فَيَسُرُّ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَمَّا يَصِيبُهُ مِنَ النَّفْعِ ، وَيُسَاءُ بِقَوْتِ مَا بَقُوتُهُ مِنْهُ ، غَيْرَ عَالِمٍ بِأَنَّ ذَلِكَ النَّفْعَ الَّذِي أَصَابَهُ ، كَانَ لَا بَدَّ أَنْ يَصِيبَهُ ، وَأَنَّ مَا فَاتَهُ مِنْهُ كَانَ لَا بَدَّ أَنْ يَفُوتَهُ ، وَلَوْ عَرَفَ ذَلِكَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ لَمْ يَفْرَحْ وَلَمْ يَحْزَنْ .

ولقائل أن يقول : هَبْ أَنْ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِقِصَامِ وَقَدَرٍ ، فَلِمَ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَفْرَحَ بِالنَّفْعِ وَإِنْ وَقَعَ بِالْقَدَرِ ، وَيُسَاءُ بِقَوْتِهِ أَوْ بِالضَّرَرِ وَإِنْ وَقَعَ بِالْقَدَرِ أَلَيْسَ الْعُرْيَانُ يُسَاءُ

بقدم الشتاء وإن كان لا بد من قدومه ، والمحوم غيباً^(١) يساء بتجدد توبة الحمى ، وإن كان لا بد من تجددها ! فليس سبب الاختيار في الأفعال مما يوجب أن لا يسر الإنسان ولا يساء بشيء منها .

والجواب ينبغي أن يحمل هذا الكلام على أن الإنسان ينبغي أن لا يستغنى الرزق أنه أتاه بسعيه وحركته فيفرح مُعْجَباً بنفسه ، معتقداً أن ذلك الرزق ثمرة حركته واجتهاده ، وكذلك ينبغي ألا يساء بفوات ما فوته من النافع لأنما نفسه في ذلك نسباً لها إلى التقصير وفساد الحيلة والاجتهاد ، لأن الرزق هو من الله تعالى لا أثر للحركة فيه ، وإن وقع عندها ؛ وعلى هذا التأويل ينبغي أن يحمل قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ ﴾^(٢) .

من النظم الجيد الروحاني في صفة الدنيا والتحذير منها ، والوصية بترك الاغترار بها ، والعمل لما بعدها ، ما أورده أبو حيان في كتاب " الإشارات الإلهية " ، ولم يسمِ قائله :

دارُ النجائع والمحوم ودا	ر البث والأحزان والبلوى
مرُّ المذاقة غب ما احتلبت	منها يذاك وبينة للرعى
بيننا النقي منها بمنزلة	إذ صار تحت ترابها ملقى
تقفو مساويها محاسنها	لا شيء بين النقي والبشرى
ولقل يوم ذرّ شارقه	إلا سمعت هالك يبنى
لا تعين على الزمان لما	يأتى به فلقنا يرضى

للرمز رزق لا يفوت ولو جهد الخلائق حون أن يفنى
 يا عامر الدنيا للمد لها ماذا عملت لدارك الأخرى !
 ومهد القرمش الوطيشة لا تفعل فرأش الرقعة الكبرى
 لو قد دُعيت لقد أجبت لما تدعى له فانظر متى تدعى !
 أراك تحمى كم رأيت من الـ أحياء ثم رأيتهم موتى
 من أصبحت دنياه همتـه متى ينال العاية القصوى !
 سبحان من لا شيء يبدله كم من بصير قلبه أعمى !
 واللوت لا يحى على أحدٍ ممن أرى وكأنه يخفى
 والليل يذهب والهار بأحبائى ، وليس عليهما عدوى

(٢٣)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصية لما ضره أين ملجئ
لعنه الله :

وَصِيَّتِي لَكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَتُحَمَّدُوا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَلَا تُصَيِّعُوا
سَمْتَهُ ، أَقِيمُوا هَدْيَ الْعُمُودَيْنِ ، وَأَوْقِدُوا هَدْيَ الْمِصْبَاحَيْنِ ، وَحَلَاكُمْ ذَمًّا
أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وَالْيَوْمَ غَيْرُكُمْ ، وَغَدًا مُعَارِفُكُمْ ، إِنْ أَتَى فَأَنَا وَلِيُّ
دَمِي ، وَإِنْ أَتَى فَالْعَمَاءُ مِعَادِي ، وَإِنْ أَتَى فَالْمَنُورِيُّ قُرْنَةُ ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنٌ ،
فَاعْمُوا : ﴿ أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ^(١) .

وَاللَّهُ مَا فَجَّأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ ، وَلَا طَالِبٌ أَنْكَرْتُهُ ، وَمَا كُنْتُ إِلَّا
كَمَارِبٍ وَرَدَ ، وَطَالِبٍ وَجَدَ : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ حَزَنٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ ^(٢) .

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : أَقُولُ وَقَدْ مَضَى نَعْسُ هَذَا الْكَلَامِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ
الْخُطْبِ ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ هَاهُنَا زِيَادَةٌ أَوْجَبَتْ تَكَرُّرَهُ .

البنخ :

فَإِنْ قُلْتُ : لِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ : إِذَا أَوْصَاهُمْ بِالتَّوْحِيدِ وَاتِّسَاعِ سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

فلم يبقَ شيءٌ بعد ذلك يقول فيه : أقيسوا هذين العَمُودَيْنِ وخَلَاكم ذَمٌّ ؛ لأنَّ سَنَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَعْلٌ كُلٌّ وَاجِبٌ . وَتَجَنَّبُ كُلَّ قَبِيحٍ ؛ نَحْلَامُ ذَمٌّ فَمَاذَا يُقَالُ ؟

والجواب أن كثيرا من الصَّعَابَةِ كَلَّفُوا أَنْفُسَهُمْ أُمُورًا مِنَ التَّوَاقُلِ شَاقَّةً حِدَاً ، فَهُمْ مَنْ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَصُومُ الدَّهْرَ كُلَّهُ ، وَمِنْهُمْ الْمَرَاتِقُ النَّفُورُ ، وَمِنْهُمْ الْمُجَاهِدُ مَعَ سِقُوطِ الْجِهَادِ عَنْهُ لِقِيَامِ غَيْرِهِ بِهِ ، وَمِنْهُمْ تَارِكُ النِّكَاحِ ، وَمِنْهُمْ تَارِكُ اللَّطَائِمِ وَالْمَلَابِسِ ؛ وَكَانُوا يَتَفَاخَرُونَ بِذَلِكَ ، وَيَتَنَافَسُونَ فِيهِ ، فَأَرَادَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَبَيِّنَ لِأَهْلِهِ وَشَبِيعَتِهِ وَقَتَ الْوَصِيَّةِ أَنَّ الْمَهْمَ الْأَعْظَمَ هُوَ التَّوْحِيدُ ، وَالْقِيَامُ بِمَا يُعْلَمُ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ وَاجِبٌ ، وَلَا عَلَيْكُمْ بِالْإِحْلَالِ بِمَا عَدَا ذَلِكَ ، فَلَيْتَ مِنَ الْمَائَةِ وَاحِدًا نَهَضَ بِذَلِكَ ، وَالرَّادُ تَرْغِيهِمْ بِتَضْعِيفِ وَظَائِفِ التَّكَالِيفِ عَنْهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ^(١) . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ! « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْعَةِ » .

قوله : « وَخَلَاكم ذَمٌّ » : لِقِطْعَةٍ تَقَالُ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَلِ أَيْ قَدْ أَعْذَرْتُمْ ، وَسَقَطَ عَنْكُمْ الذَّمُّ . ثُمَّ قَسَمَ أَيْمَانَهُ الثَّلَاثَةَ أَقْسَامًا فَقَالَ : أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ أَيْ كُنْتُ أَرْجَى وَأَخَافُ ، وَأَنَا الْيَوْمَ هَبْرَةٌ لَكُمْ ، أَيْ عِظَةٌ تَعْتَبَرُونَ بِهَا . وَأَنَا عِنْدَ مَفَارِقِكُمْ ، أَيْ كُونُوا فِي دَارٍ أُخْرَى غَيْرِ دَارِكُمْ . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ إِنْ بَقِيَ وَلَمْ يَمُتْ مِنْ هَذِهِ الضَّرْبَةِ فَهُوَ وَلِيٌّ دِمِهِ ، إِنْ شَاءَ عَفَا ، وَإِنْ شَاءَ اقْتَصَصَ ، وَإِنْ لَمْ يَبْقَ فَالْفَنَاءُ لِلْوَحْدِ الَّذِي لَا يَدُّ مِنْهُ .

ثُمَّ عَادَ فَقَالَ : وَإِنْ أَعْفَى ، وَالتَّعْصِيمُ لَيْسَ عَلَى قَاعِدَةِ تَقْسِيمِ الْمُتَكَلِّمِينَ . وَالْمَعْنَى مِنْهُ مَفْهُومٌ ، وَهُوَ إِيْمَانُ أَنْ أَسْلَمَ مِنْ هَذِهِ الضَّرْبَةِ أَوْ لَا أَسْلَمَ ، فَإِنْ سَلِمْتَ مِنْهَا فَأَنَا وَلِيٌّ دِمِّي ؛ إِنْ شَلْتُ عَفَوْتُ فَلَمْ أَقْتَصَصْ ، وَإِنْ شَلْتُ اقْتَصَصْتُ ، وَلَا يَعْنِي بِالْقَصَاصِ هَاهُنَا الْقَتْلُ ، بَلْ صَرْبَةٌ بِصَرْبَةٍ ، فَإِنْ سَرَتْ إِلَى النَّفْسِ كَانَتْ السَّرَايَةُ مُهْدَرَةً كَقَطْعِ الْيَدِ .

ثم أومأ إلى أنه إن سلم عفا بقوله : إن العفوى إن عفوت قرينة .
 ثم عدنا إلى القسم الثاني من القسمين الأولين ، وهو أنه عليه السلام لا يسلم من هذه ؛
 فولاية الدم إلى الورثة ، إن شاءوا اقتصوا وإن شاءوا عفا .
 ثم أومأ إلى أن العفو منهم أحسن ، بقوله : « وهو لكم حسنة » ، بل أمرهم أمراً
 صريحاً بالعفو ، فقال : فاعفوا ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ . وهذا لفظ الكتاب
 العزيز ، وينبغي أن يكون أمره بالعفو في هذا الكلام محمولاً على التذنب .
 ثم أقسم عليه السلام أنه ما جاء من الموت أمرٌ أسكره ولا كرهه ، فجأى الشيء :
 أتانى بفتنة .

ثم قال : « ما كنتُ إلا كقارب وَرَدَ » ، والقارب : الذي يبر إلى الماء وقد
 بقي فيه وبينه ليلة واحدة ، والاسم : القرب ، فهم قاربون ، ولا يقال « مقربون » ،
 وهو حرف شاذ .

(٣٤)

الأصل

ومن وصية له عليه السلام بما يعمل في أمواله ، كتبها بعد منصرفه من صفين :

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ انْتِعَاءً وَجْهَ اللَّهِ
لِيُوجِبَ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَيُعْطِيَ بِهِ الْأُتَمَّةَ .

الشرح :

قد عابت العمانية وقالت : إن أبا بكر مات ولم يحف ديارا ولا درهما ، وإن عليا عليه السلام مات وخلف عفار كثيرا - يقولون تحلا - قيل لهم : قد علم كل أحد أن عليا عليه السلام استخرج بيونا يكذب به بالمدينة ويمشع وسويفة ، وأخيا بها مواتا كثيرا ، ثم أحرصها عن ملكه ، وتصدق بها على المسلمين ، ولم يمت وشيئا منها في ملكه ، ألا ترى إلى ما تنصنه كتب السير والأخبار من منارعة زيد بن علي وعهد الله ابن الحسن في صدقات علي عليه السلام ، ولم يورث علي عليه السلام نية قليلا من المال ولا كثيرا إلا عبيده وإماءه وسبعة درهم من عطائه ، تركها ليشتري بها حادما لأهله قيمتها ثمانية وعشرون دينارا ، على حسب المائة أربعة دنانير ، وهكذا كانت العاملة بالندرام إذ ذاك ، وإعالم ترك أبو بكر قبلا ولا كثيرا لأنه ما عاش ، ولو عاش لترك ، ألا ترى أن عمر أصدق أم كلثوم أربعين ألف درهم ، ودفعها إليها ، وذلك لأن هؤلاء طالت أعمارهم ، فهم من درت عليه أحلاف التجارة ، ومنهم من كان يستعمر الأرض ويوزعها ، ومنهم من استفصل من رزقه من اليع (١) .

(١) الرد : الفينة .

وفضلهم أمير المؤمنين عليه السلام بأنه كان يعمل بيده ، وتحرث الأرض ويستقي
 الماء ويغرس النخل ، كل ذلك بياثره بنفسه الشريفة ، ولم يستقي منه لوقت ولا لعقبه
 قليلا ولا كثيرا ؛ وإنما كان صدقة ؛ وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله وله ضياع
 كثيرة حليلة جدا مخبر وفدك وبني النصير ، وكان له وادي نخلة وضياع أخرى كثيرة
 بالطائف ، فصارت بدمونه صدقة بالخبر الذي رواه أبو بكر . فإن كان علي عليه السلام
 معيا بصياعه ومخلة فكذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهذا كفر وإلحاد ؛ وإن كان
 رسول الله صلى الله عليه وآله إنما ترك ذلك صدقة فرسول الله صلى الله عليه وآله ما روى
 عنه الخبر في ذلك إلا واحد من المسلمين ، وهو عليه السلام كان في حياته قد أثبت عند
 جميع المسلمين بالمدينة أنها صدقة ، فالتهمة إليه في هذا الباب أعمد . وروى : « ويعطيني به
 الأمة » ، وهي الأمن .

الأصل :

منها :

قَالَ يَهُومُ بِذَلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيُبْعِثُ مِنْهُ
 بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ حَدَّثَ بِحَسَنِ حَدَّثَ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَأَصْدَرَهُ
 مَصْدَرَهُ ؛ وَإِنْ لَا بَنَى فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لَتَنِي عَلِيٌّ .

وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَى ابْنِي فَهَيْلَةَ أُبْتِمَاءَ وَجْهِ اللَّهِ بِقُرْبَةٍ إِلَى رَسُولِ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ ، وَتَشْرِيفاً لَوْصَلَتِهِ بِوَيْسَرٍ عَلَى الَّذِي
 يَجْعَلُهُ إِلَهِهُ أَنْ يَتْرَكَ الْمَالَ عَلَى أَصُولِهِ ، وَيُبْعِثَ مِنْ تَمَرِهِ حَيْثُ أَمَرَ بِهِ وَهُدًى لَهُ ،
 وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِهِ تَحْيِيلَ هَذِهِ الْقُرَى وَدِيَّةً حَتَّى تُشَكِلَ أَرْضَهَا غَرَامًا .

وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي أُلُوفٌ عَتَيْنِ لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِيَ حَامِلٌ فَتَمَسَكَ عَلَى وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ ؛ فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ قَدْ أُفْرِجَ عَنْهَا الرِّقُّ وَحَرَّرَهَا الْعَتَقُ .

• • •

قَالَ السَّيِّدُ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :
قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ « وَلَا يَبِيعَ مِنْ نَحْلِهَا وَدِيَّةٌ » ، الْوَدِيَّةُ :
الْفَيْلَةُ ، وَجَمْعُهَا وَدِيٌّ .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « حَقٌّ تُشْكِلُ أَرْضُهَا عِرَاسًا » هُوَ مِنْ أَفْصَحِ الْكَلَامِ ،
وَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّ الْأَرْضَ بَكْتُرٌ فِيهَا عِرَاسُ النُّحْلِ حَتَّى يَرَاهَا النَّاطِلُ عَلَى عَصِيٍّ تَلِكُ
الضَّعَّةَ الَّتِي عَرَفَهَا يَهْ ، فَيُشْكِلُ عَلَيْهَا أَمْرُهَا وَتَحْسِبُهَا غَيْرَهَا .

• • •

الْبَيْزُجُ :

جَعَلَ لِلْحَسَنِ ابْنِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَايَةَ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِ ، وَأُذِنَ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ
بِالْمَعْرُوفِ ، أَيْ لَا يُسْرِفَ ، وَإِنَّمَا يَتَنَاوَلَ مِنْهُ مَقْدَارَ الْحَاجَةِ ، وَمَا جَرَتْ بِمِثْلِهِ عَادَةٌ مِنْ
يَتَوَلَّى الصَّدَقَاتِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ ^(١) .

ثُمَّ قَالَ : فَإِنْ مَاتَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ بِمَدَّةٍ حَتَّى فَالْوَلَايَةُ لِلْحُسَيْنِ ، وَالْمَاءُ فِي « مَصْدَرِهِ »
تَرْجِعُ إِلَى الْأَمْرِ ، أَيْ بِصَرْفِهِ فِي مَصَارِفِهِ الَّتِي كَانَ الْحَسَنُ يَصْرِفُ فِيهَا . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لَهُذَيْنِ
الْوَلَدَيْنِ حِصَّةً مِنْ صَدَقَاتِهِ أَسْوَأَ سَائِرِ الْبَيْنِ ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ بَتَوْهُمْ مَتَوَّعًا

أنهما لكونهما قد فوّض إليهما النظرُ في هذه الصدقات ، قد مُنعا أن يُسهما فيها بشيء ، وإن الصدقات إنما يتناولها غيرها من بى على عيه السلام ممن لا ولاية له مع وجودهما ، ثم يتن لماذا حصصهما بالولاية ؟ فقال : إنما فعلت ذلك لشرفهما برسول الله صلى الله عليه وآله ، فتقرّبتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأن جعلتُ لسيّطيه هذه الرياسة ، وفي هذا رمز وإزاراء عن صرّف الأمر عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ، مع وجود من يصلح للأمر ، أى كان الأليق بالمسلمين والأولى أن يحملوا الرياسة بعدهم لأهله قرّة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتكرّما لحرمة ، وطاعة له ، وأمانة لقدّره ، صلى الله عليه وآله أن تكون ورثته سؤفة ، بينهم الأجانب ، ومن ليس من شجرته وأصله . ألا ترى أن هبة الرسالة والنبوة في صدور الناس أعظم إذا كان السلطان والحاكم في الخلق من بيت النبوة ؛ وليس يُوحد مثل هذه المحبة والجلال في عروس الناس للنبوة إذا كان السلطان الأعظم بعيد النسب من صاحب الدعوة بحيه السلام !

ثم اشترط على مَنْ بلى هذه الأموال أن يتركها على أصولها ، ويُعق من ثمرتها ، أى لا يقطع النخل والتمر ويبيعه خشا وعيدانا ، فيعصى الأمر إلى حراب الصياع وعطلة العقار . قوله : « وألا يبيع من أولاد نخيل هذه انقرى » أى من الفسلان الصغار ، ستمها ، أولادا ، وفي بعض النسخ ليست « أولاد » مذكورة ، والودبة : الصيلة .

تشكيل أرضها : تمتلئ بالفراس حتى لا يبقى فيه طريقة واضحة .

قوله : « أطوف عليهن » ، كناية لطيفة عن عيشان النساء ، أى من السراري ؛ وكان عليه السلام يذهب إلى حلّ بيع أمهات الأولاد ، فقال : من كان من إماني لها ولد منى ؛ أو هي حامل منى وقسمت تركتي فلنكر أمّ ذلك الولد مبيعة على ذلك الولد ، ويحاسب بالثمن من حصته من التركة ، فإذا بيعت عليه عقت عليه ، لأن الولد إذا اشترى الوالد عقت الوالد .

عنه ، وهذا معنى ، قوله « فتمسك على ولدها » ، أى تقوم عليه بقيمة الوقت الحاضر ،
وهى من حفظه ، أى من نصيبه وقسطه من التركة .

قال : فإن مات ولدها وهى حية بعد أن تقوم عليه فلا يجوز بيعها لأنها خرجت عن
الرق بانتقالها إلى ولدها ، فلا يجوز بيعها .

فإن قلت : فلو أدا قال : فإن مات ولدها وهى حية ؟ وهل قال : فإذا قومت
عليه عتقت ؟

قلت : لأن موضع الاشتباه هو موت الولد وهى حية ، لأنه قد يقضى ظاناً أنه إنما
حرّم بيعها لكان وجود ولدها ، فأراد عليه السلام أن يبين أنها قد صارت حرة مطلقاً
سواء كان ولدها حياً أو ميتاً .

(٢٥)

الأصل

ومن وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وإنما ذكرناها
تجلاً منها ليعلم بها أنه عليه السلام كان يقيم عماد الحق ، ويشرع أمثلة العدل في صغير
الأمر وكبيرها ، ودقيقها وجليلها :

أُطْلِقَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا تُرْوَعَنَّ مُسْلِمًا ، وَلَا تَجْتَارَنَّ
عَلَيْهِ كَارِهَا ، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى بَشَرٍ
فَانْزِلْ عَمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُحَالِطَ أُنْيَاتَهُمْ ، ثُمَّ أَمْرِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَفَارِ ؛ حَقِّي
شَوْمَ بَيْنِهِمْ فَتُسَلِّمْ عَلَيْهِمْ .

وَلَا تُحْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ ثُمَّ تَقُولُ لِعِبَادِ اللَّهِ ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ ،
لِأَحَدٍ مِنْكُمْ حَقُّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ ، قَهْلَ شَيْءٍ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقِّي فَتَوَدُّوهُ
إِلَى وَلِيِّهِ !

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَا ، فَلَا تُرَاجِعْهُ ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَاطْلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ
تُخَيِّفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ ، أَوْ تَغِيْبَهُ أَوْ تُزْهِقَهُ ؛ فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِصَّةٍ ؛ فَإِنْ كَانَ
لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَإِنْ أَكْثَرَهَا لَهُ ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ
عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ ، وَلَا عَظِيفٍ بِهِ .

وَلَا تُفَرِّقَنَّ بَهِيمَةً وَلَا نَعْرَةً عَنْهَا ، وَلَا تَسْوَأَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا .
وَأَصْدِجْ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيْرْهُ ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِصَنَّ لِيَا اخْتَارَهُ .
ثُمَّ أَصْدِجْ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ ، ثُمَّ خَيْرْهُ ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِصَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ ؛ فَلَا تَزَالْ
كَذَلِكَ حَقِّي بَيْنِي مَا فِيهِ وَقَالَ لِحَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ ؛ فَاقْبِضْ حَقِّي اللَّهُ مِنْهُ .

فَإِنْ اسْتَقَالَتْ فَأَقِلَّهُ ، ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ .

وَلَا تَأْخُذَنَّ عَزْدًا وَلَا هَرِمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً ، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ ؛ وَلَا تَأْمَنْ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقَ بِدِينِهِ ، رَافِقًا بِمَالِ الْخَسِيِّينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ ، وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا شَعِيقًا وَأَمِينًا حَصِيظًا ، غَيْرَ مُتَعَبٍّ وَلَا مُخْجِفٍ ، وَلَا مُلْعَبٍ وَلَا مُتَعَبٍ .

ثُمَّ أَحْذَرُ إِلَيْهَا مَا اجْتَمَعَ هُنَاكَ ، نَصِيرُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِيرُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلَا يَحُولَ بَيْنَ مَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا ، وَلَا يَمْضُرُ لَهَا فَيْصُرُ ذَلِكَ بَوْلَدِهَا ، وَلَا يَجْهَدُهَا رُكُوبًا ، وَلِيَعْدِلَ بَيْنَ صَوَاحِبِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا ، وَلِيَرْفُقَ عَلَى الْغَائِبِ ، وَلِيَسْتَأْنِ بِالْقَبِ وَالطَّالِعِ ، وَلِيُورِدَهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْعُدْرِ ، وَلَا يَمْدُلْ بِهَا عَنْ بَنَاتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِ الطَّرِيقِ ، وَلِيُرَوِّحَهَا فِي السُّكَاكِ ، وَلِيَمْنِهَا عِنْدَ الْمُطَافِ وَالْأَغْشَابِ ، حَتَّى تَأْتِيَنَّكَ بِإِذْنِ اللَّهِ نَدْنًا وَبُعِيَّاتٍ ، غَيْرَ مُتَعَبَاتٍ وَلَا تَجْهُودَاتٍ ، لِنَقِصِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أُعْظِمُ لِأَجْرِكَ ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

البُرْجُ :

وقد كرر عليه السلام قوله : « لِنَقِصِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ » في ثلاثة مواضع من هذا الفصل :

الأول قوله : « حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ لِنَقِصِمَهُ بَيْنَهُمْ » .

الثاني قوله عليه السلام : « نَصِيرُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ » .

الثالث قوله : « لَنَفْسِهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ » ، والبلاغة لا تقتضي ذلك ، ولكفى أظنه أحب أن يحتاط ، وأن يدفع الطُّعْنَةَ ^(١) عن نفسه ، فإن الزمان كان في عهده قد قد ، وساءت ظُنُونُ الناس ، لا سيما مع مارآه من عثمان واستشاره بمالِ النِّزَاءِ .
ونعود إلى الشرح . قوله عليه السلام : « عَلَى تَقْوَى اللَّهِ » ، « عَلَى » ليست متملقة بـ « انطلق » ، بل محذوف ، تقديره : مُوَاطِئًا .

قوله : « وَلَا تُرْوَعَنَّ » أى لَا تُفْرَعَنَّ ، والرُّوعُ الفَزَعُ ، رُعْتُهُ أَرْوَعُهُ ، وَلَا تُرْوَعَنَّ بتشديد الواو وَضَمُّ حَرْفِ المضارعة ، من رَوَعْتَ للتكثير .
قوله عليه السلام : « وَلَا نَجْتَارَنَّ عَلَيْهِ كَارَهَا » ، أى لَا تَمَرَّنْ بَبُيُوتِ أَحَدٍ مِنَ الْمَسْلُومِينَ بِكَرِهٍ مُرُورِكَ . وروى : « وَلَا تَحْتَارَنَّ عَلَيْهِ » ، أى لَا تَقْسِمْ مَالَهُ وَتَخْتَرُ أَحَدًا الْقِسْمِينَ ، والهاء في « عَلَيْهِ » ترجع إلى « سُلَيْمًا » وتعبير هذا سياق في وصيته له أن يَصْدَعَ الْمَالَ ثُمَّ يَصْدَعَهُ ، فهذا هو التَّهْيُّ عَنْ أَنْ يَخْتَارَ عَلَى السُّلَيْمِ . والرواية الأولى هي المشهورة .

قوله عليه السلام : « فَأُزِلَّ بِمَائِهِمْ » ، وذلك لأنَّ الْغَرِيبَ يُحَمَّدُ مِنْهُ الْإِنْقِبَاضَ ، وَيُسْتَهْجَنُ فِي الْقَادِمِ أَنْ يُحَالَطَ بِبُيُوتِ الْحَيِّ الَّذِي قَدِمَ عَلَيْهِ فَقَدْ يَكُونُ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ لَا تَلِيقَ رُؤْيَاهُ ، وَلَا يَحْسُنُ سَمَاعُ صَوْتِهِ ، وَمِنَ الْأَطْفَالِ مَنْ يَسْتَهْجِنُ أَنْ يَرَى الْغَرِيبَ أَبْسَاطَهُ عَلَى أَبْوَابِهِ وَأَهْلِهِ ، وَقَدْ يَكْرَهُ الْقَوْمُ أَنْ يَطْلُعَ الْغَرِيبُ عَلَى مَا كَلَّمَهُمْ وَمَشَرَبَهُمْ وَمَلْبَسَهُمْ وَبَوَاطِنِ أَحْوَالِهِمْ ، وَقَدْ يَكُونُونَ قَرَاءً فَيَكْرَهُونَ أَنْ يَعْرِفَ قَرَّامَهُمْ فَيَحْتَقِرَهُمْ ، أَوْ أَغْنِيَاءَ أَرْبَابَ ثَرْوَةٍ كَثِيرَةٍ فَيَكْرَهُونَ أَنْ يَعْلَمَ الْغَرِيبُ ثَرْوَتَهُمْ فَيَحْسُدَهُمْ ، ثُمَّ أَمْرُهُ أَنْ يَمْضِيَ إِلَيْهِمْ غَيْرَ مُتَسَرِّعٍ وَلَا عَجِلٍ وَلَا طَائِشٍ نَزِيقٍ ، حَتَّى يَقُومَ بَيْنَهُمْ فَيَسْلُمَ عَلَيْهِمْ

ويعيهم نحية كاملة ، غير مخدجة ، أى غير ناقصة ، أخذجت الناقة إذا جامت بولدها ناقصاً أخلق ، وإن كانت أيامه تامة ، وخدجت : ألفت الولد قبل تمام أيامه . وروى : « ولا تُخدج بالتحية » ، والباء زائدة .

ثم أمره أن يسألهم : هل فى أموالهم حق لله تعالى ؟ يعنى الزكاة ، فإن قالوا : لا ، فليصرف عنهم ، لأن القول قول رب المال ، فله قد أخرج الزكاة قبل وصول المصدق إليه .

قوله : « وأنتم لك » ، أى قال : نعم .

ولا تبسه ، أى لا تطلب منه الصدقة عتفاً ، وأصله الأحد على غير الطريق .
ولا ترهقه : لا تكلفه السر والمشفة .

ثم أمره أن يقبض ما يدفع إليه من الذهب والفضة ، وهذا يدل على أن المصدق كان يأخذ العين والورق كما يأخذ الماشية ، وأن النصاب فى العين والورق تدفع زكاته إلى الإمام ونوابه ، وفى هذه المسألة اختلاف بين الفقهاء .

قوله : « فإن أكثرها له » : كلام لا مزيد عليه فى الفصاحة والرئاسة والدين ، وذلك لأن الصدقة المستحقة حرة يسيرة من النصاب ، والشريك إذا كان له الأكثر حرّم عليه أن يدخل ويتصرف إلا بإذن شريكه ، فكيف إذا كان له الأقل .

قوله : « فلا تدخلها دخول منسلط عليه » ، قد علم عليه السلام أن الظلم من طمع الولاء ، وخصوصاً من يتولى قبض الماشية من أربابها على وجه الصدقة ، فإنهم يدخلونها دخول منسلط حاكم قاهر ، ولا يبقى لرب المال فيها تصرف ، فهى عليه السلام عن مثل ذلك .

قوله : « ولا تنفرون بهيمة » ، ولا تفزع عنها ، ، وذلك أنهم على عادة السوء يهيجون^(١) بالتعطيع حتى تنفر الإبل ، وكذلك الشاء إظهاراً للقوة والقهر ، وليتمكن أعوانهم من اختيار الجيد ، ورَفَض الردي .

قوله : « ولا تسرون صاحبها فيها » أى لا تفتوه ولا تُخزنوه ، يقال : سَوَّاهُ في كذا سَوَّاهٌ وسَوَّاهٌ .

قوله : « واصدع المال صدعين وخيره » ، أى شقه نصفين ثم خيره ، فإذا اختار أحد النصفين فلا تعرض لما اختار ، ثم اصدع النصف الذى ما ارتضاء لنفسه صدعين وخيره ، ثم لا تزال تفعل هكذا حتى تُتقى من المال بمقدار الحق الذى عليه ، فاقبضه منه ، فإن استغالك فأقله ، ثم اخلط المال ، ثم عُدْ لمثل ما صنعت حتى يرضى ، وينفى أن يكون الميمات الخس وهى انهلوسة والمكسورة وأخواتها يخرجها المصدق من أصل المال قل يقسمته ثم يقسم وإلا فرمما وقعت في سهم المصدق إذا كان يعتمد ما أمره به من صدع المال مرة بعد مرة .

والعود : المسن من الإبل ، والمهرمة : المسنة أيضاً ، والمكسورة : التى أحد قوائمها مكسورة العظم أو ظهرها مكسور ، والمهلوسة : المريضة قد هلكها المرض وأفقى لها ، والمهلام : السَّل . والقوار : يفتح العين : الميِّب ، وقد جاء بالصم .

والمعنف : ذو العنف بالضم وهو حيد الرُّق . والمعنف : الذى يسوق المال سَوْقاً عنيفاً فيحصف به أى يهلكه أو يذهب كثيراً من لحمه ونقيه^(٢) .

والمَلْعَب : المَتَعَب ، والغوب : الإعياء .

وحدوت السفينة وغيرها - بعير ألف أحدرها بالصم .

(١) يقال : هيج بالهمزة : صاح به ، وبالحل وحره .

(٢) التقي ، بكسر النون وسكون اللام : الملح .

قوله : « بين ناقة وبين فصيلها » الأفصح حذف بين الثانية ؛ لأن الاسمين ظاهران ، وإتاما تكرّر إذا جاءت بعد المضمر ، كقولك : المال بيني وبين زيدٍ وبين عمرو ، وذلك لأن الجرور لا يُعطف عليه إلا بإعادة حرف الجرّ والاسم المضاف ، وقد جاء : المال بين زيدٍ وعمرو ، وأنشدوا :

بين السحاب وبين الرّيح ملحمةٌ قعاقعٌ وظبي في الجو تمخرط^(١)
وأبصاً :

بين النديّ وبين رقة ضاحكٍ عيث الضربك وفارسٌ مقدم^(٢)
ومن شعر الحماسة :

وإن الذي يـسـفـى وبين بني أبي وبين بني عمي لمحذوفٌ حدّا^(٣)

وليس قول من يقول : إنه عطف بين الثالثة على الصمير المحرور تأوّل من قول من يقول : بل عطف بين الثالثة على بين لثانية ، لأنّ المعنى يتمّ بكل واحد منها .

قوله عليه السلام : « ولا تمصّر لهما » ، لتصرّ خلب ما في الصرع حميمه ، نها من أن يحلب اللبن كله فيبقى العصير جالما ؛ ثم نهاه أن يحمدها ركوبا ، أي يبتعبها ويحملها مشقة ؛ ثم أمره أن يعدل بين الركاب في ذلك ، لا يخصص بالركوب واحدةً بعينها ، ليكون ذلك أرواح لهم ، ليرفه على اللاعب ، أي ليرزقه وليعفيه عن الركوب ليسترخ . والرفاهية : الدعة والراحة .

والنقب : ذو النقب ، وهو رقة حفّ البعير حتى تكاد الأرض تجرحه : أمره أن يستأنى بالبعير ذي النقب ، من الأناة ، وهي المملة .

(١) الملحمة . الحرب ، والقعاقع : حكاية أصوات النرب في الحرب . والظبي : جمع ظبة ، وهو حذاليف .

(٢) رقة ضاحك : موضع بعينه . (٣) ديوان الحماسة ٣٠ : ١٧٢ ، واليه للقمح الكندي .

والظالم : الذي ظلم ، أى غمز فى مشيه .
والمدّر : جمع غدير الماء . وجواز الطريق : حيث لا ينبت المرعى .
والنطاف : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى القليل .
والبدن بالتشديد : السمان ، واحدها بدن .
ومُنَقِيَّات : ذوات نقي ، وهو المنع فى العظام ، والشعم فى العين من السمن ، وأنقّت
الإبل وغيرها : سمّنت وصار فيها نقي ، وناقة مُنْقِيَّةٌ ، وهذه الناقة لا تُنقى .

(٢٦)

الأصل :

ومن عهد له عليه السلام إلى بعض عماله وقد بثه على الصدقة :

أَمْرُهُ يَتَّقَى اللَّهَ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ ؛ وَحَيَاتِ عَمَلِهِ ، حَيْثُ لَا شَاهِدَ غَيْرُهُ ، وَلَا وَكِيلَ دُونِهِ .

وَأَمْرُهُ أَلَّا يَمْلَأَ شَيْءٌ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُعَايِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَ ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَفِ مِرْءَهُ وَعَلَانِيَتَهُ ، وَفِيهِ وَمَقَالَتَهُ ، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَأَحْلَسَ الْعِبَادَةَ .

وَأَمْرُهُ أَلَّا يَجْتَنِبَهُمْ ، وَلَا يَمْنَحَهُمْ ، وَلَا يَرْتَعِبَ عَنْهُمْ تَفْصِيلاً بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَالْأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحَقُوقِ .

وَأَنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الْعِدَّةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً ، وَحَقّاً مَعْلوماً ، وَشُرْكَاءَ أَهْلِ مَسْكَةٍ ، وَصُفْءٍ دَوِي قَاقَةٍ .

وَأَنَا مُوَفِّقُكَ حَقِّكَ ، مُوَفِّقُهُمْ حُقُوقَهُمْ ، وَلَا نَعْمَلُ فَبَيْنَكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ حُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَبُؤْسِي لِمَنْ حَصَّنَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ ، وَالسَّائِلُونَ وَالذُّفُوعُونَ ، وَالْفَارِثُونَ وَأَبْنُ السَّبِيلِ !

وَمَنْ اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ ، وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ ، وَلَمْ يُبْزِزْهُ نَفْسُهُ وَدِينُهُ عَنْهَا ، فَقَدْ أَحْلَى بِنَفْسِهِ الذِّلَّ وَالْغُرَى فِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَدْنَى وَأَحْرَى ؛ وَإِنَّ أَعْظَمَ الْحِيَانَةِ حِيَانَةُ الْأَمَةِ ، وَأَفْطَحَ الْعِشِّ عِشَّ الْأَيْمَةِ . وَالسَّلَامُ .

السنخ :

حيث لا شهيد ولا وكيل دونه ، يعنى يوم القيامة .

قوله : « ألا يعمل شئ » من طاعة الله فيها ظهر « ، أى لا يوافق فيعمل الطاعة فى الطاهر .
والمعصية فى الباطن .

ثم ذكر أن الذين يتحصون النفاق والرأياء هم المحلصون .

وَأَلَا يَخْتَهُمُ : لا يواجههم بما يكرهونه ، وأصل الختة لقاء الجبهة أو صرئها ،
فلما كان المواجه غيره بالكلام القبيح كالاعتراب ختته به سُمي بذلك جبتها .

قوله : « ولا يعصهم » : أى لا يطيعهم بالبهتان والكذب ، وهى المعصية ،
وعصيت فلان ما عصها ، وقد عصيت فلان ، أى خنت بالبهتان .

قوله : « ولا يرغب عنهم نهصلا » ، تقول : لا يحفرهم ادعاء لفضله عليهم ، وتمييزه
عهم بالولاية والإمرة ؛ يقال فلان يرغب عن القوم ، أى يأنف من الالتئام إليهم ، أو من
المخالطة لهم .

وكان عمر بن عبد العزيز يدخل إليه سالم مولى بن محروم وعمر في صدر بيته فينتحى
عن الصدر ، وكان سالم رجلا صالحا ، وكان عمر أراد شراء موعته ، فأعتقه مواليه ؛ فكان
يسميه : أخى فى الله ؛ فقيل له : أنتحى لسالم ا فقل : إذا دخل عليك من لا ترى لك عليه
فضلا فلا تأخذ عليه شرف المجلس . وهم السراج ليلة نأى محمد ، فوثب إليه رجاء بن حيوة
ليصديه ، فأقسم عليه عمر بن عبد العزيز ، لحسن ، ثم قام عمر فأصلحته ، فقال له رجاء : أتقوم
أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قت وأما عمر بن عبد العزيز ، ورجعت وأما عمر بن
عبد العزيز .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا ترفعوني فوق قدرى فتقولوا في مناقات النصارى في ابن مريم ، فإن الله عز وجل اتخذني عبدا قتل أن يتخذني رسولا ».

ثم قال : إن أرباب الأموال الذين يحب الصدقة عليهم في أموالهم إخوانك في الدين ، وأخوانك على استخراج الحقوق ، لأن الحق إنما يمكن العامل استيوائه بمعاونة رب المال واعترافه به ، ودفعه إليه ، فإذا كانوا بهذه الصفة لم يحز لك عندهم وجعهم وادعاه الفصل عليهم .

ثم ذكر أن لهذا العامل نصيبا مفروضا من الصدقة ، وذلك من الكتاب العزيز : « كما نوبتكم نحن حقك يحب عليك أن توفى شركاءك حقوقهم ، وهم الفقراء والمساكين والعامرون وسائر الأصناف المذكورة في القرآن ، وهذا يدل على أنه عليه السلام قد فوضه في صرف الصدقات إلى الأصناف للسلومة ، ولم يلموه بأن يحمل ما احتسب إليهم ليوثره هو عليه السلام على مستحقيه كما في الوصية الأولى ، ويجوز للإمام أن يتولى ذلك بنفسه ، وأن يكلفه إلى من يثق به من عماله .

وانتصب « أهل مسكة » لأنه صفة « شركاء » ، وفي التحقيق أن « شركاء » صفة أيضا موصوفاً محذوف ، فيكون صفة بعد صفة .

وقال الراوي : انتصب « أهل مسكة » لأنه يدل من « شركاء » ، وهذا غلط ، لأنه لا يعطى معناه ليكون بدلا منه .

وقال أيضا : بؤسى ، أى عذابا وشدة ، فظنه منونا وليس كذلك ، بل هو بؤسى على وزن « فلى » كفضل ونسى ، وهى نقطة مؤنثة ؛ يقال : بؤسى لفلان ، قال الشاعر :

أرى الحلم بؤسى للفتى في حياته ولا عيش إلا ما حباك به الجهل

والسائلون هاهنا هم الرقاب المذكورون في الآية ، وهم للكاتِبون يحذر عليهم أداء مال الكتابة ، فيسألون الناس ليتخلصوا من رتبة الرق . وقيل : هم الأسارى يطلبون فكاً أنفسهم ، وقيل : بل المراد بالرقاب في الآية الرقيق ، يسأل أن يتناحه الأغنياء فيعتقوه . والمدفوعون هاهنا هم الدين عمام الله تعالى في الآية بقوله : ﴿ وفي سبيل الله ﴾ ^(١) ، وهم قراء العزاة ، تمام مدفوعين لغيرهم . والمدفوع والمدفع : الفقير ، لأن كل أحد يكرهه ويدفعه عن نفسه . وقيل : هم المحبيج المقطع بهم ، تمام مدفوعين لأنهم دفعوا عن إتمام حجتهم ، أو دفعوا عن العود إلى أهلهم .

فإن قلت : لم حلت كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما فترته به ؟ قلت : لأنه عليه السلام إنما أراد أن يذكر الأصناف المذكورة في الآية ، وترك ذكر المؤلفة قلوبهم لأنهم سقط بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد كان يدفع إليهم حين الإسلام صيف ، وقد أعزاه الله سبحانه ، فاستغنى عن تأليف قلوب المشركين ، وحيت سعة أصناف ، وهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها والرقاب والعاملون وفي سبيل الله وابن السبيل .

فأما العاملون عليها فقد ذكرهم عليه السلام في قوله : ﴿ وإن للفقير هذه الصدقة نصيباً مفروصاً ﴾ ، فبقيت ستة أصناف أتى عليه السلام ألفاظ القرآن في أربعة أصناف منها ، وهي : الفقراء ، والمساكين ، والعاملون ، وابن السبيل ، وأبدل لمطين وهما الرقاب وفي سبيل الله بلقطين وهما السائلون والمدفوعون .

فإن قلت : ما بقوله الفقهاء في الصدقات ؟ هل تصرف إلى الأصناف كلها أم يجوز صرفها إلى واحد منها ؟

قلت : أما أبو حنيفة فإنه يقول : الآية قصر لجنس الصدقات على الأصناف للمدودة
فهي مختصة بها لا تتجاوزها إلى غيرها ، كأنه تعالى قال : إنما هي لهم لا لغيرهم ، كقولك :
إنما الخلافة قرشي ، فيجوز أن تصرف الصدقة إلى الأصناف كلها ، ويجوز أن تصرف
إلى بعضها ، وهو مذهب ابن عباس وحديفة وجماعة من الصحابة والتابعين . وأما
الشافعي فلا يرى صرحا إلا إلى الأصناف للمدودة كلها ، وبه قال الرُّمَهرى وعكرمة .
فإن قلت : فمن العارم وابن السبيل ؟

قلت : العارمون الذين ركبهم الذبون ولا يملكون مدتها ما يبيع النصاب . وقيل :
هم الذين يحملون الحملات فديسوا فيها وعزموا ، وابن السبيل : المسافر المنقطع عن ماله ،
فهو - وإن كان غنيا حيث ماله موجود - فقير حيث هو بسدد .

وقد سبق تفسير الفقير والمكِين فيما تقدم .

قوله : « فقد أحل بنفسه الذل والخزى » ، أي حمل نفسه محلا لها ، ويرى : « فقد
أحل بنفسه » بالخاء المعجمة ، ولم يذكر الذل والخزى أي حمل نفسه محلا ، ومعناه حمل نفسه
فقيرا ، يقال : خل الرجل : إذا افتقر ، وأحل به غيره ، ونفيره أي جعل ، غيره فقيرا ،
وروى : « أحل » بنفسه بالخاء المعجمة ، ولم يذكر « الذل والخزى » . ومعنى « أحل بنفسه » أباح
دمه ، والرواية الأولى أصح ، لأنه قل بعدها : « وهو في الآخرة أدل وأخرى » .

وخيانة الأئمة : مصدر مُصاف إلى المفعول به ، لأن الساعى إذا خان فقد خان الأئمة
كلها ؛ وكذلك عَشَّ الأئمة ، مصدر مُصاف إلى المفعول أيضا ؛ لأن الساعى إذا عَشَّ في
الصدقة فقد عَشَّ الإمام .

(٢٧)

الأصل :

ومن عهدله عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر - رضى الله عنه - حين قلده مصر :

فَاخْفِضْ لَهُمْ حَسَاحَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ حَايِكَ ، وَأَسْطِطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَآسِ بَيْنَهُمْ
فِي اللَّحْطَةِ وَالنُّطْرَةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَحَ الْمُطْعَمُ فِي حَبِيكَ لَهُمْ ، وَلَا يَيْئَسَ الصُّعْفَاءُ مِنْ
عَذْلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَايِعُكُمْ مَعَشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصُّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ
وَالْكَبِيرَةِ ، وَالطَّاهِرَةِ وَالْمُسْتَوْرَةِ ، فَبِئْسَ بُعْدُ قَائِمِ أَطْلَمُ ؛ وَإِنْ يَعَفْ
فَهُوَ أَكْرَمُ .

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ لِلدُّعَاةِ دَهْبُوا بِحِجَابِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ ، فَشَارَكُوا أَهْلَ
الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ ؛ سَكُّوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ
مَا سَكَّتْ ، وَأَكَلُوا بِأَفْضَلِ مَا أَكَلَتْ ، فَحَطُّوا مِنَ الدُّنْيَا عَمَّا حَقَّ بِهَا
الْمُتَرَفُّونَ ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَّارَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ؛ ثُمَّ انْقَسَوْا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبْتَغِ
وَالْمُتَحَرِّ الرَّاسِخِ ؛ أَصَابُوا لَذَّةَ رُحْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَبَقُوا أُنْهَمُ حَيْرَانُ اللَّهِ عَدَا
فِي آخِرَتِهِمْ ، لَا تَرُدُّ لَهُمْ دَعْوَةً ، وَلَا يَنْقُضُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ .

فَاخْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ لِلْمَوْتِ وَقُرْبِهِ ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرِ عَظِيمٍ ،
وَيُخَاطَبُ جَبَلٌ ؛ يَحْبِرُ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَدْنَى ؛ أَوْ شَرٌّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَدْنَى ،
فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا ؛ وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا ؛

وَأَنْتُمْ طُرْدَةُ الْمَوْتِ ؛ إِنْ أَقْسَمْتُ لَهُ أَحَدَكُمْ ، وَإِنْ قَرَزْتُمْ مِنْهُ أَدْرَاكُمْ ،
وَهُوَ الزَّمُّ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ . الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِمَوَاصِيكُمْ ؛ وَالْدُّنْيَا تَطْلُو مِنْ خَلْيِكُمْ .

فَاخْذَرُوا نَارًا قَرَرَهَا تَعِيدُ ، وَحَرَّهَا شَدِيدٌ ، وَعَدَابُهَا جَدِيدٌ ؛ دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ ، وَلَا تُفْرَجُ فِيهَا كَرْمَةٌ .

وَإِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ حَوْفُكُمْ مِنْ اللَّهِ ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ ، فَاجْتَمِعُوا بَيْنَهُمَا ؛ فَإِنَّ الْمَدَدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّ رَبِّهِ عَلَى قَدَرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَإِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ ظَنًّا بِاللَّهِ أَشَدَّهُمْ خَوْفًا يَتَّبِعُونَ .

وَأَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ، أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَكْثَرَ أَحْبَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرٍ ، فَأَنْتَ تَخْشَوْهُ أَنْ تُجَاوِبَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَأَنْ تُتَوَاضَعَ عَنْ دِيْبِكَ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ ، وَلَا تُسْخِطَ اللَّهُ بِرِصَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ؛ فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْقًا مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ حَلْفٌ فِي غَيْرِهِ .

حَلَّ الصَّلَاةَ لَوَقْتِهَا السُّؤَالُ لَهَا ، وَلَا تَعْمَلْ وَقْتُهَا لِفَرَاجٍ ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِهَالٍ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَسَعُّ لِعَصَلَاتِكَ .

الشرح :

آسِ بِهِمْ : احْتَمَلِهِمْ أَسْوَةً ، لَا تَفْصَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ ، وَبِهِ بِذَلِكَ عَلَى وَحُوبٍ أَنْ يَجْعَلَهُمْ أَسْوَةً فِي جَمِيعِ مَا عَادَا ذَلِكَ ، مِنَ الْعَطَاءِ وَالْإِنْعَامِ وَالتَّقَرُّبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمْ أُفٍّ ﴾ (١) .

قوله : « حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعِظَاءُ فِي حَيْمَتِكَ لَهُمْ » ، الضمير في « لَهُمْ » راجعٌ إِلَى الرعية لَا إِلَى الْعِظَاءِ ، وَقَدْ كَانَ سَبْقُ ذِكْرِهِمْ فِي أَوَّلِ الْخُطْبَةِ ، أَيْ إِذَا سَلَكْتَ هَذَا الْمَسْلَكَ لَمْ يَطْمَعَ الْعِظَاءُ فِي أَنْ تَحْيِفَ عَلَى الرعية وَتَطْلُبَهُمْ وَتَدْفَعَ أَمْوَالَهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّ وِلَاةَ الْجَوْرِ

هكذا يفعلون ، يأخذون مال هذا فيعطونه هذا ، ويمحزون أن يرجع الضير إلى العطاء ، أى حتى لا يطمع العطاء في جورك في القسم الذى إنما عمله لم ولأحلمهم ، فإن ولاية الجور يطمع العطاء فيهم أن يجمعوا في القسم فى التى ، ويحالفوا ماحده الله تعالى فيها ، حفظا لقولهم ، واستماله لهم ، وهذا التفسير أليق بأخطئة ؛ لأن الضير فى « عليهم » فى الفقرة الثالثة عائد إلى الصفاء ؛ فيجب أن يكون الضير فى « لهم » فى الفقرة الثانية عائدا إلى العطاء .

قوله : « فإن يمدب فأنهم أظلم » أعمل هاها معنى الصمة ، لا معنى التفضيل ، وإنما يراد فأنهم الطالون ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَنِّي ﴾ ^(١) . وكقولهم : الله أكبر . ثم ذكر حال الزهاد فقال : أحلوا من الدين سبيبه قوى ، وحملت لهم الآخرة ؛ ويروى أن العُصيل بن عياض كان هو رفيق له في بعض الصحارى ، فأكلا كرة ياسة ، واعتزقا بأيديهما ماء من بعض العذران ، وقام العُصيل لخط رحليه في الماء ، فوجد برده ، فالتذبه وبالخال التى هو فيها ، فقال لرفيقه : لو علم الملوك وأنا الملوك ما نحن فيه من العيش واللذة لحسدونا .

وروى : « والمتجبر المريح » ، فالراجح فاعل من ربح ربحا ، يقال : بيع راجح أى يُربح فيه ، والمريح : اسم فاعل قد عدى ماضيه بالهجرة ، كقولك : قام وأقته .

قوله : « جيران الله غداً فى آخرتهم » ؛ ظاهر اللفظ غير مراد ، لأن البارئ تعالى ليس فى مكان وجهة ليكونوا حيرانه ، ولكن لما كان الجار يُكرم جاره ستمام جيران الله ، لإكرامه إيتامه ، وأيضاً فإن الجنة إذا كانت فى السماء والعرش هو السماء العليا ، كان فى الكلام مخوف مقدّر ، أى جيران عرش الله غداً .

قوله : « فإِنَّه يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَخُطْبٍ جَلِيلٍ ، بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَدًا وَشَرٌّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَدًا » ، نصٌّ صريحٌ في مذهب أصحابنا في الوعيد ، وأنَّ من دخل النار من جميع المكلفين فليس يخرج ، لأنه لو خرج منها لكان الموت قد جاءه بشرٍّ معه خير ، وقد تنبأ نبيًّا عامًا أن يكون مع الشرِّ للعقب الموت خير الأبدية .

قوله : « من عاملها » ، أي من العامل لها .

قوله : « طُرْدَاءُ الْمَوْتِ » ، جمع طَرِيد ، أي يطردكم عن أوطانكم ويخرجكم منها ، لا بدَّ من ذلك ، إِنْ أَقْتَمْتُمْ أَخَذَكُمْ ، وَإِنْ هَرَبْتُمْ أَهْرَبَكُمْ .

وقال الراوندي : طُرْدَاءُ هَاهُنَا : جمع طَرِيْدَةٌ وهي ما طردت من الصيد أو الوسيقة^(١) ، وليس بصحيح ، لأنَّ « فصيحة » بالتأنيث لا تجتمع على فملاء . وقال النحويون : إنَّ قوله تعالى : ﴿ وَتَجْمَعُكُمْ خُلَفَاءُ الْأَرْضِ ﴾^(٢) جاء على « خليف » لا على « خليفة » ، وأنشدوا لأوس بن حجر بيتًا ، استعملها جميعًا فيه ، وهو :

إِنَّ مِنَ الْقَوْمِ مَوْجُودًا خَلِيفَتَهُ وَمَا خَلِيفُ أَبِي كَيْلٍ بِمَوْجُودٍ^(٣)

قوله : « أَلَزِمَ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ » ، لأنَّ الظلَّ لا تصحُّ مفارقتُه لذي الظلِّ مادام في الشمس ، وهذا من الأمثال المشهورة .

قوله : « مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ » ، أي ملازمٌ لكم ، كالشيء المَعْقُودُ بنَاصِيَةِ الْإِنْسَانِ أَيْنَ ذَهَبَ ذَهَبَ مَعَهُ .

وقال الراوندي : أي الموت غالبٌ عليكم ، قال تعالى : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾^(٤) ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أُخِذَ بِنَاصِيَتِهِ لَا يُمْكِنُ الْخَلَّاصُ ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ : « أَخَذَ بِنَوَاصِيكُمْ » .

قوله : « وَالْدُنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ » من كلام بعض الحكماء : الموتُ والناسُ كسطورٍ

(١) الوسيقة : الجماعة من الإبل ، إذا سوقت طردت سبًا .

(٢) سورة النمل ٦٢ .

(٣) ديوانه ٢٥ ، وروايته : « وما خليف أبي وهب » .

(٤) سورة الرحمن ٢٦ .

في صحيفة يقرؤها قارئاً ويطوى ما يقرأ ، فكلما ظهر سطرٌ خفي سطر .

ثم أمره عليه السلام بأن يجمع بين حسن الظن بالله وبين الخوف منه ، وهذا مقامٌ جليل لا يصل إليه إلا كلُّ ضامِرٍ مهزول ، وقد تقدم كلامنا فيه . وقال علي بن الحسين عليه السلام : لو أنزل الله عز وجل كتاباً أنه معذب رحلاً واحداً لرجوت أن أكونه ، وأنه راحمٌ رجلاً واحداً لرجوت أن أكونه ، أو أنه معذبي لأحالة ما أردت إلا أجتهداً ثلثاً أرجع إلى نفسي بلائمة .

ثم قال : « وَلَيْتَكَ أَعْظَمَ أَجَادِي » ، يقال للأقاليم والأطراف : أحناد ، تقول : وَلِيَ جُندَ الشام ، وَلِيَ جُندَ الأرْدُنِّ ، وولى جند مصر .

قوله : « فأت محفوق » ، كقولك حقيق وجدير وحليق ، قال الشاعر :

وَإِنِّي لَمُحْمُونٌ نَاتِلًا يَطُولُ لَحْلُ نَدَاهُ بِإِدَاعِ طَاوُلَتِهِ بِالْقَصَائِدِ
وَتُفَاحٍ : تَحَالِدٌ ، نَاحَتْ بِالسَّيْمَةِ أَيْ حَاصِمَتْ بِهِ .

قوله : « ولو لم يكن إلا ساعة من النهار » ، المراد تأكيد الوصاة عليه أن يخالف على نفسه ، وألا يتبع هواها ، وأن يحاصم عن دبه ، وأن ذلك لازمٌ له ، وواحبٌ عليه ، ويلزم أن يفعله دائماً فإن لم يستطع فليفعله ولو ساعة من النهار ، ويبغى أن يكون هذا التقييد مصروحاً إلى المناخة عن الدَّيْرِ ، لأن الحَصَامَ في الدَّيْنِ قد يَمْنَعُهُ عَنْهُ مَانِعٌ ، فأما أمره إياه أن يخالف على نفسه فلا يحور صرفُ التقييد إليه ، لأنه يُشِيرُ بأنه مفسوخٌ له أن يتبع هَوَى نفسه في بعض الحالات ، وذلك غيرُ حائر ، بخلاف التخاصمة والتَّضَالُعِ عن المعتقد .

قال : « وَلَا تُسَخِّطِ اللَّهَ بِرِصَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ » ، فإن في الله خلقاً من غيره ، وليس من الله حلفٌ في غيره ، أَخَذَهُ أَحْسَنُ الْبَصَرِيِّ فَقَالَ لِعَمْرِ بْنِ هُبَيْرَةَ

أمير العراق : إِنْ الله مَا نَعُكَ مِنْ يَزِيدَ ، وَلَمْ يَمْنَعَكَ يَزِيدُ مِنْ الله - يعني يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ .

ثم أَمَرَهُ أَنْ يَصِلَى الصَّلَاةَ لَوَقْتُهَا ؛ أَيْ فِي وَقْتُهَا ، وَنَهَاهُ أَنْ يَحْمِلَهُ الْفَرَاغُ مِنَ الشَّغْلِ عَلَى أَنْ يُعْطِلَهَا قَبْلَ وَقْتُهَا ، فَإِنَّهَا تَكُونُ غَيْرَ مَقْبُولَةٍ ، أَوْ أَنْ يَحْمِلَهُ الشَّغْلُ عَلَى تَأْخِيرِهَا عَنْ وَقْتُهَا فَيَأْتِيَهُمْ .

وَمِنْ كَلَامِ هِشَامِ بْنِ عَقِبَةَ أَخِي ذِي الرُّمَّةِ - وَكَانَ مِنْ عَقَلَاءِ الرَّجَالِ - قَالَ لِلْبَرْدِ فِي الْكَامِلِ : حَدَّثَنِي الْعَبَّاسُ بْنُ الْفَرَّاحِ الرَّيَّاشِيُّ بِإِسْنَادِهِ ، قَالَ هِشَامُ لِرَجُلٍ أَرَادَ سَمْعًا : اعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ رُقُقَةٍ كُنَّا يَشْرِيهِمْ فِي فَصْلِ الرَّادِ ، وَيَهْرِيهِمْ دُونَهُمْ ، فَإِنْ قَدَرْتَ إِلَّا تَكُونُ كَلْبَ الرُّقُقَةِ فَأَقْعِلْ ، وَإِيَّاكَ وَتَأْخِيرَ الصَّلَاةِ عَنْ وَقْتُهَا ، فَإِنَّكَ مُصَلِّيٌهَا لَا مُحَالَةَ ، فَصَلِّهَا وَهِيَ تُقَلِّ مَعَكَ ^(١) .

قَوْلُهُ : « وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ كَيْفَ لَصَلَاتِكَ » ، فِيهِ شَيْءٌ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « الصَّلَاةُ عِمْدُ الْإِيمَانِ » ، وَمِنْ تَرْكِهَا قَدْ هَدَمَ الْإِيمَانَ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « أَوَّلُ مَا يَحْسَبُ بِهِ الْعَبْدُ صَلَاتِهِ ، فَإِنْ شُهِلَ عَلَيْهِ كَانَ مَا بَعْدَهُ أَسْهَلَ ، وَإِنْ اشْتَدَّ عَلَيْهِ كَانَ مَا بَعْدَهُ أَشَدَّ » .

وَمِثْلُ قَوْلِهِ : « وَلَا تُسْخِطِ اللَّهَ بِرِصَا أَحَدٍ مِنْ حَقِّهِ » ، مَارَوَاهُ الْمُبَرِّدُ فِي " الْكَامِلِ " عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : مَنْ أَرْضَى اللَّهَ يَسْخِطِ النَّاسَ كِفَاءَ اللَّهِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ يَسْخِطِ اللَّهَ وَكَوَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ .

وَمِثْلُ هَذَا مَارَوَاهُ الْمُبَرِّدُ أَيْضًا قَالَ : لَمَّا وُلِّيَ الْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بْنُ الْحَسَنِ الْمَدِينَةَ قَالَ لِابْنِ هَرْمَةَ : إِنِّي لَسْتُ كَمَنْ بَاعَ لَكَ دِينَهُ رِجَاءَ مَدْحِكَ ، أَوْ خَوْفَ ذَمِّكَ ، فَتُذَرِّقُنِي ^(٢)

(١) الْكَامِلُ : « بِإِسْنَادِهِ » .

(٢) الْكَامِلُ ١ - ٢٦٣ .

(٣) الْكَامِلُ : قَدْ أَفْلَدَنِي اللَّهُ بِوَلَادَةِ نَبِيِّهِ الْمَدْحِ » .

الله عز وجل بولادة نبيه صلى الله عليه وآله المادح ، وجنبني المقام ، وإن من حقه على
 ألا أغضى على تقصير في حق الله . وأنا أقسم بالله ، لئن أتيت بك سكران لأضربك حداً
 بالخمر ، وحداً للسكر ، ولأزيدن لموضع حرمتك بي ، فليكن تركك لها لله عز وجل
 تمن^(١) عليه ، ولا تدعها للناس هوكل إليهم ، فقال ابن هرمة^(٢) :

نهاني ابن الرسول عن المدام وأدبني مآداب الكرام
 وقال لي اصطبِرْ عنها ودعها غلوفِ الله لا خوفِ الأمام
 وكيف تصبِرِي عنها وحبِّي لها حبٌّ تمكُن في عظامي
 أرى طيب الحلال على حشا وطيب النفس في خبث الحرام^(٣)

(١) كذا في ١ والكامل ، وفي ب : « تمز » .

(٢) الكامل : « فنهض ابن هرمة وهو يقول » .

(٣) الكامل ١ : ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الأحفل :

ومن هذا العهد :

قَالَهُ لَا سَوَاءَ ، إِمَامُ الْهَدَى وَإِمَامُ الرَّدَى ، وَوَلِيُّ السَّيِّئِ وَعَدُوُّ النَّبِيِّ ؛ وَلَقَدْ
قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنْ لَا أَحَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِنًا وَلَا مُشْرِكًا ؛
أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَسْتَعِثُّهُ اللَّهُ بِإِيمَانِهِ ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْتَعُهُ اللَّهُ بِشُرْكَهِ ، وَلَكِنْ
أَحَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقٍ أَتَجَانِرُ ، عَالِمِ اللِّسَانِ ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ ،
وَيَعْمَلُ مَا تُسْكِرُونَ

الشرح :

الإشارة بإمام الهدى إليه عليه ، وبإمام الردى إلى معاوية ، وسماه إماما ، كما سَمَّى
الله تعالى أهل الصلال أئمة ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى السَّارِ ﴾ ^(١) ثم وصفه
بصفة أخرى وهو أنه عدو النبي صلى الله عليه وآله ليس بمعنى بذلك أنه كان عدوا أيام حرب
النبي صلى الله عليه وآله لقريش ، بل يريد أنه الآن عدو النبي صلى الله عليه وآله ، لقوله
صلى الله عليه وآله له عليه السلام : « وعدوك عدوى ، وعدوى عدو الله » . وأول الخبر : « ولئيك
ولئى ، وولئى ولي الله » ، وتمايمه مشهور ، ولأن دلائل النفاق كانت ظاهرة عليه من فلتات لسانه
ومن أفعاله ، وقد قال أصحابنا في هذا المعنى أشياء كثيرة ، فتطلب من كتبهم ، خصوصا

من كُتُب شيخنا أبي عبد الله ، ومن كتب الشيخين أبي جعفر الإسكافي ، وأبي القاسم البلخي ، وقد ذكرنا بعض ذلك فيما تقدم .

ثم قال عليه السلام : « إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ : إني لا أخاف على أمتي مؤمنًا ولا مُشركًا » أي ولا مُشركًا يُظهر الشُّرك ، قال : لأن المؤمنين يَمْنَعُهُمُ اللَّهُ بِإِيمَانِهِ أَنْ يُضِلَّ النَّاسَ . والمُشرك مُظهِر الشُّرك ، يَقْنَعُهُ اللَّهُ بِظَهَارِ شُرْكَهِ وَيَحْذُلُهُ ، وَيَصْرِفُ قُلُوبَ النَّاسِ عَنْ اتِّبَاعِهِ ، لِأَنَّهُمْ يَنْفِرُونَ مِنْهُ لِإِظْهَارِهِ كَلِمَةَ الْكُفْرِ ، فَلَا تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ إِلَيْهِ ، وَلَا تَسْكُنُ مَوَسِمُهُمْ إِلَى مَقَالَتِهِ ، وَلَكِنِّي أَحَدٌ عَلَى أُمَّتِي الْمَافِقَ الَّذِي يُسِرُّ الْكُمَرِ وَالضَّلَالِ ، وَيُظْهِرُ الْإِيمَانَ وَالْأَفْعَالَ الصَّالِحَةَ ، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ ذَا لَسَنٍ وَفَصَاحَةٍ ، يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا تَعْرِفُونَ صَوَانَهُ ، وَيَفْعَلُ سِرًّا مَا تُكْرِهُونَ لَوْ أَطْلَعْتُمْ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ هَذِهِ صِغَتُهُ تَكُنْ نَفْسُ النَّاسِ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ فَيَقْلُدُهُ النَّاسُ ، فَيَصِلَتُهُمْ وَيُوقَعُهُمْ فِي الْمَقَاسِدِ .

[كتاب المعتضد بالله]

ومن الكتب المستحقة الكتاب الذي كتبه المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله في سنة أربع وثمانين ومائتين ووريره حينئذ عبيد الله بن سليمان ، وأنا أدكره مختصراً من تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

قال أبو جعفر : وفي ^(١) هذه السنة عَرَّم المعتضد على لمن معاوية بن أبي سفيان على المنابر ، وأمر بإشاعة كتاب يقرأ على الناس ، ، خوفاً من عبيد الله بن سليمان اضطراب العامة ،

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢١٦٤ و٢١٦٥ .

وأنه لا يأمن أن تكون فتنة ، فلم يلتفت إليه . فكان أول شيء بدأ به المعتصم من ذلك التقدم^(١) إلى العامة بلزوم أعمالهم ، وترك الاجتماع والعصبة^(٢) ، [والشهادات عند السلطان إلا أن يسألوا]^(٣) ، ومنع^(٤) القصاص عن القعود على الطرقات ، وأنشأ هذا الكتاب وعملت به نسخ قرئت بالخانين من مدينة السلام في الأربعاء والخميس والأسواق يوم الأربعاء لستة بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، ثم منع يوم الجمعة لأربع بقين منه ، ومنع القصاص من القعود في الجاهين ، ومنع أهل الخلق من القعود في المسجدين ، ونودي في المسجد الجامع سبي الناس عن الاجتماع وغيره ومنع القصاص وأهل الخلق من القعود ، ونودي : إن الذمة قد برئت من اجتماع من الناس في ساطرة أو حدال ، وتقدم إلى الشراب الذين يسقون الماء في الجامعين ألا يترحموا على معاوية ، ولا يذكروه [بحير]^(٥) ، وكانت عادتهم جارية بالترحم عليه ، وتحدث الناس أن الكتاب الذي قد أمر المعتصم بإشائه بأمر معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر ، فما صلى الناس ما دروا إلى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب ، فلم يقرأ : وقيل : إن عبيد الله بن سليمان صرفه عن قراءته ، وإنه أحضر يوسف بن يعقوب القاضي ، وأمره أن يعمل الحيلة في إبطال ما عزم المعتصم عليه ، ففنى يوسف فكلم المعتصم في ذلك ، وقال له : إن أخاف أن تعطرب العامة ، ويكون معها عند سماعها هذا الكتاب حركة ، فقال : إن تحركت العامة أو نطقت وصفت السيف فيها . فقال : يا أمير المؤمنين ، فما نصنع بالطالبين الذين يخرجون في كل ناحية ، ويميل إليهم خلق كثير ، لقربتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وما في هذا الكتاب من إطرائهم - أو كما قال - وإذا سمع الدس هذا كانوا إليهم أميل ، وكانوا هم أبسط

(٢) الطبري : « القضية » .

(٤) الطبري : « ومنع » .

(١) الطبري : « الأمر بالتقدم » .

(٣) من الطبري .

السنة ، وأثبت حجة منهم اليوم . فأمسك للعتصم فلم يرد إليه جواباً ، ولم يأمر بعد ذلك في الكتاب بشيء . وكان من جملة الكتاب بعد أن قدم حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله الله صلى الله عليه وآله :

أما بعد ، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعة العامة من شبهة قد دخلتهم في أديانهم ، وفساد قد لحقهم في معتقدهم ، وعصبية قد غلبت عليها أهواؤهم ، وطلقت بها ألسنتهم ، على غير معرفه ولا روية ، قد قلدوا فيها قادة الصلاة بلا بينة ولا بصيرة ، وخالفوا السنن للبيعة ، إلى الأهواء المتبدعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِمِثْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ^(١) 》 . خروجا عن الجماعة ، ومسارة إلى العتنة ، وإشاراً للفرقة ، وتشبهاً للكفرة ، وإظهاراً لمخالفة من قطع الله عنه الموالاة ، وبتر منه العصمة ، وأخرجه من المسلة لأوجب عليه اللعنة ، وتعظيماً لمن صهر الله حقه ، وأوهن أمره ، وأضعف ركنه ، ومن بني أمية ، الشجرة لللعنة ، ومحالفة لمن استنقذهم الله به من الهلكة ، وأسبغ عليهم به العمة من أهل بيت البركة والرحمة ، ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ^(٢) 》 .

فأعظم أمير المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك ؛ ورأى ^(٣) ترك إسكاره حرّاج عليه في الدين ، وفساداً لمن قلده الله أمره من المسلمين ، وإملاً لما أوجب الله عليه من تقوم الخالفين ، وتبصير الجاهلين ، وإقامة الحجّة على الشاكّين ، وسط اليد على المعاندين ^(٤) ! وأمير المؤمنين يخبركم معاشر المسلمين أن الله حلّ تناؤه لما ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بدينه ، وأمره أن يصدّع بأمره ، بدأ بأهله وعشيرته فدعاهم إلى دينه ، وأبذرهم وبشرهم ،

(٢) سورة البقرة ١٠٥ .
(٤) الطبري : « الماندين » .

(١) سورة القصص ٥٠ .
(٣) الطبري : « ترك » .

ونصح لهم وأرشدهم ، فكان من استجاب له ، وصدق قوله ، واتبع أمره ^(١) نفيهم من بني أبيه ، من بين مؤمن بما أتى به من ربه ، وناصر لكلمته وإن لم يتبع دينه إعزازاً له ، وإشفاقاً عليه ، فثمنهم مجاهد يبصرت به ، وكافرهم مجاهد بنصرت به وحيته ، يدافعون من نابله ، ويقهرون من عارّه وعائده ، ويتوثقون له ممن كانفه وعاصده ، ويبايعون من سمح بنصرت به ، ويتجسسون أخبار أعدائه ، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأى العين ، حتى بلغ للدي ، وحان وقت الاهتدا ، فدخلوا في دين الله وطاعته وتصديق رسوله والإيمان به ثابت بصيرة ، وأحسن هدى ورعة ، فجمعهم الله أهل بيت الرحمة ، وأهل بيت الدين ، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . معدن الحكمة ، وورثة النبوة ، وموضع الخلافة . أوحى الله لهم لعصمة ، وألزم الصادق لهم الطاعة .

وكان ممن عانده وكذبه وحاربهم من عشرين ألفاً العدد الكثير والسواد الأعظم ، يتلقونه بالصرر والتثريب ^(٢) ، ويقصدونه بالأذى والتخويف ، ويبادونهم بالعداوة ، وينصبون له الحاربة ريصدون من قصده ، ويثألون بالعذيب من أنعه ، وكان أشدهم في ذلك عداوة ، وأعظمهم له محالفة ، أولم في كل حرب ومناصبة ، ورأسهم في كل إجلاب وقتة ، لا يرفع على الإسلام راية إلا كان صاحبها وقائدها ورئيسها ؛ أبا سفيان بن حرب صاحب أحد والحدق وغيرها ، وأشياعه من بني أمية لمعين في كتاب الله ، ثم للمعويين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله في مواطن عدة ، لسابق علم الله فيهم ، وماضي حكمهم في أمرهم ، وكفرهم ونفاقهم . فلم يزل الله يهزمهم ويهزمهم ، ويدافع مكابداً ، ويحلب مابداً ، حتى قهره السيف ، وعلا أمر الله وهم كارهون ، فتعوز بالإسلام غير منطوي عليه ، وأسر الكفر غير مقلع عنه ، فضله وقبل ولده على علم منه بحاله وحالهم . ثم أنزل الله

(١) الطبري : « نهر » .

(٢) التثريب : « التناوب واللوم » .

تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله يذكر فيه شأنهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَالشَّجَرَةُ الْمُنْعُوتَةُ فِي الْقُرْآنِ ﴾ ^(١) ، ولا خلاف بين أحد في أنه تعالى وتبارك أراد بها بنى أمية .
ومما ورد من ذلك في السنة ، ورواه ثقات الأئمة ، قول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه وقد رآه مقبلاً على حمار ومعاوية يقوده ، ويزيد يسوقه ^(٢) : « لمن الله الراكب والقائد والسائق » .

ومنه ما روته الرواة عنه من قوله يوم بيعة عثمان : تلقفوها يا بنى عبد شمس تلقف الكفرة ، فوالله ما من حنة ولا نار ؛ وهذا كمر صراح يلحقه اللعة من الله كما لحقت الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتلون .

ومنه ما يروى من وقوعه على ثنية أسعد من بعد ذهاب نصره وقوله لقائمه : هاها رسيما محمدا وقتلنا أصحابه .

ومنها الكلمة التي قالها للعباس قبل الفتح وقد عرّضت عليه الجنود : لقد أصبح ملك ابن أهلك عظيماً ، فقال له العباس : ويحك ! إنه ليس بملك ، إنها النوبة .
ومنها قوله يوم الفتح وقد رأى بلالا على ظهر الكعبة يؤذن ويقول : أشهد أن محمداً رسول الله : لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد .

ومنه الرؤيا التي رآها رسول الله صلى الله عليه وآله فوحى لها . قالوا : فما رأت بعدها صاحبك ^(٣) ؛ رأى نقرأ من بنى أمية يَمْرُون ^(٤) على منبره روة القردة .
ومنها طرد رسول الله صلى الله عليه وآله الحَكَم بن أبي العاص لحما كاته إياه في

(٢) الصري « يسوق به » .

(١) سورة الإسراء ٦٠ .

(٣) بعدها في الطبري : فأنزل الله : ﴿ وَمَا حَمَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ .

(٤) يَمْرُون : يثبون ويعدون .

مُشَبَّهة ، وألحقه الله بدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله آفةً باقيةً حين التفت إليه فرآه يتخلج بحكيه ، فقال : « كن كما أنت » ، فبقى على ذلك سائر عمره .

هذا إلى ما كان من مروان ابنه في افتتاحه أول فتنه كانت في الإسلام ، واحتقابه ^(١) كل حرام سُمِعَ فيها أو أريق بعدها .

ومنها ما أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وآله ليلة القدر ، خيرٌ من ألف شهرٍ قالوا : ملك بنى أمية .

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا معاوية ليكتب بين يديه ، فدافع بأمره واعتل بطعامه ؛ فقال صلى الله عليه وآله : « لا أشبع الله بطنه » . فبقى لا يشبع وهو يقول : والله ما أترك الطعام شعماً ، ولكن إعياء !

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يطلع من هذا الفج رجل من أمتي يُحشَرُ على غير ملق » ؛ فطلع معاوية .

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إذا رأيتم معاوية على مبرى فاقطوه » . ومنها الحديث المشهور المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال : « إن معاوية في تابوت من نار ، في أسفل دَرَك من حَمَم ، ينادي : يا حنَّان يا مَنَّان . فيقال له : ﴿ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ^(٢) » .

ومنها أفترأوه بالمخاربة لأفصل المسلمين في الإسلام مكأباً ، وأقدمهم إليه سقاً ، وأحسنهم فيه أثراً وذِكْراً ، على بر أبي طالب ، يباذعه حقه بباطله ، ويجاهد أنصاره بصلا له وأعوانه ، ويحاول عالم يزل هو وأبوه يحاولانه ، من إطفاء نور الله ، وجعود دينه

(١) يقال : احطب فلان الإثم ؛ إذا ارتكبه .

(٢) سورة يونس ٩١ .

﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيمَ نَوْمَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١) ؛ ويستهيى أهل الجلالة ،
 ويموء لأهل العباوة بمكرهه وبعبه اللذين قدّم رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر عنهما ،
 فقال لعمار بن ياسر : « تفتلك الفئة الباغية » ؛ تدعوم إلى الجنة ويدعونك إلى النار ،
 مؤثرا للعاجلة ، كافرا بالآجلة ؛ حارجا من رتبة^(٢) الإسلام ، مستحلا للدم الحرام ؛
 حتى سبك في فتنه ، وعلى سبيل عوايته وصلاته مالا يحصى عدده من أحيار المسلمين ،
 الذائبين عن دين الله والناصرين لحقه ، محاهدان عداوة الله ، محتدبان في أن يعصى الله
 فلا يطاع ، وتبطل أحكامه فلا تقام ، ويخالف دبه . فلا بد وأن تلو كلمة الصلال
 وترفع دعوة الباطل ، وكلمة الله هي العليا ، ودبه المصور ، وحكمه الافرذ ، وأمره الغالب
 وكيد من عاداه وحاده المفلون الداحص ؛ حتى يحتفل أودار تلك الحروب وما تمها ،
 وتطوق تلك الدماء وما سبك بعدها ، وسن سنن الصيام التي عليه إيمانهم من عمل بها ،
 وأباح المحارم لمن ارتكبها ، ومنع المحقوق أهلها ، وغرته الآمال ، واستدرجه الإمهال .
 وكان مما أوجب الله عليه ه اللعنة قتله من قتل صبورا^(٣) من حيار الصحابة
 والتابعين ، وأهل الفضل والدين ، مثل عمرو بن الحمق الخراعى وحجر بن عدى
 الكندى ، فيمن قتل من أمثالم ، على أن تكون له العزة والملك والعبة ، ثم ادعوا مزيا
 ابن سمية أبا ، ونسبته إياه إلى أبيه ، والله تعالى يقول : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ
 عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٤) ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ملعون من ادعى إلى غير أبيه ،
 أو انتهى إلى غير مواليه » . وقال : « الولد لفرش وللماهر المحر » ، تخالف حكم الله تعالى
 ورسوله جهاراً ، وجعل الولد لغير الفرائش والمحر لغير الماهر ، فأحل بهذه الدعوة من
 محارم الله ورسوله في أم حبيبة أم المؤمنين وفي غيرها من النساء من شعور ووجوه قد

(٢) الرقة : الواحدة من العرى التي في الحمل .

(٤) سورة الأحزاب .

(١) سورة التوبة ٣٢ .

(٣) صبوا ، أى حباً .

حرّمها الله وأثبت بها من قرّبي قد أمدّها الله ، ما لم يدخل الدّين خللاً مثله ، ولم ينل الإسلام تبديلاً يشبهه .

ومن ذلك إشارته لخلافة الله على عباده الله يزيد السّكبر الخبير صاحب الدّبكة واليهود والقرّة ، وأخذ النّعمة له على حيار المسلمين بالمهر والسّطوة والتّوعد والإخافة ، والتهديد والرّغبة ، وهو يعلم سقمه ، ويطلع على رفقته وخفيه ؛ ويؤمن سكراته وفعلاته ، وغجوره وكفره . فما تمكّن - قاتله الله - فيما تمكّن منه ، طلب بشارات للشركين وطوارئهم عند المسلمين ، فأوقع بأهل المدينة في وقعة الحرّة الواقعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أخش ، فشغى عند نفسه غليله ؛ وظنّ أنه قد انتقم من أولياء الله ، وبلغ النار لأعداء الله ؛ فقال محامراً مكفّره ، ومظهراً لشرّكه :

لَيْتَ أَشْيَاحِي سَذَرِ [أَشْهَلُوا] جَرَعَ الْخُرُوجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ^(١)
قَوْلُ^(٢) مَنْ لَا يَرْحَمُ إِلَى اللَّهِ وَلَا إِلَى دِينِهِ وَلَا إِلَى رَسُولِهِ وَلَا إِلَى كِتَابِهِ ، وَلَا يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ .

ثم أغلظ ما انتهك ، وأعظم ما اجترم ، سفكه دمّ الحسين بن عليّ عليه السلام ، مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه ومنزله من الدّين والفصل والشهادة له ولأخيه سيادة شباب أهل الحمة ؛ احتراء على الله ، وكفراً بدينه ، وعداوة لرسوله ، ومجاهرة لعنته ، واستهانة لحرمته ، كأنما يقتل منه ومن أهل بيته قوماً من كفرة التّرك

(١) لصداقة من الرّبهرى ، من كلّه يوم أحد ، سيرة ابن هشام ٣ : ٩٦ وبعده في الطبري :

قَدْ قَتَلْنَا الْقَوْمَ مِنْ سَادَاتِكُمْ وَعَدَلْنَا مَبِيلَ نَذْرِ فَأَعْتَدَلْ
فَاهْبُلُوا وَاسْتَهْلُوا فَرْحاً نَمَّ قَالُوا يَا بَرِيدُ لَا تَكُنْ
لَسْتُ مِنْ خِدِفٍ إِنْ لَمْ أُنْقِمِ مِنْ بَنِي أَحْمَدَ مَا كَانَ فَعَلْ
لَمَسْتُ هَاشِمٍ بِالْمَلِكِ فَلَا خَيْرَ جَاءَ وَلَا وَخِي نَزَلْ

(٢) الطبري : هنا هو الردى من الدّين وقول من لا يرجع

والديلم ، ولا يخاف من الله نعمة ، ولا يُراقب منه سَطْوَة ، فتَبَرَّ اللهُ عمره ، أَحَبَّتْ أصله وفرعه ، وسدَّه ماتحت يديه ، وأعدَّ له من عذبه وعقوبته ، ما استحقَّه من الله بمعصيته . هذا إلى ما كان من نبي مروان من تبديل كتاب الله ، وتعطيل أحكام الله ، وانحاد مال الله بينهم دُولاً ، وهدم بيت الله ، واستحلافهم حرمة ، وتصبيهم الحايق عليه ، ورثيهم بالثيران إِيَّاه ، لا يألون له إخراجاً وإخراجاً ، ولياً حرَّم الله منه استباحة وانهاكا ، ولمن لجأ إليه قتلاً وتكليلاً ، ولمن أمَّه الله به إخفاقة وتشريداً ؛ حتى إذا حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب ، واستحقَّوا من الله الأنتقام ، ومثَّوا الأرض بالخور والعُدوان ، وعمَّوا عباد بلاد الله بالطُّم والافتسار ، وحلَّتْ عليهم السَّحْطَة ، ونزلتْ مهم من الله السَّطْوَة ، أباح الله لهم من عِتْرَةِ نبيِّه وأهل بيئته ، ومن استحلَّصه منهم خلافة ، ومثل ما أتاح من أسلافهم المؤمنين ، وآبائهم المُجَاهِدِينَ ، لأوكَلهم الكافرين ، فسَكَّ الله به دماءهم ودماء آبائهم مرتدِّين ، كما سَفَكَ بِآبائهم مُشْرِكِينَ ، يوقِطع الله دابرَ الذين طردوا والحدُّ لله ربَّ العالمين .

أيُّها الناس ، إن الله إنما أمر ليطاع ، ومثل لِيَتَمَثَّل ، وحكم لِيَفْعَلَ ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ ^(١) ، وقال : ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ ^(٢) .

فالعنوا أيُّها الناس من لعنه الله ورسوله ، وفارقوا من لا تسألون القرية من الله إلا بمعارفته ؛ اللهم العن أبا سفيان بن حرب وأمِّه ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ويريد بن معاوية ، ومروان بن الحكم ، وولده وولدولده ! اللهم العن أئمة الكفر ، وقادة الضلال ، وأعداء الدين ، ومُجَاهِدِي الرِّسُول ، ومعطلي الأحكام ، ومبدلي الكتاب ، ومنتهكي الله الحرام ! اللهم إنا نبرأ إليك من موالاة أعدائك ، ومن الإغماض لأهل معصيتك ،

كما قلت : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ^(١).

أيها الناس، اعرفوا الحقّ تعرفوا الله، وتأمنوا سبيل الضلالة تصرفوا سايلها، فقفوا عندما وقفكم الله عليه، وانفذوا كما أمركم الله به، وأمير المؤمنين يستعصم بالله لكم، وبالله توفيقكم، ويرغب إليه في هدايتكم. والله حسبّه، وعليه توكله، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ^(٢).

قلت : هكذا ذكر الطبري الكتاب، وصدي أنه الخطبة، لأن كل ما يُخطب به فهو خطبة، وليس بكتاب، والكتاب ما يكتب إلى عامل أو أمير ومحوها، وقد بقرا الكتاب على للنبر فيكون كالحطبة، ولكن ليس بخطبة، ولكنه كتابٌ قرئ على الناس. وامل هذا الكلام كان قد أنسى. ليكون كتاباً، ويكتب به إلى الآفاق، ويؤمروا بقراءته على الناس، وذلك بعد قراءته على أهل سداد. والذي يؤكّد كونه كتاباً، وينصر ما قاله الطبري، أن في آخره : « كتب عبيد الله بن سليمان في سنة أربع وثمانين ومائتين »، وهذا لا يكون في الخطب، بل في الكتب، ولكن الطبري لم يذكر أنه أمر بأن يكتب إلى الآفاق ولا قال : وقع العزم على ذلك، ولم يذكر إلا وقوع العزم على أن يقرأ في الجوامع ببغداد.

(١) سورة المجادلة ٢٢.

(٢) الطبري حوادث سنة ٢٨٤ بتصرف واختصار.

(٢٨)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوارا ، وهو من محاسن الكتب -

أما بعد ، فقد أتاني كتابك تذكر فيه اضطعاه الله محمدا صلى الله عليه وآله
لدينه ، وتأيدته إياه لمن أيدته من أضعايه ؛ فقد حسا لنا الدهر منك هجما ؛
إذ طيفت تحيرنا بلاء الله تعالى عينا ، وبغته عينا في بيئنا ، فكنت في ذلك
كغافل التمر إلى هجره ، أو داعي مستدريه إلى النصال .

ورعيت أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان ؛ قد كرت أمرا إن تم
اعتزلت كله ، وإن نقص لم يتحقق نفعه . وما أنت والفاضل والمفصول ، والسائس
والمسوس ؛ وما لا طلقاء وأساء الطلقاء والتمير بين المهاجرين الأولين ، وترتيب
درجاتهم ، وتعمير طقاتهم ؛ هينات ، لقد حرر قدح ليس منها ، وطبق بحكم
فيها من عليه الحكم لها !

ألا ترزع أيها الإنسان على ظمئك ، وتعرف قصور درعك ، وتناخر حيث
أحرك القدر ! فما عليك علة الملو ، ولا ظفر الطافر ؛ فإني لك لدهاب في التيه ،
رواع عن القصد .

ألا ترى - غير تحير لك ؛ ولكن بعمة الله أحدث - أن قوما استشهدوا في
سبيل الله تعالى من المهاجرين والأنصار ، وإسكل فصل ، حتى إذا استشهد شهيدا
قيل : سيد الشهداء ، وحصة رسول الله صلى الله عليه وآله بسعين تكبيرة عند
صلاته عليه !

أَوْ لَا تَرَىٰ أَنَّ قَوْمًا قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنْ قُصِّلَ ، حَتَّىٰ إِذَا فَعَلَ
يُوحِيدًا مَا فَعَلَ يُوَاحِدِهِمْ ، قِيلَ : الطَّيَّارُ فِي الْخَنَةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ !
وَلَوْ لَا مَانَهُ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَرْكِتِهِ الْمَرْءَ نَفْسُهُ ، لَدَكَّرَ ذَا كِرٍّ فَصَائِلَ جَعَةٍ ،
تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ .

فَدَخَّ عَنْكَ مَنْ مَالَتَ بِهِ الرَّمِيَّةُ ، قَبِيًّا صَنَائِعُ رَمَانَا ، وَالنَّاسُ بِمَدِّ صَنَائِعِ لَنَا ،
لَمْ يَمْتَنِعْنَا قَدِيمُ عِزَّنَا ، وَلَا عَادِيٌّ حُلُولِنَا عَلَىٰ قَوْمِكَ أَنْ سَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا ؛ فَتَكْنَحْنَا
وَأَنْتَ كُنَّا ؛ فَمِنْ الْأَكْمَاءِ وَلَسْتُمْ هُنَاكَ . وَأَنْتَ تَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ
وَمِنْكُمْ الْمَكْدُبُ ، وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَخْلَافِ ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ
الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صَنِيبَةُ النَّارِ ، وَمِنَّا حَبْرُ يَسَاءِ الْعَالَمِينَ ، وَمِنْكُمْ تَحَالَةُ الْخَطْبِ ؛ فِي
كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ !

فَأَسْلَمْنَا مَا قَدْ سَمِعَ ، وَحَاطَهِتُنَا لَا تُدْفَعُ ، وَكِتَابُ اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَدَّ عَمَّا ،
وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَأُولَ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ^(١) ،
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الْلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) ، فَهَنْ مَرَّةً أَوْلَىٰ بِالْقَرَابَةِ ، وَتَارَةً أَوْلَىٰ بِالطَّلَاعَةِ .
وَلَمَّا اخْتَحَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيمَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
فَلَجُّوا عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ بَكَى الْمَسْحُ بِهِ فَاتَّقُوا لَنَا دُورَكُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ بِفَيْرِهِ
فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ .

وَزَعَمْتُ أَنَّ لِكُلِّ الْحَمَاءِ حَسَدُ ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغِيْتُ ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ
كَذَلِكَ فَلَيْسَتْ الْجَنَابَةُ عَلَيْكَ ، فَيَكُونُ لَعْدُكَ إِلَيْكَ .

• وَتِلْكَ شَكَاةُ ظَاهِرٍ عَنْكَ عَارُهَا •

وَقُلْتُ : إِنِّي كُنْتُ أَقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَبَلُ لِلْخُشُوشِ حَتَّى أَبَايَحَ ؛ وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ
أَرَدْتُ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ ؛ وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ ! وَمَا ظِلُّ السَّلَامِ مِنْ عَضَاذَةٍ فِي
أَنْ يَكُونَنَّ مَظْلُومًا مَالَمْ يَكُنْ شَاكَا فِي دِيْبِهِ ، وَلَا مُرْتَاكَا بِتَيْفِيهِ !

وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا ، وَلَكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَمَحَ
مِنْ ذِكْرِهَا .

ثُمَّ دَكَّرْتُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عَمَّ ، فَلَمْ أَنْ تَحَابَّ عَنْ هَذِهِ
لِرَحِيكَ مِنْهُ ؛ فَأَيْنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ ! أَمِنْ بَذَلٍ لَهُ نُصْرَتُهُ
فَأَسْتَعْمَدَهُ وَأَسْتَكْفَمَهُ ، أَمِنْ اسْتَنْصَرَهُ فَتَزَاخَى عَنْهُ وَتَوَاتَّ السُّوَى إِلَيْهِ ؛ حَتَّى أَتَى
قَدْرُهُ عَلَيْهِ أَكْلًا وَاللَّهِ لَقَدْ ﴿ يَسْلُمُ أَقَامُ الْمُعَوِّذِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ
إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ النَّاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١)

وَمَا كُنْتُ لِأَعْدِيرٍ مِنْ أَتَى كُنْتُ أَقِيمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثًا ؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ
لِرِشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ ؛ فَرُبُّ مُلُومٍ لَا دَنْتَ لَهُ .

• وَقَدْ يَسْتَعِيدُ الطُّغَةُ الْمُنْتَصِحُ •

وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوَفَّقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَالْبُؤْسُ أَيْبُ .

وَدَكَّرْتُ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلَا صَحَابِي عِدْرَكَ إِلَّا السَّيْفُ ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ
اسْتِعْبَارِ ! مَتَى أَلْقَيْتَ بَنِي عَدْرِ الطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ تَاكِيْبِينَ ، وَبِالسَّيْفِ مُحَوِّفِينَ ، فـ

• لَسْتُ قَلِيلًا بَلْعَقَى الْهَيْجَا حَلْ •

فَسَيَطْلُوكَ مَنْ تَطْلُبُ ، وَبَقَرْتُ مِنْكَ مَا اسْتَشَيْدُ ، وَأَمَّا مُزِقِلُ تَحْوِكَ فِي جَحَلٍ
مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالْقَائِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَابٍ ، شَدِيدِ زِحَامُهُمْ ، سَاطِعِ
قَتَامُهُمْ ، مُتَسَرِّبِينَ سَرَائِلَ الْمَوْتِ ؛ أَحَبُّ الْإِقْدَادِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ ، وَقَدْ صَحِبَهُمْ
ذُرِّيَّةٌ نَذْرِيَّةٌ ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ ، قَدْ عَرَفَتْ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَحْيَاكَ وَحَالَكَ وَجَدَّكَ
وَأَهْلِكَ ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِسَعِيدٍ ﴾ ^(١) .

• • •

الشرح :

[كِتَابُ الْمَعَاوِيَةِ إِلَى عَلِيٍّ]

سَأَلْتُ النَّقِيبَ أَبَا جَعْفَرٍ يَحْيَى بْنُ أَبِي رِبْعٍ ؛ فَقُلْتُ : أَرَى هَذَا الْجَوَابَ مُسْطَبِقًا عَلَى
كِتَابِ مَعَاوِيَةَ الَّذِي بَعَثَ مَعَ أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَائِيَّ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَإِنْ كَانَ هَذَا هُوَ
الْجَوَابُ فَالْجَوَابُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرْبَابُ الشُّبُهَةِ وَأَوْرَدَهُ نَصْرُ مَنْ مُرَّاحِمِي كِتَابَ صِفِّينَ إِذْ
غَيْرُ صَحِيحٍ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْجَوَابُ ، فَهَذَا الْجَوَابُ إِذَنْ غَيْرُ صَحِيحٍ وَلَا ثَابِتٌ ، فَقَالَ لِي :
بَلْ كِلَاهُمَا ثَابِتٌ مَرْوِيُّ ، وَكِلَاهُمَا كَلَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْعَاطَةُ ، ثُمَّ أَمَرَنِي أَنْ
أَكْتُبَ مَا عَلَيْهِ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَكُتِبَتْهُ ، قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :

كَانَ مَعَاوِيَةُ يُنْسَقُطُ ^(٢) عَلَيًّا وَيَسْعَى عَلَيْهِ مَا عَصَاهُ بِدُكْرِهِ مِنْ حَالِ أَبِي بَكْرٍ وَهَمْرٍ ،
وَأَسْهَمَا غَضَبَاهُ حَقَّهُ ، وَلَا يَرِئَالُ بِكَيْدِهِ بِاسْكِتَابِ يَكْتُبُهُ ، وَالرَّسَالَةَ يَبْعَثُهَا يَطْلُبُ عِزَّتَهُ ؛
لَتَنْفُثَ بِمَا فِي صَدْرِهِ مِنْ حَالِ أَبِي بَكْرٍ وَهَمْرٍ ، إِمَّا مَكَاتِبَةً أَوْ مُرَاسَلَةً ، فَيَحْمِلُ ذَلِكَ حَبْجَةً

(٢) يَنْسَقُطُهُ : يَنْقُصُهُ .

(١) سُورَةُ هُودٍ ٨٣ .

عليه عند أهل الشام ، ويضيفه إلى ما قرره في أنفسهم من ذنوبه كالزعم ، فقد كان محصه^(١) عندهم بأنه قتل عثمان ومالاً على قتله ، وأنه قتل طحمة والزبير ، وأسر عائشة ، وأراق دماء أهل البصرة . وبقيت خصلة واحدة ، وهو أن يثبت عندهم أنه يتبرأ من أبي بكر وعمر ، وينسبهما إلى الظلم ومخالفة الرسول في أمر الخلافة ، وأنهما وثباً عليها غلبة ، وغصباً إياها ؛ فكانت هذه الطامة الكبرى ليست مقتصرة على بلاد أهل الشام عليه ، بل وأهل العراق الذين هم جندوه وبطانته وأصاره ؛ لأنهم كانوا يعتقدون إمامة الشيخين ؛ إلا القليل الشاذ من حواصن الشيعة ، فلما كتبت ذلك الكتاب مع أبي مسلم الخولاني قصد أن يعصّب علياً ويخرجّه ويخوجه إذا قرأ ذكر أبي بكر ، وأنه أفصل المسلمين ، إلى أن يخطط خطفه في الجواب بكلمة تقتضي طعناً في أبي بكر ، فكان الجواب مختصاً^(٢) غير يبين ، ليس فيه تصريح بالتظلم لهما ، ولا التصريح ببراءتهما ، ونارة بترحم عليهما ، ونارة يقول : أخذنا حقاً وقد تركناه لهما ، فأشار عمرو بن العاص على معاوية أن يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب الأول ليستمر فيه علياً عليه السلام ويستجفاه ، ويحميه العصب منه أن يكتب كلاماً يتعلقان به في تشييع حاله وتهجين مذهبه . وقال له عمرو : إن علياً عليه السلام رحل ترقى نبياه ، وما استطعت منه الكلام مثل تقريب أبي بكر وعمر ، فاكشف . فكتب كتاباً أمّده إليه مع أبي أمامة الباهلي ، وهو من الصحابة ، بعد أن عزم على بعثته مع أبي الدرداء . وسعة الكتاب : من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب .

أما بعد ، فإن الله تعالى جدّه أصطفى محمداً عليه السلام لرسالته ، واحتصّه بوحيه ونادية شريعته ، فأعذ به من العمية ، وهذى به من العواية ، ثم قبضه إليه رشيداً حميداً ، قد بلغ الشّرع ، وتحقّق الشّرك ، وأخذ نار الإفك ، فأحسن الله جرائه ، وضاعف عليه نعمه وآلائه . ثم إن الله سبحانه اختص محمداً عليه السلام بأصحاب أبدوه وآزروه ونصروه

(٢) عجيباً : هو واضح .

(١) محصه : اتهمه .

وكانوا كما قال الله سبحانه لهم : ﴿ أَشِدَّ لَهُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَةً بَيْنَهُمْ ﴾ ^(١) ؛ فكان أفضلهم مرتبة ، وأعلام عند الله والمسلمين منزلة ؛ الخليفة الأول ، الذي جمع الكلمة ، ولم الدعوة ، وقَاتَلَ أَهْلَ الرُّدَّة ، ثم الخليفة الثاني الذي فَحَّحَ الفتوح ، ومَصَّرَ الأمصار وأَذَلَّ رِقَابَ المشركين . ثم الخليفة الثالث المظلوم الذي نَشَرَ لِلَّهِ ، وطَبَّقَ الآفاقَ بالكلمة الخفيفة . فلما أُسْتُوثِقَ الإسلام وضربت بحرا بعدوت عليه فَمَعَيْتَهُ العوائل ، ونَصَبَتْ لَهُ المكايد ، وضربت له بطنَ الأُمَرِ وظَهْرَهُ ، ودَسَّتْ عليه ، وأَعْرَيْتْ به ، وقَعَدَتْ حَيْثُ اسْتَصْرَكَ عَنْ نَصْرِهِ ، وسَأَلَتْ أَنْ تُدْرِكَ قِصْلَ أَنْ يَمْرُقَ فَمَا أَدْرَكَتْهُ ، وما يَوْمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْكَ بِوَاحِدٍ !

لقد حَدَّثَتْ أُمَّا بَكْرَ وَالتَّوَيْتَ عَلَيْهِ ، وَرُمَتْ إِفْسَادَ أَمْرِهِ ، وَقَعَدَتْ فِي تَبَيْتِكَ ، وَاسْتَمَوَيْتْ عِصَاةً مِنَ النَّاسِ حَتَّى تَأْخُذُوا عَنْ بَيْتِهِ ، ثُمَّ كَرِهْتَ خِلَافَةَ عَمْرٍ وَحَدَّثْتَهُ وَاسْتَطَلَّتْ مُدَّتُهُ ، وَسُرُرْتَ بِقَتْلِهِ ، وَأُظْهِرْتَ الشَّيْأَةَ مُصَابِيهِ ؛ حَتَّى إِنْكَ حَاوَلْتَ قَتْلَ وَلَدِهِ لِأَنَّهُ قَتَلَ قَاتِلَ أَبِيهِ ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ أَشَدَّ مِنْكَ حَسِداً لِابْنِ عَمِّكَ عُمَانَ ؛ نَشَرْتَ مَقَابِيحَهُ ، وَطَوَيْتَ تَحَاسِيْنَهُ ، وَطَعَنْتَ فِي قِيَامِهِ ، ثُمَّ فِي دِينِهِ ، ثُمَّ فِي سِيرَتِهِ ، ثُمَّ فِي عَقْلِهِ ؛ وَأَعْرَيْتَ نَهَ السُّفَهَاءِ مِنْ أَصْحَابِكَ وَشِيعَتِكَ ، حَتَّى قَتَعُوا مَحْضَرَ مِنْكَ ، لَا تَدْفَعُ عَنْهُ بَاسًا وَلَا يَدِي ؛ وَمَا مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا مَنْ نَفَيْتَ عَلَيْهِ ، وَتَلَسَّكَاتٍ فِي بَيْتِهِ ؛ حَتَّى سُحِلَتْ إِلَيْهِ فَهْرًا ، تُسَاقُ بِخِزَانِمِ الْاِقْتِسَارِ كَمَا يُسَاقُ الْعَجَلُ الْخَشُوشُ ، ثُمَّ سَهَمْتَ الْآنَ تَطْلُبُ الْخِلَافَةَ ، وَقَتْلَهُ عُمَانَ خَاصَاؤُكَ وَسُجَرَاؤُكَ وَالْمُحَدِّثُونَ بِكَ ، وَتِلْكَ مِنْ أُمَانِي النُّعُوسِ ، وَضَلَالَاتِ الْأَهْوَاءِ .

فَدَعِ اللَّحَاجَ وَالْعَبَثَ جَابِيَا ، وَادْفَعْ إِلَيْنَا قَتْلَةَ عُمَانَ ، وَأَعِدَّ الْأُمَرَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِيَتَعَقُوا عَلَى مَنْ هُوَ لِلَّهِ رِيسًا . فَلَا مِيعَةَ لَكَ فِي أَعْنَاقِنَا ، وَلَا طَاعَةَ لَكَ عَلَيْنَا ، وَلَا عُتْبَى لَكَ

عندنا ، وليس لك ولا صاحبك عندى إلا السيف. والذي لا إله إلا هو لأطعن قتلة عثمان
أين كانوا ، وحيث كانوا ؛ حتى أقتلهم أو تنتحيق رُوحى بالله .

فأما ما لا تزال تمنّ به من سابقتك وجهادك فإنى وجدتُ الله سبحانه يقول :
﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسَدُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَنِّي إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ
هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١) . ولو نظرت في حال نفسك لوجدتها
أشدّ الأنفس امتنانا على الله نعمتها ؛ وإذا كان الامتنان على السائل يُبطل أجر الصدقة ،
فالامتنان على الله يُبطل أحر الجهاد ، ويحمله ﴿ كَصَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ
فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا بَقْدِيرُونَ عَلَى شَيْءٍ ﴾ كما كُفِّرُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ^(٢) .



قال النقيب أبو جعفر : قلنا وصلّى هذا الكتابُ إلى على عليه السلام مع أبي أمانة
الباهلي ، كَلَّمَ أبا أمانة بنحو مما كَلَّمَ به أبا مُسْلِمَ الْحَوْلَانِي ، وكتب معه هذا الجواب .
قال النقيب : وفي كتاب معاوية هذا ذكرُ لفظ الجمل الخشوش أو العجل الخشوش ،
لا في الكتاب الواصل مع أبي مسلم ، وليس في ذلك هذه اللفظة ، وإتفاقه : « حدث الخلفاء
ونعت عليهم ، عرفنا ذلك من طريق الشُّرَرِ^(٣) ، وقولك الهجر^(٤) » وتنفسك الصعداء ،
وإطائكك عن الخلفاء .

قال : وإنما كثيرٌ من الناس لا يعرفون الكتبيين ؛ وللشهور عندهم كتابُ أبي مسلم
فيجعلون هذه اللفظة فيه ، والصحيح أنها في كتاب أبي أمانة ، ألا تراها عادت

(١) سورة المجرات ١٧ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٤ .

(٣) يقال : شرره وإليه : نصر إليه بأحد شقيه ؛ أو هو ظر فيه إمراس .

(٤) الهجر (يضم فسكون) : التبيح من الكلام .

في جوابه ولو كانت في كتاب أبي مسلم لعادت في جوابه !
انتهى كلامُ التقيب أبي حنيفة .

• • •

ونحن الآن مبتدئون في شرح ألفاظ الجواب المذكور .

قوله : « فلقد خَبَأَ لنا الدهرُ منك هَجَا » ، موضعُ التعجب أن معاويةَ يَحْبِرَ علياً عليه السلام بأصطفاء الله تعالى محمداً وتُشْرِيفِهِ له ، ويُأَيِّدُهُ له ؛ وهذا طريف لأنه يحرق كإحبار ريدٍ عمراً عن حالٍ عَمِرٍ ، إذ كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَعَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كالشئِ الواحد . وخَبَأَهم موز ، والمصدرُ الخَبَأَ ، ومنه الخباية ، وهي الخبء . إلا أنهم تركوا هجاءها ، والخبء أيضاً والخبيء على « قَعِيل » مأخوذة .

وبلاة الله تعالى : إنعامه وإحسانه .

وقوله عليه السلام : « كَنَّا قِلَ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ » ، مَثَلٌ قديم . وهَجَرَ : اسمُ مدينة لا يصرف للتعريف والتأنيث . وقيل : هو اسم مدَّكَرٍ مصروف ، وأصل المثل « كَسْتَنْصَعُ تَمْرًا إِلَى هَجَرَ »^(١) ، والنسبة إليه هاجري على غير قياس ، وهي كلمة كثيرة النحل يُحْمَلُ منها التمر إلى غيرها ، قال الشاعر في هذا المعنى :

أَهْدَى لَه طَرْفَ الْكَلَامِ كَأَنَّهُ يَهْدِي نَوَالِي الْبَصَرَةِ التَّمْرُ

قوله : « وداعى مسدده إلى النضال » ، أى معطه الرَّمْيَ ، وهذا إشارة إلى قول القائل الأول :

(١) بحج الأمثال ٢ : ١٥٢ ؛ قال أبو عبيد : هذا من الأمثال المتعة ومن قديمها ؛ وذلك أن هجر معدن التمر ؛ والمستبصع إليه تخطى ؛ ويقال أيضاً : كَسْتَنْصَعُ التَّمْرَ إِلَى حَبِيرٍ ؛ قال النابغة الجعدي :
وَإِنْ أَمْرًا أَهْدَى إِلَيْكَ قَصِيدَةً كَسْتَنْصَعُ تَمْرًا إِلَى أَرْضِ خَيْبَرَا

أَعْلَمَهُ الرُّمَایَةَ كُلَّ یَوْمٍ فَلَمَّا اسْتَعَاذَهُ رَمَاتِی^(١)
هكذا الرواية الصحيحة بالسین للهمة ، أى استقام ساعده على الرمی ، وسدّدتُ
فلانا : علته النّصال ، وسهمٌ سدید : مُصِيب ، ورمحٌ سدید ، أى قلّ أن تخطىء
طعنته ، وقد ظرّف القاضی الأرجانی فی قوله لسدید الدولة محمد بن عبد الكريم
الأنباری كاتب الإنشاء :

إلى الذى نصّب المكارم للورى غرّما يلوح من المدى المشاء
نثّل الأمثال من كنهاته فما وحدث يدها سوى سدید واحد
ومن الأمثال فى هذا المعنى : « تَمُنْ كَنَسَكَ بِأَكُكْ »^(٢) ، ومنها : « أَحْشَكْ
وَتَرَوْنِى »^(٣) .

قوله عليه السلام : « ورعت [أن أفضل الناس] الإسلام فلان وفلان » ، أى
أبو بكر و عمر .

قوله عليه السلام : « فذكرت أمرا إن تمّ اعتزلت كله » ، وإن قصص لم ينصفك
كله » ، من هذا المعنى قول الفرزدق لجري ، وقد كان جرير فى مهاجاته إياه يفخر عليه
بقيس عيلان ، فقد كانت جرير فى قيس خوولة ، بعيره بأيامهم على بنى تميم ، فلما قتل
بنو تميم قتيبة بن مسلم الباهلي عمراسان قال الفرزدق يمتنخِر :

أَتَانِى وَأَهْـمِلِى بِالمَدِينَةِ وَقَمَّةٌ لَّالِ تَمِيمٍ أَقْعَدَتْ كُلَّ قَانِمٍ^(٤)

(١) استدّ : استقام ؛ والفت يصب إلى من س أوس ، أومالك بن فهم الأزدى ، أو عليل بن
هلفة ؛ وبهذه :

فَلَا ظَمِرَتْ يَمِينُكَ حِينَ تَرْمِى وَشَلَّتْ مِنْكَ حَامِلَةُ الْبَنَانِ

واقطر السان ٤ : ١٩١ .

(٢) بحج الأمثال ١ : ٣٣٣ ؛ قالوا : أول من قال ذلك حليم بن النضر .

(٣) بحج الأمثال ١ : ٢٠٠ ؛ أراد : تردت على .

(٤) ديوانه ٨٥٣ .

كَانَ رَعُوسُ النَّاسِ إِذْ تَمِيمُوا بِهَا مَشْدَحُهَا مَاتَهَا بِالْأَمَامِ
وَمَا بَيْنَ مَنْ لَمْ يُوَاتِ سَمًا وَعِلَاعَةً وَبَيْنَ تَمِيمٍ عَيْرٍ جَزَا الْخَلَاقِ
ثُمَّ خَرَجَ إِلَى خِطَابِ حَرِيرٍ بَعْدَ أَيْتَاتٍ تَرَكَنَا ذِكْرَهَا ، فَقَالَ :
أَتَفَضُّ إِنْ أَذْنَا قُتِيبةَ جُزْنًا جَهَارًا وَلَمْ تَفَضُّ لِقَتْلِ ابْنِ حَارِمٍ !
وَمَا مِثْلُهَا إِلَّا نَقَلْنَا دِمَاعَهُ إِلَى الشَّامِ فَوْقَ الشَّاحِحَاتِ الرُّوَاسِ
تَذَنَّبَ فِي الْخَلَاةِ تَحْتَ نُطُوسِهَا مَحْدَقَةُ الْأَذْنَابِ حُلُجِّ الْمَقَادِمِ
وَمَا أَتَى مِنْ قَيْسٍ فَتَنَجَّ دُوسَهَا وَلَا مِنْ تَمِيمٍ فِي الرُّعُوسِ الْأَعَاظِمِ
تَحَوُّفُنَا أَلَامَ قَيْسٍ وَلَمْ تَدَّغْ لَعِيلَانَ أَمَّا مُسْتَقِيمَ الْحَيَاثِمِ
لَقَدْ شَهِدَتْ قَيْسٌ مَا كَانَ نَصْرُهَا قُتِيبةَ إِلَّا عَصَهَا بِالْأَبَاهِمِ

فَقَوْلُهُ :

• وَمَا أَتَى مِنْ قَيْسٍ فَتَنَجَّ دُوسَهَا •

هُوَ مَعْنَى قَوْلِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَاوِيَةَ : « هَذِكْرَتِ أَمْرًا إِنْ تَمَّ اعْتِزْلَاكَ كُلَّهُ » ،
وَإِبْنُ حَارِمٍ الْمَذْكُورُ فِي الشَّعْرِ هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ حَارِمٍ ، مِنْ بَنِي سُكَيْمٍ ، وَسُكَيْمٌ مِنْ قَيْسِ
عَيْلَانَ ، وَقَتَلَتْهُ تَمِيمٌ أَيْضًا ، وَكَانَ وَالِيَّ حُرَّاسَانَ .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَمَا أَتَى وَالْعَاصِلَ وَالْمَقْصُولَ » ، الرَّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ بِالرَّفْعِ ،
وَقَدْ رَوَاهَا قَوْمٌ بِالنَّصْبِ ، فَمَنْ رَفَعَ احْتَجَّ قَوْلُهُ : وَمَا أَتَى وَبَيَّنَّتْ أَيْبُكَ وَالْفَخْرُ .

وَبِقَوْلِهِ :

• فَا الْقَيْسِيُّ بِمَدَكٍ وَالْفَخْرُ •

وَمَنْ نَصَبَ فَعَلِي تَأْوِيلُ « مَالِكٍ وَالْفَاضِلِ » ، وَفِي ذَلِكَ مَعْنَى الْفِعْلِ ، أَيْ مَا تَصْنَعُ ، لِأَنَّ

هذا الباب لا بد أن يتضمن الكلام فيه فعلا ، أو معنى فعل ، وأنشدوا :
 • فما أمتَ والتَّيْرَ في مَثَلٍ^(١) .

والرفع عند النحويين أولى .

ثم قال : « وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز » التصبُّ هاهنا لا غير ، لأجل اللام في الطلقاء .

ثم قال عليه السلام بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ، هذا الكلام ينقض ما يقول من يظن في السلف ، فإن أمير المؤمنين عليه السلام أنكر على معاوية تمرُّصه بالمفاصلة بين أعلام المهاجرين ، ولم يذكر معاوية إلا بالمفاصلة بينه عليه السلام وبين أبي بكر وعمر ، فشهادة أمير المؤمنين عليه السلام بأنهما من المهاجرين الأولين ومن دوى الدرجات والطبقات التي اشتقَّ الحلال بينهما وبينه عليه السلام في أي الرجال منهم أفضل ، وأن قدَّر معاوية بصغر أن يدخل نفسه في مثل ذلك شهادة قاطعة على علو شأنهما ، وعظم منزلتهما .

قوله عليه السلام : « هيهات ، لقد حنَّ قِدْحٌ ليس منها » هذا مَثَلٌ يضرب لمن يدخل نفسه بين قوم ليس له أن يدخل بينهم ؛ وأصله القِدْح من عود واحد يحمل فيها قِدْح من غير ذلك الحشَب ، فيصوت بينها إذا أرادها المقيص ، فنلك الصوت هو حنيبه .

قوله « وطلق يحكم فيها من عليه الحكم لها » ، أي وطبق يحكم في هذه القصة

(١) لأسامة بن المارث الهذلي ؛ وقته :

• يُعَبَّرُ بِالذِّكْرِ الضَّابِلِ •

أو في هذه القضية مَنْ يجب أن يكون الحكم لها عليه لا له فيها ؛ ويجوز أن يكون الصير يرجع إلى العَلَبَات .

ثم قال : « أَلَا تَرَئِىَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَنِّكَ أَمْ أَمْ أَلَا تَرَئِىَ سُبُكُوتَكُمْ ، وَلَا تَحْمِلُ عَلَيْهَا مَا لَا طَبَقَهُ ، وَالطَّلَعُ : مَصْدَرُ خَلَعَ الْبَعِيرُ يَفْلَعُ أَيْ غَمَرَفِي مَشِيهِ .
قوله : « وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذُرْعِكَ » ، أصل الذرْعُ تَسَطُّ الْيَدُ ؛ يُقَالُ : صِغْتُ مَذْرَعًا ؛ أَيْ صَاقَ ذُرْعِي بِهِ . فَتَقُولُوا الْأَسْمَ مِنَ الْعَاصِيَةِ مُجْمَلَةٌ مَصْصُوبًا عَلَى التَّمْيِيزِ ؛ كَقَوْلِهِمْ : طَلَبْتُ بِهِ مَسَا .

قوله : « وَتَقَاسَرَ حَيْثُ أَحْرَكَ الْقَدْرَ » ، مِثْلُ قَوْلِكَ : ضَعُ مَسَكَ حَيْثُ وَصَعَهَا اللَّهُ ؛ يُقَالُ ذَلِكَ لِمَنْ يَرْفَعُ مَعَهُ فَوْقَ اسْتِحْقَاقِهِ ،
ثم قال : « فَمَا عَلَيْكَ عِلَّةٌ لِلْعُلُوكِ » وَلَا عَلَيْكَ طَعْرُ الطَّامِرِ » ، يَقُولُ : وَمَا الَّذِي أَدْخَلَكَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَمِي بَكْرٍ وَهَمْرٍ ، وَأَنْتَ مِنْ نَسَبِي أُمِيَّةٌ ، لَسْتَ هَاشِمِيًّا وَلَا تَيْمِيًّا وَلَا عَدُوًّا هَذَا فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى أَسَانَا ، وَلَسْتَ مُهَاجِرًا وَلَا ذَا قَدَمٍ فِي الْإِسْلَامِ فَزَاحِمُ الْمُهَاجِرِينَ وَأَرْبَابُ السَّوَابِقِ بِأَعْمَالِكَ وَاحْتِبَادِكَ ، فِذَنْ لَا يَضُرُّكَ غَلْمَةُ الْغَالِبِ مِنَّا وَلَا يَسْرُكُ ظَفَرُ الظَّافِرِ . وَيُرْوَى أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ كَانَ يُبَشِّدُ يَوْمَ مَرَجٍ رَاهِطًا وَالرَّهْوسَ تُنْذِرُ عَنْ كَوَاهِلِهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّعَالِكِ بْنِ قَيْسِ الْقَهْرِيِّ :

وَمَا صَرَّحَ غَيْرُ حَتِّينِ الْقَوِ سِ أَيْ غَلَامِي قَرِيشٍ غَلَبَ

قوله عليه السلام : « وَإِنَّكَ لَذَهَابٌ فِي النَّبِيِّ ، رَوَّاعٌ عَنِ الْقَصْدِ » ، يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النَّبِيِّ مَعْنَيْنِ : أَحَدُهُمَا بِمَعْنَى الْكَبِيرِ ، وَالْآخَرُ النَّبِيُّ مَنْ قَوْلِكَ : تَاهَ فُلَانٌ فِي السَّيْدَاءِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(١) ؛ وَهَذَا الثَّانِي أَحْسَنُ

يقول : إنك شديد الإيغال في الصلال . و « ذهب » فعال ؛ للتكثير ، ويقال : أرض متيبة ، مثل معيشة ، أى يتأه فيها .

قال عليه السلام : « رَوَّاعٌ عَنِ الْقَصْدِ » ، أى ترك ما يلزمك فعله وتعذر عما يجب عليك أن تجيب عنه إلى حديث الصعابة ، وما حرى بعد موت النبي صلى الله عليه وآله ، ونحن إلى الكلام في غير هذا أحوَج إلى الكلام في البيعة وحسن الدماء والله خول تحت طاعة الإمام .

ثم قال : « أَلَا تَرَى عِبْرَ خَيْرِ لَكَ ، وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أَحْدَثَ » ، أى لست عندى أهلاً لأن أخبرك بذلك أيضاً ، فإنك تعلمه ، ومن يعلم الشيء لا يجوز أن يُخبر به ؛ ولكن أذكر ذلك لأنه أحدث بنعمة الله عليا ، وقد أمرنا بأن نحدث بنعمته سبحانه .

قوله عليه السلام : « إِنَّ قَوْمًا يَسْتَشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ، المراد هاهنا ، سيد الشهداء حمزة رضى الله عنه ، وينبى أن يحمل قول النبي صلى الله عليه وآله فيه إنه سيد الشهداء على أنه سيد الشهداء في حياة النبي صلى الله عليه وآله ؛ لأن عليا عليه السلام مات شهيدا ؛ ولا يجوز أن يقال : حمزة سيده ، بل هو سيد المسلمين كلهم ، ولا خلاف بين أصحابنا رحمهم الله أنه أفضل من حمزة وجعفر رضى الله عنهما ، وقد تقدم ذكر التكبير الذى كبره رسول الله صلى الله عليه وآله على حمزة في قصة أحد .

قوله عليه السلام : « وَلِكُلِّ فَصْلٌ » ، أى ولكل واحد من هؤلاء فصل لا يُوحد . قوله : « أَوَلَا تَرَى أَنَّ قَوْمًا قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ » ، هذا إشارة إلى جعفر ؛ وقد تقدم ذلك في قصة مؤتة .

قوله : « وَلَوْلَا مَانِهِيَ اللَّهُ عَنْهُ » ، هذا إشارة إلى نفسه عليه السلام .

قوله : « ولا تعجبها آذان السامعين » أى لا تقذِفْها ، يقال : مَجَّ الرجل من فيه ، أى قذفه .
قوله عليه السلام « فذبح عنك من مالت به الرميّة » ، يقال للصيد : يرمى هذه الرميّة ،
وهى « فميّة » بمعنى مفعولة ، والأصل فى مثْلِها ألا تُلَحِّقْها الماء ، نحو كَفَّ خَصِيْبٌ ، وعين
كحِيل ، إلا أنهم أخرَوْها محرّى الأسماء لا السموت ، كالتقصيدة والقطيعة .

والمعنى : دَعَّ ذكر من مال إلى الدنيا ومالت به ، أى أمالته إليها .

فإن قلت : فهل هذا إشارة إلى أبى بكر وعمر ؟ قلت : ينبى أن يَرْمِ أمير المؤمنين
عليه السلام عن ذلك ، وأن تُصَرَّف هذه الكلمة إلى عثمان ، لأن معاوية ذكره فى
كتابه وقد أوردناه ، وإذا أنصف الإنسان من نفسه عِلِم أنه عليه السلام لم يكن يدكرها
بما يذكر به عثمان ، فإن الحال بينه وبين عثمان كانت مصطربة حدّا

قال عليه السلام : « فإن صنائع ربنا ، والناسُ بعدُ صنائعُنا » ، هذا كلام عظيم ، عالٍ
على الكلام ، ومعناه عالٍ على الماعى ، وصنِيعَةُ الْمَلِك من يصطِنُهُ الْمَلِك ويرفع قدره .
يقول : ليس لأحد من البشر علينا نعمة ، بل الله تعالى هو الذى أنعم علينا ، فليس بيننا
وبينه واسطة ، والناس بأسرهم صنائعنا ؛ فمن الواسطة بينهم وبين الله تعالى ،
وهذا مقامٌ تحليل ظاهره ما سمعت ، وباطنه أهم عبيدُ الله ، وأن الناس عبيدهم .

ثم قال : « لم يمتنعنا قديم عرنا ، وعادى طولنا » ؛ الطول : الفصل . وعادى أى قديم ،
بئرٌ عادية .

قوله : « على قومك أن خلطناهم بأنفسنا فسكعنا وأنكعنا فعل الأكفاء ، ولستم
هناك » ؛ يقول : تزوّجنا فيكم وتزوّجتكم فى كآبِ فَعَل الأكفاء ، ولستم أكفاداً . وينبى
أن يُحْمَل قوله : « قديم وعادى » على تحزبه لأعلى حقيقته ، لأن بنى هاشم وبنى أمية لم
يفترقا فى الشرف إلا مدّ نشأ هاشم بن عبد مناف وعرف بأفعاله ومكارمه ، ونشأ حينئذ
أخوه عبد شمس وعُرف بمثل ذلك ، وصار لهذا بنون ولهذا بنون ، وادّعى كل من الفريقين

أنه أشرف بالفعال من الآخر ، ثم لم تكن اللدة بين شء هاشم وإظهار محمد صلى الله عليه وآله الدعوة إلا نحو تسعين سنة ، ومثل هذه اللدة القصيرة لا يقال فيها : « قديمٌ عزنا ومادى طولنا » ، فيجب أن يحمل اللفظ على مجازيه ، لأن الأفعال الجميلة كما تكون عادة بطول المدة تكون بكثرة للنائب والمآثر والمفاخر ، وإن كانت المدة قصيرة . ولفظة قديم ترد ولا يراد بها قديم الزمان ، بل من قولهم : لفلان قدم صدق وقديم أثر ، أى سابقة حسنة .

• • •

[مناقحات بنى هاشم و بنى عبد شمس]

وينبغي أن يذكر هاهنا مناقحات بنى هاشم و بنى عبد شمس . تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله انتبه رقية وأم كلثوم من عثمان بن عفان بن أبي العاص ، وزوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع بن عبد المطلب بن عبد شمس في الجاهلية ، وتزوج أبو لهب بن عبد المطلب أم جميل بنت حرب بن أمية في الجاهلية ، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وآله أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وتزوج عبد الله بن عمرو بن عثمان فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام .

وروى شيعة أبو عثمان عن إسحاق بن عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس قال : قلت لمنصور أبي جعفر : من أكفأونا ؟ فقال : أعداؤنا ، قلت : من هم ؟ فقال : بنو أمية .

وقال إسحاق بن سليمان بن علي : قلت للعباس بن محمد : إذا اتسعنا من البنات ، وضيقنا من البنين ، وحضنا بوار الأيامي فإلى من نخرج من قبائل قريش ؟ فأنشدني :
عبد شمس كان يثلو هاشما وهما بعد لأمر ولأب

فعرفت ما أراد وسكت .

وَرَوَى أَيُّوبُ بْنُ جَعْفَرٍ بْنِ سَلِيحٍ ، قَالَ : سَأَلْتُ الرَّشِيدَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَنَى عِدَّةَ شَمْسٍ فَحَدَّ صِهْرَهُمْ ، وَقَالَ : « مَا ذَكَمْنَا مِنْ صِهْرٍ بَا فَإِنَّا لَا نَدُمُ صِهْرَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّيِّعِ » .

قَالَ شَيْعَةُ أَبُو عَثْمَانَ : وَلَمَّا مَاتَ لَانْتَانَ تَحْتَ عَثْمَانَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِأَصْحَابِهِ : « مَا تَنْتَظِرُونَ عَثْمَانَ ، أَلَا أَبُو أَيْمٍ ، أَلَا أَخُو أَيْمٍ ؟ رَوْحَتُهُ ابْنَتَيْنِ ، وَلَوْ أَنَّ عِنْدِي ثَلَاثَةُ لَمَعَلَتْ » . قَالَ : وَلِذَلِكَ سُمِّيَ ذَا الثَّوَرَيْنِ .

• • •

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَأَنْتِي تَكُونُ فَلَئِمًا » ، أَيْ كَيْفَ يَكُونُ شَرْفُكُمْ كَشَرَفِنَا ، وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمْ الْمَكْذُوبُ - بِمَعْنَى الْأَسْفِينِ - حَرْبٌ ، كَانَ عَدُوَّ رَسُولِ اللَّهِ وَالْمَكْذُوبَ لَهُ وَالْمُجَلَّبَ عَلَيْهِ - وَهَؤُلَاءِ ثَلَاثَةٌ : يَأْزَاؤُهُ أَبْنَاءُ سُفْيَانَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَمَعَاوِيَةُ يُرَاءِ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَيْدُ يُرَاءِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ مَا لَا تَبْرَكَ عَلَيْهِ الْإِبِلُ .

قَالَ : « وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ » ، بِمَعْنَى حِمَاةٍ ، « وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ » ، بِمَعْنَى عُنَّةِ ابْنِ رَبِيعَةَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ بَدْرٍ .

وَقَالَ الرَّائِزِيُّ : الْمَكْذُوبُ مَنْ كَانَ يَكْذِبُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عِنَادًا مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَسَدُ الْأَحْلَافِ : أَسَدُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى ، قَالَ : لِأَنَّ بَنِي أَسَدَ بْنَ عَبْدِ الْعُزَّى كَانُوا أَحَدَ الْبَطُونِ الَّذِينَ احْتَمَعُوا فِي حِلْفِ الْمُطِيعِينَ ، وَهُمْ بَنُو أَسَدَ بْنَ عَبْدِ الْعُزَّى وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ ، وَبَنُو تَمِيمٍ بْنِ مَرْثَةَ ، وَبَنُو زَهْرَةَ ، وَبَنُو الْخَارِثِ بْنِ فُحْرٍ . وَهَذَا كَلَامٌ طَرِيفٌ جَدًّا ، لِأَنَّهُ لَمْ يُلْحِظْ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُجْعَلَ بِإِزَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَكْذُوبٌ

من بنى عبد شمس ، فقال : للكذب من كذب النبي صلى الله عليه وآله من قريش عنادا ، وليس كل من كذبه عليه السلام من قريش يُعير معاوية به . ثم قال : أسد الأحلاف أسد بن عبد المزى ؛ وأى عار يلزم معاوية من ذلك ، ثم إن بنى عبد مناف كانوا في هذا الحلف وعلى ومعاوية من بنى عبد مناف ، ولكن الراوندى يظلم نفسه تعرّضه لما لا يعلمه .

قوله : « ومنا سيدا شباب أهل الجنة » ، يبنى حسنا وحسنا عليهما السلام ، « ومنكم صبية النار » ، هي الكلمة التي قالها النبي صلى الله عليه وآله لعقبة بن أبى معيط حين قتله صبرا يوم بدر ، وقد قال كاستعطف له عليه السلام : من للصبية يا محمد ؟ قال : النار . وعقبة بن أبى معيط من بنى عبد شمس . ولم يعلم الراوندى ما المراد بهذه الكلمة ، فقال : صبية النار أولاد مروان بن الحكم الذين صاروا من أهل النار عند الملوك ، ولما أحرى النبي صلى الله عليه وآله عنهم بهذه الكلمة كانوا صبية ، ثم تعرّعوا واحتاروا الكفر ، ولا شبهة أن الراوندى قد كان يصر من خاطره ما خطر له .

قال : قوله عليه السلام : « ومنا حير ساء لعالين » ، يعنى فاطمة عليها السلام ، نصر رسول الله صلى الله عليه وآله على ذلك ؛ لا خلاف فيه .

« ومنكم حائلة الخطب » ، هي أم جميل بنت حرب بن أمية ، امرأة أبى لهب الذى ورد نص القرآن فيها بما ورد .

قوله : « فى كثير مما لنا وعليكم » ، أى أنا قادر على أن أذكر من هذا شيئا كثيرا ، ولكنى أكتفى بما ذكرت .

فإن قلت : فبماذا يتعلق « فى » فى قوله « فى كثير » ؟ قلت : بمحنوف تقديره : هذا الكلام داخل فى جملة كلام كثير تنصص منا وعليكم .

قوله عليه السلام : « فإسلامنا ما قد مُنع ، وجهلينا لا تدفع » ، كلام قد تعلق به

بعض من يعصب للأُموية . وقال : لو كانت جاهلية بنى هاشم في الشرف كإسلامهم
لعد من جاهليتهم حسب ما عد من فضيلتهم في الإسلام .

[فضل بنى هاشم على بنى عبد شمس]

وينبني أن ذكر في هذا الموضع فصل هاشم على عبد شمس في الجاهلية ، وقد يمتزج
بذلك بعض ما يمتازون به في الإسلام أيضا ، فإن استقصاءه في الإسلام كثير ، لأنه لا يمكن
جمع ذلك ، وكيف والإسلام كله عبارة عن محمد صلى الله عليه وآله ، وهو هاشمي !
وَيَدْخُلُ فِي حِمْنِ ذَلِكَ مَا يَحْتَاجُ بِهِ الْأُمَوِيَّةُ أَيْضًا ، فنقول : إن شيوخنا أبا عثمان قال : إن
أشرف حصال قريش في الجاهلية اللّواء ، والنَّدْوَةُ ، والسُّقَايَةُ ، والرُّفَادَةُ ، وزمرهم ، والحجابه
وهذه الخصال منسوبة في الجاهلية لبنى هاشم وعبد الدار وعبد العزى دون بنى عبد شمس .
قال : قُلَى أَنْ مُعْطِمَ ذَلِكَ صَارَ شَرْفُهُ فِي الْإِسْلَامِ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وآلِهِ لَمَّا مَلَكَ مَكَّةَ صَارَ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ بِيَدِهِ ، فَدَفَعَهُ إِلَى عِثَانَ بْنِ طَلْحَةَ ، فَالشَّرَفُ رَاحِعٌ
إِلَى مَنْ مَلَكَ الْمِفْتَاحَ ، لَا إِلَى مَنْ دَفَعَ إِلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ دَفَعَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اللَّوَاءُ إِلَى
مُصَاصِ بْنِ عُمَيْرٍ فَالَّذِي دَفَعَ اللَّوَاءَ إِلَيْهِوَ حَذَّه مُصَاصٌ مِنْ يَدَيْهِ أَحَقُّ بِشَرْفِهِ وَأَوْلَى بِمَحَبَّتِهِ
وَشَرْفُهُ رَاحِعٌ إِلَى رَهْطِهِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ .

قال : وكان محمد بن عيسى المحرومي أميراً على اليمن ، فبهجاه أئمة من مُدْلِجٍ فقال :

قل لابن عيسى المستغني شير من الشهوة بالوعورة
الناطق القوراء في جل الأمور بلا بصيرة
ولدت المعسيرة تسعة كانوا صناديد العشرة^(١)

وأبوك عاشرم كما نبتت مع النخل الشعيرة
إن النبوة والخلافة والسقاية وللشورى
في غيركم فاكفئ إله لك بدأ مجذمة قصيرة

قال : فأبرئ له شاعر من ولد كرز بن حبيب بن عبد شمس ، كان مع محمد بن عيسى باليمن يهجو عنه ابن مدج في كلمة له طويلة ، قال فيها :

لا لولا يمدُّ يان كرز لا ولا رفد ينسب ذى السقاء
لاحباب وليس فيكم سوى الكذِّر وبعض النبي والشهداء
بين حاله ومحتاج وطريد وقتيل بئس أهمل السقاء
ولم زمر كذاك وحيد لى ونخذ السقاية القراء

قال شيخنا أبو عثمان : فالشهداء عليّ وحمزة ، وحفص ، والحاكم والمختار هو الحكم ابن أبي العاص ، كان يحكي مشية رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالتقت يوما فرآه ، فدعا عليه ، فلم يزل يحاج المشية عقوبة من الله تعالى^(١) ، والطريد اثنان : الحكم بن أبي العاص ، ومعاوية بن النخيلة بن أبي العاص ، وهما جدا عبد الملك بن مروان من قبل أمه وأبيه .

وكان النبي صلى الله عليه وآله طرد معاوية بن النخيلة هذا من المدينة وأجله ثلاثا فحيزه الله ، ولم يزل يتردد في صلاه حتى تمت في أثره عليا عليه السلام وحمارا فقتلاه . فأما القتل فكثير ، نحو شيبه وعتبة ابن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وحظالة بن أبي سفيان وعُتبة بن أبي معيط ، والعاص بن سعيد بن أمية ، ومعاوية بن النخيلة ، وغيرهم .

قال أبو عثمان : وكان اسم هاشم عمرا ، وهاشم لقب ، وكان أيضا يقال له القمر ، وفي ذلك يقول مطرود الخزاعي :

(١) كذا في الأصول ، وفي حاشية ابن الأثير : « كان يجلس حطب النبي عليه السلام ، فإذا تكلم اختلط بوجهه ، مرآه فقال له : كن كذلك ، فلم يزل يجتمع حتى مات . أي يحرك شفتيه ودقته استهزاء وحكاية لفعل النبي عليه السلام » .

إلى القعر السارى المنير دعوته ومطعمهم في الأزل من قمع الجزر^(١)
قال : ذلك في شيء كان يسه ويمن مصر قريش ، فدعاه مطرود إلى الحماكة إلى
هاشم ، وقال ابن الزبيري :

كانت قريش بيضة فنفقت فالح خالصه لعبد مناص
الرايثون وليس يوجد رانش والقائلون هلم للأضياف
عمرو العلى هشم الزيد لقويم ورجال مكة مسنون بجاف^(٢)
فم كما نرى أهل مكة بالأزل والمعطف ، وجعله الذي هشم لم انخر تريبا ،
فقلب هذا اللقب على اسمه حتى صار لا يعرف إلا به ، وليس لعبد شمس لقب كريم ،
ولا اشتق له من صالح أعماله اسم شريف ، ولم يكن لعبد شمس ابن يأخذ بضبعه ،
ويرفع من قدره ، ويريد في ذكره ، ولهاشم عبد للطلب سيد الوادي غير مدافع ،
أجل الناس حمالا ، وأظهرهم جودا ، وأكلهم كالا ، وهو صاحب القيل ، والعلير
الأنابيل ، وصاحب رمرم ، وساق الحبيب ، وولد لعبد شمس أمية من عبد شمس وأميه
في نسه ليس هناك ، وإنما ذكر بأولاده ولا لقب له ، ولعبد للطلب لقب شهيد واسم
شريف : شبة الحد ، قال مطرود الخراعي في مدحه :

يا شبة الحد الذي تنق له أياؤه من خير دخر الداخر
المجد ما حجت قريش يته ودعا هديل فوق غصن ناصر
والله لا أنساكم وفعالكتم حتى أعت في سفاة القابر
وقال حذافة بن عاتم العدوي وهو يمدح أبا لهب ، ويوصي ابنه خارجة بن حذافة
بالانتماء إلى بني هاشم :

أحارج إنا أهيككن فلا نزل لم شاكرنا حتى نعيب في القبر

(١) القمع بالتحريك : جمع قمة ، وهي أعلى المسام والجر (بضمين) وسكن هب للشعر : جم
جرور ، وهي الناقة .
(٢) في البيت لقواء .

بني شعبة الحمد الكريم فعله بضوء طلام الليل كاتمير البدر
 لياقي الحجيج ثم للشيخ هاشم وعبد مناف ذلك السيد العمر
 أبو عتبة الملقى إلى جواره أعره هجان اللون من نقر غر
 أبوكم قصي كان يدعى محمداً به جمع الله القائل من فخر
 فأبو عتبة هو أبو لهب ، عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، وأبناء
 عتبة وعتبة .

وقال العدي حين احتفل في الجاهلية فم يترك :
 لا ترى في الناس حياً مثلاً صاحباً أولاد عبد المطلب
 وإنما شرف عبد شمس نأيه عبد مناف من قصي وبني أمية بن عبد شمس ،
 وهاشم شرف نفيه ونأيه عبد مناف ، ونأيه عبد المطلب ، والأمر في هذا بين ، وهو
 كما أوضحه الشاعر في قوله :

إنما عبد مناف جوهر زبن الجوهز عبد المطلب

قال أبو عثمان : ولستأقول : إن عبد شمس لم يكن شريفاً في نفسه ، ولكن الشرف
 يتفاضل ، وقد أعطى الله عبد المطلب وزمناً ، وأحرى على يديه ، وأظهر من كرامته
 ما لا يعرف مثله إلا لبيّ مرسل ، وإن في كلامه لأثره صاحب الفيل وتوعده إياه رب
 الكعبة وتحقيق قوله من الله تعالى ونصرة وعبيده بحبس الفيل ، وقتل أصحابه بالطير الأبايل
 وحجارة السحيل حتى تركوا كالمصفاة كواكب - لأعجب البهائم ، وأسنى الكرامات ،
 وإنما كان ذلك إرهاباً للنبوة التي صلى الله عليه وآله ، وتأسيساً لما يريد الله به من الكرامة ،
 وليجعل ذلك الهاء متقدماً له ، ومردوداً عليه ، وليكون أشهر في الآفاق ، وأجل في
 صدور القرائع والجبابرة والأكاسرة ، وأحذر أن يقهر للعبيد ، ويكشف غباوة
 الجاهل . وبعد ، فمن يباهض ويأبيل رجالاً ولدوا محمداً صلى الله عليه وآله ، ولو هزلنا

مأ كرمه الله به من النبوة حتى تنصر على أخلاقه ومذاهبه وشيخه لما وفي به بشر ،
ولا عدله شيء ، ولو شئنا أن نذكر ما أعطى الله به عبد المطلب من تفجير العيون وبنابيع
الماء من تحت كنگل بعيده وأحفافه بالأرض القسي^(١) ، وبما أعطى من المساهمة عند المقارعة
من الأمور العجيبة ، وانخراط البائنة ، لقننا ، ولكننا أحببنا ألا نخرج عليكم إلا
بالموجود في القرآن الحكيم ، والمشهور في الشعر القديم ، الظاهر على السنة الخاصة والمأ
ورواة الأخبار وحال الآثار .

قال : ومما هو مذكور في القرآن عدا حديث العيل قوله تعالى : ﴿ لإيلافِ
قُرَيْشٍ ﴾ ، وقد أحصت الرواة على أن أول من أحد الإيلاف قريش هاشم بن
عبد مناف ، فلما مات قام أخوه المطلب مقامه ، فلما مات قام عبد شمس مقامه ، فلما مات
قام نوفل مقامه - وكان أصغرهم . والإيلاف ، هو أن هاشما كان رجلا كثير الشعر والتجارة ،
فسكان يسافر في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام ، وشرك في تجارته رؤساء القبائل
من العرب ومن ملوك اليمن والشام نحو العباينة باليمن ، واليكسوم من بلاد الحبشة ،
ومع ملوك الروم بالشام ، فعمل لهم معه ربحا فيما يربح ، وساق لهم إبلا مع إبله ، فكفاهم
مؤونة الأسفار ، على أن يكفوه مؤونة الأعداء في طريقه ومصرفه ، وكان في ذلك صلاح
عام للعربيين ، وكان المقيم رابحا ، والمسافر محفوظا ؛ فأخصت قريش بذلك ، وسميت معه
أموالها ، وأتاها الخير من البلاد السافرة والعالية ، وحسنت حالها ، وطاب عيشها . قال :
وقد ذكر حديث الإيلاف الحارث بن الحش السلمي ، وهو حال هاشم والمطلب
وعبد شمس ، فقال :

إِنْ أَخَى هَاشِمًا لَيْسَ أَخًا وَاحِدًا

الْأَخِذِ الْإِيلَافَ وَالْقَائِمِ لِلْقَاعِدِ

قال أبو عثمان : وقيل : إن تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ هو

خوف من كان هؤلاء الإخوة يمترون به من القبائل والأعداء وهم مفتربون ومعهم

(١) الأرض القسي : التي لا تثبت مائتا .

الأموال ؛ وهذا ما فسرنا به الإيلاف آتاه ؛ وقد فسر قومٌ بغير ذلك ، قالوا : إن هاشما جعل على رؤساء القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحیی بها أهل مكة ، فإن ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الغارات وطُلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدرا ، مثل طي . وختم وقضاة وبعض تلحارث بن كعب ، وكيفما كان الإيلاف فإن هاشما كان القائم به دون غيره من إخوته .

قال أبو عثمان : ثم حلف الفضول وجلالته وعظمته ، وهو أشرف حلف كان في العرب كلها ، وأكرم عقد عقدته قريش في قديمها وحديثها قبل الإسلام لم يكن لشي عبد شمس فيه نصيب . قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يدكر حلف الفضول : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حينما لو دُعيت إلى مثله في الإسلام لأحت » . وبكفي في حلالته وشرقه أن رسول الله صلى الله عليه وآله شهد به وهو غلام ، وكان عتبة بن ربيعة يقول : لو أن رجلا خرج مما عليه قومه لداحلت في حلف الفضول ، لما أرى من كاله وشرفه ، ولما أعلم من قدره وفصيحته .

قال : ولعل ذلك الحلف وقصيلة أهله سمي حلف الفضول ، وسميت تلك القبائل الفضول ، فكان هذا الحلف في بني هاشم ، وبني المطلب ، وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة ، وبني تميم بن مرة ، تعاقدوا في دار ابن جدعان في شهر حرام قياما يتماشون بأكفهم صعدا ليكون مع المظلوم حتى يؤدوا إليه حقه ما بلى بحر صوفة ، وفي التآسي في المعاش والتسام بالمال . وكانت الساهفي هذا الحلف لزيد بن عبد المطلب ولعبد الله بن جدعان ، أما ابن جدعان فلا أن الحلف عقد في داره ؛ وأما الزبير فلا أنه هو الذي نهض فيه ، ودعا إليه ، وحث عليه ، وهو الذي سماه حلف الفضول ، وذلك لأنه لما سمع الزبير يمدى المظلوم

ثُمَّ سَلَعَتْهُ قَدْ أَوْفَى عَلَى أَبِي قَيْسٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ وَقُرَيْشَ لِي
أَنْدِيَّتِهَا قَاتِلًا :

بِالزَّجَالِ لِمُظْلَمٍ بِصَاعَتِهِ يَبْتَغِي مَكَّةَ نَائِي الْحَيِّ وَالنَّفَرِ
إِنَّ الْحَرَامَ إِنْ تَمَّتْ حَرَامَتُهُ وَلَا حَرَامَ لَثَوْبِي لِأَبِي الْقَدْرِ
تَحِيَّ وَحَلَفَ لِيَعْقِدَنَّ حِلْفًا بَيْنَهُ وَيُنَظَّرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ يَمْنَعُونَ الْقَوَى مِنْ ظُلْمِ
الضَّعِيفِ ، وَالْقَاطِنِ مِنْ عَنَفِ الْعَرِيبِ ، ثُمَّ قَالَ :

حَلَفْتُ لِمُعَقِدٍ حِلْفًا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلَ دَارِ
نُسَمِّيهِ الْمُضُولَ إِذَا عَقَّدْنَا يَمُرُّ بِهِ الْعَرِيبُ لَدَى الْجَوَارِ
وَيَعْلَمُ مَنْ حَوَالَى الْبَيْتِ أَنَّ أَبَا الْعَصَمِ نَهَرُ كُلِّ طَارِ
فَبَرَّ هَاشِمُ هَمَّ الدِّينِ سَمَّوْا ذَلِكَ الْخَلْفَ حِلْفَ الْمُضُولِ ، وَهُمْ كَانُوا سَبِيهِ ، وَالْقَائِمِينَ بِهِ
دُونَ جَمِيعِ الْقِبَائِلِ الْعَاقِدَةِ لَهُ ، وَالشَّاهِدَةِ لِأَمْرِهِ ، فَخَلَفْتُ بَيْنَ شَيْدِهِ وَلَمْ يَقُمْ بِأَمْرِهِ !
قَالَ أَبُو عَمَّارٍ : وَكَانَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ شِعَابًا أَيْيًا ، وَجِيلًا بَهِيًا ، وَكَانَ حَطِييًّا
شَاعِرًا ، وَسَيِّدًا جَوَادًا ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

وَلَوْلَا الْحَسُّ لَمْ يَلْبَسْ رَجَالٌ ثِيَابَ أَهْزَةٍ حَتَّى يَمُوتُوا
ثِيَابُهُمْ شِمَالٌ أَوْ عَصَا بِهَا دَنَسٌ كَمَا دَنَسَ الْحَيْتُ ^(١)
وَلَكِنَّا خَلَقْنَا إِذَا حَلَقْنَا لَهَا الْحَبْرَاتُ وَالْمِسْكُ الْفَنِيْتُ ^(٢)
وَكَأْسٌ لَوْ تُبَيِّنَ لَمْ يَكَلَامَا لَقَالَتْ إِنَّمَا لَمْ تُبَيِّنْ ^(٣)
تُبَيِّنْ لَنَا الْقَدَى إِنْ كَانَ فِيهَا رَصِينُ الْحَسَمِ يَشْرِبُهَا هَيْتُ ^(٤)

(١) الْحَيْتُ ، كَأَمِيرٍ : الزُّبَيْرُ الصَّغِيرُ يَتَحَفَّزُ لِلْحَسَنِ .

(٢) الْحَبْرَاتُ ، بِكَسْرِ قَفْطَحٍ : صَرْبُهُ مِنْ رُودِ الْيَمِينِ . وَالْفَنِيْتُ وَالْمُنُوتُ يَعْنِي .

(٣) سُبَيْتٌ : جَلْبَتٌ . (٤) الْحَيْتُ : الْجَبَابُ الْفَاضِلُ .

ويقطع نخوة المختل عنا رقيق الحد ضربته صموت
بكف مجرب لا عيب فيه إذا لقي الكرمه يستميت
قال : والزبير هو الذي يقول :

وأسحم من راح العراق مملأ محيط عليه الجيش جلد من امرأة
صبت به طلقا يراح إلى الندى إذا ما انشئ لم يختصره معاقره
صيف يحب الكأس قمض ناله كليل على جلد النديم أخافره

قال : وسرهاشم هم الذين ردوا على الربيدي ثمن بضاعته ، وكانت عبد العاص
ابن وائل ، وأحدوا للسارق ثمن سلعة من ابن بن حلف الجحى ، وفي ذلك
يقول البارقي :

ويأى لكم حلف الفضول خلاص بنى الجمع والحق يؤخذ بالنصب
وهم الذين ائزعوا من نبيه بن الحجاج تقول الحسله بنت الناهر الحنصلي ، وكان كاهنه
عليها حين رأى جمالها ، وفي ذلك يقول بيه بن الحجاج :

وحشيت الفضول حين أتوني قد أراني ولا أخاف الفضولا
إني والذي ينجح له ثم طأ إياي وهقلوا تهليلا
لبراء مني قتيلا بالله لاس هل ينعون إلا القتولا
وفيها أيضا يقول :

لولا الفضول وأه لا أتم من عرواتها^(١)
لذنوت من أياتها ولطفت حول خيبتها^(٢)

(١) العرواء ، كالفلواء : قرة الحمى ومسها في أول عدتها .

(٢) الجباء ككساء ، يكون من وبر أو صوف أو شعر .

في كلكته التي يقول فيها :

حَيُّ الشَّخِيلَةِ إِذْ مَاتَ مَنْ عَلَى عُذَوَاتِهَا
لَا بِالْفِرَاقِ تُذِيلُنَا شَيْئًا وَلَا بِلِقَائِهَا
حَلَّتْ بِمَكَّةَ حَلَّةً فِي مَشْيِهَا وَوُطْأَتِهَا

في رجال كثير انتزعوا منهم الطلعات ، ولم يكن يظلم عمكة إلا رجال أقوياء ، ولم
العدد والعارضة ، منهم من ذكرنا قصته .

قال أبو عثمان : ولهاشم أخرى لا يمتدُّ أحدٌ مثلها ، ولا يأتي بما يتعلق بها ، وذلك
أن رؤساء قبائل قريش حرموا إلى حرب بن عامر مفسدين ، فكان حرب بن أمية
على بني عبد شمس ، وكان الربيع بن جندب المطلب على بني هاشم ، وكان عبد الله بن
جدعان على بني تيم ، وكان هشام بن العيص على بني محروم ، وكان على كل قبيلة رئيس
مها ، فهم متكاثرون في النسيان ، ولم يحقق واحدٌ منهم الرئاسة على الجميع ، ثم أبى
هاشم بما لا تلبسه يدٌ متناول ، ولا يطعم فيه طامع ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله
قال : شهدت الفجار وأنا غلام ، فكنت أسبل فيه على عومتى ، ففتى مقامه عليه السلام
أن تكون قريش هي التي تحترق ، فسميت تلك الحرب حرب الفجار ، وثبت أن الفجور
إنما كان ممن حاربهم ، وصاروا يمينه وبركته ولما يريد الله تعالى من إعرار أسرته وإعظامه
الغالبين الصالحين ، ولم يكن الله ليُشهده فجرة ولا غدرة ، فصار مشهده نصراً ،
وموصفه فيهم حجةً ودليلاً .

قال أبو عثمان : وشرف هاشم متصل ، من حيث عددت كان الشرف معك كابرًا
عن كابر ، وليس بنو عبد شمس كذلك ، فإن الحكم بن أبي العاص كان عاديًا
في الأعلام ، ولم يكن له سناء في الهاشمية .

وأما أمية فلم يكن في نفسه هناك ، وإنما رفعه أبوه ، وكان مضموفا ، وكان صاحب
عُمَار^(١) يدلُّ على ذلك قول قيل بن عدى جدِّ عمر بن الخطاب حين تنافر إليه
حربُ بن أمية وعبدُ المطلب بن هاشم ، فنفرَ عبدُ المطلب وتجبَّ من إقدام حربٍ
عليه وقال له :

أَبُوكَ مُعَاهِرٌ وَأَبُوهَ عَفٌّ وَذَادَ الْقَيْلَ عَنْ بَلَدِهِ حَرَامٌ^(٢)

وذلك أن أمية كان تعرض لامرأة من بنى زهرة ، فضر به رجل منهم بالسيف ،
فأراد بنو أمية ومن تبعهم إخراج زهرة من مكة ، فقام دونهم قيسُ بن عدى السهمي -
وكانوا أحواله ، وكان منيع الجانب ، شديد العارضة ، حَيُّ الأنفس ، أُنْبَى النفس - فقام
دونهم وصاح : « أصبح ليلٌ » ، فذهبت مثلا ، وتنادى : الآن القلاعنُ مقيم . وفي هذه القصة
يقول وهب بن عبد مناف بن زهرة جدُّ رسول الله صلى الله عليه وآله :

مَهْلَا أُمِّي فَإِنَّ الْبَنَى مَهْلَكَةٌ لَا يَكْسُتُكَ يَوْمَ شَرِّهِ ذَكَرُ

تَبْدُو كَوَاكِبَهُ وَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ يُصْبِي الكَأْسَ مِنْهُ الصَّبْرُ وَالْقِرُّ^(٣)

قال أبو عثمان : وصنع أمية في الجاهلية شيئا لم يصنعه أحدٌ من العرب ، زوج ابنه
أبا عمرو امرأته في حياته منه ، فأولدها أمامعيط بن أبي عمرو بن أمية . والمقيتوني الإسلام هم
الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم ، فأما أن يتزوجها في حياة الأب ويبنى عليها وهو
يراه ؛ فإنه شيء لم يكن قط .

قال أبو عثمان : وقد أقرت معاوية على نفسه ورهطه لبني هاشم حين قيل له : أيُّهما
كان أسود في الجاهلية ؟ أتم أم بنو هاشم ؟ فقال : كانوا أسودَ منا واحدا ، وصكنا

(١) العُمار : الرق والخفة والطيش .

(٢) ذاد القيل : ككف : الصبر أو شبيه به .

(٣) ذاد القيل : منه .

أكثر منهم سيّدا ؛ فأقرّ وادّعى ، فهو في إقراره بالنقص مخصوم ، وفي ادّعائه الفضل خصيم

وقال جعش بن رثاب الأسدي حين نزل مكة بعد موت عبد المطلب : والله لا تزوجن ابنة أكرم أهل هذا الوادي ، ولا أحسن أعزهم ، فزوج أسيمة بنت عبد المطلب ، وحالف أبا سفيان بن حرب . وقد يمكن أن يكون أعزهم ليس بأكرمهم ، ولا يمكن أن يكون أكرمهم ليس بأعزهم ؛ وقد أقرّ أبو حنبل على نفسه ورهطه من بني مخزوم حين قال : تحاربنا نحن وهم ، حتى إذا صرنا كهنيين قالوا : منابني . فأقرّ بالنقصير ، ثم ادّعى المساواة ؛ ألا تراه كيف أقرّ أنه لم يزل يطلب شأوم^(١) ثم ادّعى أنه لحقهم ! فهو مخصوم في إقراره ، خصيم في دعواه ، وقد حكم له هاشم دفع بن حنظلة التتامة حين سأله معاوية عن بني هاشم : فقال : هم أطعم للطعام وأضرب للهام^(٢) ، وهانان حصلتان يجمعان أكثر الشرف .

قال أبو عثمان : والعجب من منافرة حرم بن أسيمة عبد المطلب بن هاشم ، وقد أظم حرب حاراً لحلف بن أسعد جد طليعة الطلعات ، فجاء جاره فشكا ذلك إليه ، فمشى خلف إلى حرب وهو جالس عند الحجر ، فطم وجهه عنوة من غير تحاكم ولا تراضٍ ، فما انتطخ فيه عثران^(٣) . ثم قام أبو حنبل بن حرب مقام أبيه بعد موته ، فخالفه أبو الأزيهر الدؤسي ، وكان عظيم الشأن في الأزد ، وكانت بينه وبين بني الوليد بن العيرة محاكمة في مصاهرة كانت بين الوليد وبينه ، فجاء هشام بن الوليد وأبو الأزيهر قاعداً في مقعد أبي سفيان بندي الحجاز ، فصرّب عنقه ، فلم يدرك به أبو سفيان عقلاً ولا قوداً في بني المنيرة . وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك :

(١) الشاؤم : الناية .

(٢) الهام : الرموس .

(٣) هذا مثل يضرب للأمر يقع ولا يجتنب فيه العثران .

غدا أهل حصني ذى الحارِ بخرية وجارُ ابنِ حزمٍ لا يروح ولا يعدو
كالك هاشم بن الوليد نسابه قابل وأحلق مثلها جُـدًا بعد

هذه جملة صالحة مما ذكره شيخنا أبو عثمان .

ونحن نورد من كتاب "أسباب قريش" للزبير بن بسكار ما يتضمن شرحا لما
أجمله شيخنا أبو عثمان أو لبعضه ، فإن كلام أي عثمان لحة وإشارة ، وليس بالمشروح .
قال الزبير : حدثني عمر بن أبي بكر المدوي من بني عدى بن كعب قال : حدثني
يزيد بن عبد الملك بن المعيرة بن نوفل ، عن أبيه ، قال : اصطلحت قريش على أن ولي
هاشم بعد موت أبيه عبد مناف السقاية والرئاسة ، وذلك أن عبد شمس كان يسافر ، قل
أن يقيم بمكة ، وكان رجلا ميعلا^(١) ؛ وكان له ولد كثير ، وكان هاشم رجلا مؤسرا ،
فكان إذا حضر الحج قام في قريش فقال : يا معشر قريش ، إنكم حيران الله ، وأهل
بيته ، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم لذلك صيف الله ،
وأحق ضيف بالكرامة صيف الله ، وقد خصكم الله بذلك ، وأكرمكم به ، ثم حفظ
منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ؛ فأكرموا ضيفه وزواره ؛ فإنهم يأتون
شعثا غبرا من كل بلد صوامير كالقيداح ، وقد أرجفوا وتملأوا وقلوا^(٢) وأرملوا ، فأقروم
وأعينوم . قال : فكانت قريش تترافد على ذلك ، حتى إن كل أهل بيت ليرسلون
بالشيء اليسير على قدر حالهم ، وكان هاشم يخرج في كل سنة مالا كثيرا ، وكان قوم
من قريش يترافدون ؛ وكانوا أهل يسار ، فكان كل إنسان مما أرسل بمائة مثقال ذهب هرقلية^(٣)

(١) يقال : أعال الرجل يعبل ؛ إذا كثرت عياله .

(٢) أرجفوا : أكتفوا من ذكر الأبحار الليثة ، وقلوا : كثرت فيهم القمل . وأرملوا : فقد زادم .

(٣) هرقلية : مئة لك هرقل ملك الروم ؛ وهو أول من صرب الدنياير .

وكان هاشم يأمر بجياض من آدم تجعل في مواضع زمزم من قبل أن تحفر ؛ يستقى فيها من البئر التي بمكة ، فيشرب الحاج ، وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل يوم التروية يوم مكة ويمنى ويجمع وعرفة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر ، ويحمل لهم الماء فيسقون بمى ، والماء يومئذ قليل ، إلى أن يصدر الحاج من مئى ، ثم تنقطع الصياقة ، وتنفرق الناس إلى بلادهم .

قال الزبير : وإنما سمي هاشما لحشمه الثريد ، وكان اسمه عمرا ، ثم قالوا : « عمرو العلاء » لمعاليه . وكان أول من سى الرحلتين : رحلة إلى الحدة ، ورحلة إلى الشام ، ثم خرج في أربعين من قريش فبلغ عرفة ، فمريض بها ، فمات ، فدفنوه بها ، ورحموا تركته إلى ولده . ويقال : إن الذى رجع تركته إلى ولده أبو رهم عبد المرى بن أبي قيس العامرى من نبي عامر بن لؤى .



قال الزبير : وكان يقال لهاشم والمطلب : التذراب ، ولعند شمس وتوفل الأنهران . قال الزبير : وقد احتلف فى أى ولد عبد مناف أسن ، والثبت عندنا أن أسهم هاشم . وقال آدم بن عبد العزيز بن حماد بن عبد العزيز بن مروان :

يا أمين الله إني قائل
قول دى دين ويز وحسب
عبد شمس لا تمها إنما
عبد شمس عم عبد المطلب
عبد شمس كان يتلو هاشما
وما بعد لأمر ولأب

قال الزبير : وحدثني محمد بن حسن ، عن محمد بن طلحة ، عن عثمان بن عبد الرحمن ، قال : قال عبد الله بن عباس : والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الإيلاف وأجاز لها العيرات ^(١) لهاشم ، والله ما شدت قريش رحالا ولا حملا بسفر ، ولا أناخت بعيرا لحضر

(١) العيرات ، بكسر ففتح : كل ما امتير عليه زبلاكات أو حميرا أو بنالا ، واحده عير .

إلا هاشم ، والله إنه أول من سقى بمكة ماء عندها ، وجعل باب الكعبة ذهاباً لعبد للطلب . قال الزبير ، وكانت قريش تخاراً لا تعدو تجارتهم مكة إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، يتبايعون بها بينهم ، ويبيعون من حولهم من العرب ، حتى رحل هاشم ابن عبد مضاف إلى الشام ، فزل قيصر ، فكلد يذبح كل يوم شاة ، ويصنع جفنة من ثريد ، ويدعو الناس فيأكلون ، وكان هاشم من أحسن الناس خلقاً وتاماً ، فذكر لقيصر ، وقيل له : هاها شاب من قريش يشتم الخبز ، ثم يصب عليه المرق ، ويفرغ عليه اللحم ، ويدعو الناس . قال : وإنما كانت لأعاجم والروم تصنع المرق في الصُحاف ، ثم تأتدم عليه بالخبز ، فدعا به قيصر ، فما رآه وكلمه أحب به ، وحمل يرسل إليه فيدخل عليه ، فلما رأى مكانه سأله أن يذن لقريش في القدوم عليه بالتأخر ، وأن يكتب لهم كتب الأمان فيما بينهم وبينه ، ففعل . فبذلك أرتفع هاشم من قريش . قال الزبير : وكان هاشم يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشاً فيقول : يا مشر قريش ، أتم سادة العرب ، أحسبها وحوها ، وأعظمها أحلاماً ، وأوسطها أساءاً ، وأقربها أرحاماً . يا مشر قريش ، أتم جيران بيت الله ، أكرمكم بولايتيه ، وحصصكم بحواره دون بني إسماعيل ، وحفظكم منكم أحسن ما حفظ منكم حارث من جاره ، فأكرموا صيفه ورؤاى بيته ، فإنهم يأتونكم شعثاً غبراً من كل بلد . قورب هذه الدنيا ، لو كان لي مال يحمل ذلك لكميشموه ، ألا وإني أخرج من طيب مالي وحلاله ما لم تقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ ظلمي ، ولم يدخل فيه حرام ، فواضئه ؛ فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج منكم رجل من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً ، ولم تقطع فيه رحم ولم يفتصب . قال : فكانت قريش تخرج من صفو أموالها ما تحمله أحوالها ، وتأتي بها إلى هاشم فيضعه في دار الندوة لضيافة الحاج .

قال الزبير : ومما رثى به مطرود الخراعي هاشماً قوله :

مات الندي بالشام ل أن ثوى أودى بمرّة هاشم لا يبعد
فجعاؤه رُدْمٌ لمن بنى به والنصر أدنى باللسان وباليد^(١)

ومن مرثيته له :

يا مينا جودي وأذرى الدمع واحتلى وأبى خبيثة نفي في اللات
وأبى على كل قياض أحى حسبي صمّ الدّبيعة وهاب الجزيلات
ماضي الصريفة على الممّ ذى شرف حلد النّجيزة تحال العظيمات
صعب المقادة لا ينكس ولا وغل ماض على المول يتلاف الكريمات
تخص توسط من كعب إذا سوا ملحوعة المخذ في الشمّ الرقيمات
فأنكى على هاشم و وسط الكعبة أنقى الرياح عليه وسط غزات
يا عين نكى أبا النّفس الشّجيات سبكينة حسراً مثل النديات
يبكين عمرو السلا إاد حان مصرعه تمنع السّحبة بسام الصّنيات
يبكيتته مقولات في معاويرها باطول ذلك من حزن وعولات
محرمات على أوساطهنّ لما حرّ الزمان من أحداث المصدمات
أيت أروعى بحوم الليل من ألم أنكى وتبكي مبي شجوا بنياني

قال الزبير : وحدثني إبراهيم بن المديّر ، عن الواقدي ، عن عبد الرحمن بن الحارث ،
عن عكرمة ، عن أن عباس ، قال : أول من سنّ دية النفس مائة من الإبل عبد المطلب ،
فجرت في قریش والعرب سنته ، وأقرّها رسول الله صلى الله عليه وآله . قال : وأم
عبد المطلب سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد ، من بني النّجار من الأنصار ، وكان سبب

(١) ل ب د ر د م ، ، بالبدال صوابه من : د والردم ككعب : التصاع المنتهية تصب جوانبها .

تزوج هاشم بها أنه قديم في تجارة له المدينة ، فنزل على عمرو بن زيد ، فجاءته تسلي بطعام فأعجبت هاشم ، فخطبها إلى أبيها ، فأكسجه إياها ، وشرط عليه أن تلبس عند أهلها ، فبقي عليها بالمدينة ، وأقام معها سنتين ، ثم ارتحل بها إلى مكة ، فحلبت وأثقلت ، فخرج بها إلى المدينة ، فوضعها عند أهلها ، ومضى إلى الشام ، فمات بفزة من وجهه ذلك ، وولدت عبد المطلب ، فسمته شيبه الحمد لشجرة بيضاء كانت في ذوائبه حين ولد ؛ فكث بالمدينة ست سنين أو ثمانيا . ثم إن رجلا من تهامة مرَّ بالمدينة ، فإذا غلمان ينتصلون ، وغلّامٌ منهم يقول كلما أصاب : أنا ابن هاشم بن عبد مناف ، سيّد البطحاء ، فقال له الرجل : من أدت بإعلام ؟ قال : أنا ابن هاشم بن عبد مناف . قال : ما اسمك ؟ قال : شيبه الحمد ، فأنصرف الرجل حتى قديم مكة ، فبعد للمطلب بن عبد مناف حالاً في الحجر ، فقال : قم إلى يابا الحارث ، فقام إليه ، فقال : تعلم أي حريم الآن من يثرب فوجدتُ بها غلماناً ينتصلون ... وسمعتُ عليه ما رأى لمن عبد للمطلب ، وقال : إنه أضرب غلاماً رأيتُه قط ، فقال له المطلب : أعلته والله ! أما إني لا أرحم إلى أهل ومالي حتى آتية ، فخرج المطلب حتى أتى المدينة ، فأتاها عشاء ، ثم خرج براحله حتى أتى بني عدي بن النجار فإذا الغلمان بين ظهري المجلس ، فما نظر إلى ابن أخيه قال للقوم : هذا ابن هاشم ؟ قالوا : نعم ، وعرفه القوم فقالوا : هذا ابن أخيك ، فإن كنت تريد أخذَه فإلهنا ؛ لأنهم أمه ، فإنها إن علمت حُلماً بيك وبينه . فذبح راحته ، ثم دعاه فقال : يا ابن أخي ، أنا حُك ، وقد أردت الذهاب بك إلى قومك ، فأرگ ، قال : فوالله ما كذب أن جالس على حجر الراحلة ، وجلس المطلب على الراحلة ثم نساها فاطلقت ، فلما علمت أمه قامت تدعو حزنها على أنها ، فأخبرت أنه عمه ، وأنه ذهب به إلى قومه . قال : فأنطلق به للمطلب فدخل به مكة ضحوة ، مُردفه حمله ، والدس في أسواقهم ومجالسهم ، فقاموا يرحبون به ويقولون : من هذا الغلام معك ؟ فيقول : عبد لي أبتعته بغير ، ثم خرج به

حتى جاء إلى الخزوة فأبتاع له حبة ، ثم أدخله على أمراته خديجة بنت سعد بن سهم ، فرجّلت شعره ، ثم ألبسه الخلة عشيّة ، فجاء به فأجلسه في مجلس بني عبد مناف ، وأخبرهم خبره ، فكان الناس بعد ذلك إذا رأوه يطوف في سبائك مكة وهو أحسن الناس يقولون : هذا عبد المطلب - لقول المطلب : هذا عدى - فُلجّ به الاسم ، وترك به شيبة .

وروى الزبير رواية أخرى أن سمى أم عبد المطلب حالت بين المطلب وبين أنها شيبة ، وكان بينها وبينه في أمره محاورة ، ثم علّقها عليه ؛ وقال :

عرفتُ شيبَةَ والبجَارُ قَدْ حَلَمْتُ أتناوُها حوله بالسِّلِ تَنْتَضِلُ

فأما الشعر الذي لحذافة العُدريّ والذي ذكره شيخنا أبو عثمان فقد ذكره الزبير بن بكار في كتاب النسب ، وزاد فيه :

كُهِلَهُمْ حَيْرُ الْكُهُولِ وَنَسَاهُمْ	[كَنَلُ الْمُلُوكِ ، لَا يَبُورُ وَلَا يَجْرِي
مُلُوكٌ وَأَنْشَاءُ الْمُلُوكِ وَمَسَادَهُ	يَفْلِقُ عَنْهُمْ بَيْضَةُ الطَّائِرِ الصَّغِيرِ
مَتَى تَلَقَّ مِنْهُمْ طَائِحًا فِي عَيْبِهِ	تَحْذُهُ عَلَى أَحْرَاءِ وَالِدِهِ يَجْرِي
هَمْ مُلْكُوا الْبَطْعَاءَ تَحْدَأُ وَمُؤَدُّ دَأْ	وَهَمْ نَكَلُوا عَنْهَا عَوَاةَ بَنِي نَكْرٍ
وَهَمْ يَقْعِرُونَ الذَّبَّ بِتَقَمِّ مَشْهُ	وَهَمْ تَرْكُوا رَأْيَ السَّفَاهَةِ وَالْهَجْرِ
أَحَارِجٌ إِمَّا أَهْلِكَنَّ فَلَا تَزَلْ	لَهُمْ شَاكِرًا حَتَّى تُقْبِيَ فِي الْقَبْرِ

قال الزبير : وحدثني عن سبب هذا الشعر محمد بن حسن ، عن محمد بن طلحة ، عن أبيه ، قال : إن ركبنا من حُدَمٍ خَرَحُوا صَادِرِينَ عَنِ الْحِجِّ مِنْ مَكَّةَ ، فَتَقَدُّوا رَحَلًا مِنْهُمْ عَالِيَةَ بَيْوتِ مَكَّةَ ، فَلَيَقُونَ حُذْفَةَ الْعُدْرِيِّ ، فَرَبَطُوهُ وَأَطْلَقُوا بِهِ ؛ فَتَلْقَاهُمْ عَبْدُ الْمَطْلَبِ مَقِيلًا مِنَ الطَّائِفِ وَمَعَهُ أَسْمَةُ أَبُو طَلْبٍ يَقُودُ بِهِ ؛ وَعَبْدُ الْمَطْلَبِ حِينَئِذٍ قَدْ ذَهَبَ بِصَرِّهِ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ حُذْفَةُ بْنُ عَاصِمٍ هَتَفَ بِهِ ؛ فَقَالَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ لِابْنِهِ :

وَيَذَلُّكَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا حُذَافَةُ بْنُ غَانِمٍ مَرْبُوطًا مَعَ رَكْبٍ. قَالَ: فَالْحَقِّقْهُمْ فَسَلِّمْهُمْ حَاشَانُهُمْ وَشَأْنُهُ، فَلَحِقَهُمْ أَبُو لُحَبٍّ فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَرَجَعَ إِلَى أَبِيهِ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: وَيُحَيِّكَ! مَا مَعَكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا مَعِيَ شَيْءٌ. قَالَ: فَالْحَقِّقْهُمْ لَا أُمُّ لَكَ! فَأَعْطَاهُمْ يَدَيْكَ، وَأَطْلَقَ الرَّجُلَ، فَلَحِقَهُمْ أَبُو لُحَبٍّ، فَقَالَ: قَدْ عَرَفْتُمْ تَحَرُّقِي وَمَالِي، وَأَنَا أَحْلِفُ لَكُمْ لِأَعْطَيْتُكُمْ عَشْرِينَ أَوْقِيَّةَ ذَهَبًا، وَعَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ وَفَرَسًا، وَهَذَا رِدَائِي رَهْنٌ. فَقِيلُوا ذَلِكَ مِنْهُ، وَأَطْلَقُوا حُذَافَةَ، فَلَمَّا أَقْبَلَ بِهِ وَقَرُّوا مِنْ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، تَبِعَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ صَوْتَ أَبِي لُحَبٍّ، وَلَمْ يَسْمَعْ صَوْتَ حُذَافَةَ، فَصَاحَ بِهِ: وَأَبِي إِنْكَ لِعَاصٍ! ارجعْ لَا أُمُّ لَكَ! قَالَ: يَا أَثَا هَذَا الرَّجُلُ مَعِيَ! فَفَادَاهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ: يَا حُذَافَةَ! أَسْمَعْنِي صَوْتَكَ. قَالَ: هَئِنَا بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي بِأَسَاقِي الْحَصِيحِ أُرِدْنِي: فَزِدْنِي حَتَّى دَخَلَ مَكَّةَ! فَقَالَ حُذَافَةُ هَذَا الشَّعْرُ.

قال الربيع: وحدثني عبدُ الله بنُ مُعَاوِدٍ عَنْ مُعَمَّرٍ، عَنْ أَبِي شُهَابٍ، قَالَ: أَوَّلُ مَا ذُكِرَ مِنْ عَبْدِ الْمَطْلَبِ أَنْ قَرِيشًا خَرَجَتْ فَارَّةً مِنَ الْحَرَمِ خَوْفًا مِنْ أَصْحَابِ الْقَيْلِ، وَعَدُّ الْمَطْلَبِ يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ شَابٌّ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أُخْرُجُ مِنْ حَرَمِ اللَّهِ أَبَدًا فِي بَيْتِي! فَجَلَسَ فِي الْبَيْتِ وَأُجِجَتْ^(١) قَرِيشٌ عَنْهُ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ:

لَا هُمْ إِنْ الْمَرْءَ يَمُوتُ سَحَّ رَحْلُهُ فَامْتَعَ حَلَالُكَ

لَا يَمْلِكُنَّ صَلَاتُهُمْ وَمَحَالُّهُمْ أَدْنَى مَحَالِّكَ^(٢)

فَلَمْ يَزَلْ ثَابِتًا فِي الْحَرَمِ حَتَّى أَهْلَكَ اللَّهُ الْقَيْلَ وَأَصْحَابَهُ، فَارْجَعَتْ قَرِيشٌ وَقَدْ عَظُمَ فِيهِمْ نَصَبُهُ^(٣) وَتَعَطَّيَتْهُ مَحَارِمُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: فَبَيْنَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ - وَكَانَ أَكْبَرَ وَلَدِهِ وَهُوَ الْحَارِثُ ابْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ قَدْ بَلَغَ الْحُلُمَ - أَرَى عَبْدُ الْمَطْلَبِ فِي الْمَنَامِ، قَيْلًا لَهُ: أَحْفَرِ رَمْزَمَ، خَبِيثَةَ الشَّيْخِ الْأَعْظَمِ. فَاسْتَيْقَظَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لِي الشَّيْخَ، فَأَرَى فِي الْمَنَامِ مَرَّةً أُخْرَى:

(٢) الْحَالُ: الْقُدْرَةُ.

(١) أُجِجَتْ: عُرِقَتْ.

(٣) بَ: بِصِيرَتِهِ، تَحَرُّقِهِ، صَوَابِهِ فِي.

أَخْبَرْتُكُمْ^(١) بَيْنَ الْقَرْنِ وَالْدَّمِ ، فِي سَحْتِ الْغَرَابِ ، فِي قَرْيَةِ النَّمْلِ ، مُسْتَقْبِلَةَ الْأَنْصَابِ
 الْحَزْرَ . قَامَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ فَشَى حَتَّى جَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَنْتَظِرُ مَا يُجِئُ لَهُ مِنَ الْآيَاتِ ،
 فَتَحَرَ بَقَرَةً فِي الْحَزْوَرَةِ ، فَأَفْلَتَتْ مِنْ جَارِرِهَا مُحْشَاةٍ نَفِيسًا حَتَّى غَلَبَ عَلَيْهَا اللَّوْتُ فِي
 الْمَسْجِدِ فِي مَوْضِعِ زَمْزَمَ ، فَاحْتَمَلَ لَحْمَهَا مِنْ مَكَانِهَا ، وَأَقْبَلَ عَرَابَ يَهُوَى حَتَّى وَقَعَ فِي
 الْقَرْنِ فَحَثَّ عَنْ قَرْيَةِ النَّمْلِ ، قَامَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ يَحْفَرُهَا ، فَنَادَتْهُ قَرِيشٌ فَقَالَتْ لَهُ : مَا هَذَا
 الصَّنْعَ ، إِنْ أَلَمْ نَكُنْ نَرَاكَ بِالْجَهْلِ ؛ لِمَ تَحْفِرُ فِي مَسْجِدِنَا ؟ فَقَالَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ : إِنِّي لَخَافِرُ
 هَذَا الْبَثْرِ ، وَمَحَاهِدٌ مِنْ صِدْقِي عَنْهَا ، فَطَفِقَ يَحْفِرُ هُوَ وَابْنُهُ الْحَارِثُ ، وَلَيْسَ لَهُ يَوْمَئِذٍ
 وَلَدٌ غَيْرُهُ ، فَيَسِفُهُ عَلَيْهِمَا النَّاسُ مِنْ قَرِيشٍ فَيُنَازِعُونَهُمَا وَيَقَاتِلُونَهُمَا . وَتَنَاهَى عَنْهُ نَاسٌ مِنْ
 قَرِيشٍ لِمَا يَطْلُبُونَ مِنْ رَعِيقٍ سَبِيٍّ وَصِدْقَةٍ ، وَاجْتِهَادِهِ فِي دِينِهِمْ يَوْمَئِذٍ ، حَتَّى إِذَا أَتَعَبَهُ
 الْحَفَرُ ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْأَدَى نَذَرَ أَنْ يَقِي لَهُ عَشْرَةَ مِنَ الْوُلْدَانِ يَنْحَرُ أَحَدَهُمْ ، ثُمَّ حَفَرَ فَأَدْرَكَ
 سَيْوِفًا دُفِنَتْ فِي زَمْزَمَ حِينَ دَفِنْتَهُ ، فَبَا رَأْسُ قَرِيشٍ أَنَّهُ قَدْ أَدْرَكَ السَّيْوِفَ قَالَتْ :
 يَا عَبْدَ الْمَطْلَبِ ، أَخَذْنَا^(٢) مِمَّا وَجَدْتَ . فَقَالَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ : بَلْ هَذِهِ السَّيْوِفُ لِبَيْتِ اللَّهِ ، ثُمَّ
 حَفَرَ حَتَّى أَسْطَى الْمَاءَ ، فَحَفَرَهَا فِي الْقَرَارِ ، ثُمَّ نَحَرَهَا حَتَّى لَا تَنْزِفَ ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهَا حَوْضًا
 وَطَفِقَ هُوَ وَابْنُهُ يَبْرَعَانِ فَيَمْلَأَانِ ذَلِكَ الْحَوْضَ ، فَيَشْرَبُ مِنْهُ الْحَاجُّ ، وَيَكْسِرُهُ قَوْمٌ حَسَدَةً
 لَهُ مِنْ قَرِيشٍ بِاللَّيْلِ ، فَيُصْلِحُهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ حِينَ يُصْبِحُ ، فَمَا أَكْثَرُوا هَسَادَهُ دَعَا عَبْدُ الْمَطْلَبِ
 رَبَّهُ ، فَأَرَى ، فَهَيَّلَ لَهُ : قُلْ : اللَّهُمَّ إِنْ لَا أَحْتَمِلُا لِعَنْسِلٍ ، وَهِيَ لَشَارِبُ حَلٍّ وَبَلٍّ ، ثُمَّ
 كَمَيْتِهِمْ ، قَامَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ حِينَ اخْتَلَفَ قَرِيشٌ فِي الْمَسْجِدِ ، فَنَادَى بِالَّذِي أَرَى ، ثُمَّ انْصَرَفَ
 فَلَمْ يَكُنْ يُعْسِدُ حَوْضَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ قَرِيشٍ إِلَّا رُمِيَ فِي جَسَدِهِ بَدَادَ ، حَتَّى تَرَكَوا حَوْضَهُ
 ذَلِكَ وَسَقَاتِهِ . ثُمَّ تَزَوَّجَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ النِّسَاءَ ، فَوُلِدَ لَهُ عَشْرَةُ رَهْطَ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي

(١) لَكُمْ ، بضم فسكون : اسم بئر زمزم .

(٢) اخَذْنَا : اعطانا .

كنتُ نذرتُ لك نحرَ أحديهم ، وإنِّي أقربُ بينهم ، فأصيب بذلك من شئت ، فأقرع بينهم ، فطارَت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب أبي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان أحبَّ ولده إليه ، فقال عبدُ المطلب : اللهم هو أحبُّ إليك أم مائة من الإبل ! ففحَرها عبدُ المطلب مكانَ عبد الله ، وكان عبد الله أحسنَ رجلٍ رُئي في قريش قطً .

ورَوَى الزبير أيضا قال : حدثني إبراهيم بنُ النضر ، عن عبد العزيز بن عمران ، عن عبد الله ابن عثمان بن سليمان قال : سمعتُ أبي يقول : لما حُفرت زمزم ، وأدرك منها عبدُ المطلب ما أدرك ، وجَدت قريشُ في أنفسها مما أُعطي عبدُ المطلب ، فلقبَه خوَيْلِدُ بنُ أسد بن عبد المطلب فقال : يا ابن سُلَى ، لقد سقيت ماءَ رغدا ، وثَلثت عاديةَ حسدا ، فقال : يا ابن أسد ، أما إنك تشركُ في قصدي ، والله لا يساعدنِي أحدٌ عليها بِرٍّ ، ولا يقوم معي بارِزا إلا بذلتُ له حَبْرَ الصَّهر ، فقال خُوَيْلِدُ بنُ أسد :

أقولُ وما قولُ عليهم بسِيةٍ ^{إلى} ^{الملك} ^{ابن} ^{سُلَى} أنت حافرُ زمزم

حَفيرةُ إبراهيمَ يومَ ابنِ هاجر ^{ورَكْصَةُ} ^{جبريل} على عهدِ آدم

فقال عبدُ المطلب : ما وجدتُ أحدا ورِثَ العلمَ إلا أقدمَ غيرَ خُوَيْلِدِ بنِ أسد .

قال الزبير : فأما رَكْصَةُ جبريلَ فبنُ سعيدَ بنِ المسيَّب قال : إن إبراهيمَ قَدِمَ بإسماعيلَ وأُمَّه مَكَّةَ ، فقال لهما : كَلَّا من الشجر ، واشربا من الشَّعَاب . وفارَقهما ، فلما صاقت الأرضُ تقطعتِ المياهُ ، فغَطَّشا ، فقالت له أُمُّه : اصعد واصب في هذا الوادي فلا أرى موتك ولا ترى موتي ، ففعل ، فأمرل الله تعالى مَكَا من السماء على أُمِّ إسماعيلَ ، فأمرَها فصرَّحتْ به ، فاستجاب لها ، وطارَ الملكُ فصرتُ بحفاحيه مكانَ زمزم ، فقال : اشربا ، فكان سَيْحًا يسبح ، ولو تركاه ما زال كذلك أبدا ، لكنها فرقت ^(١) عليه من العطش ، ففرت ^(٢) له في السَّقاء ، وحُفرت في البَطْحَاء ، فلما نَضَبَ الماءُ طَوَّياه ؛ ثم

هلك الناس ، ودفتته الشبول . ثم أرى عبد المطلب في المنام أن أحفر زمزم لا تُؤرب^(١) ولا تدم ، تُروى الحبيح الأعظم . ثم أرى مرة أخرى أن أحفر الزواء ، أعطيتها على رَغْم الأعداء . ثم أرى مرة أخرى ، أن أحفر تُكَم ، بين الأنصاب الحمر ، في قرية النمل . فأصبح يحفر حيث أرى . فطقت قريش يستهزئون به ، حتى إذا بدا عن الطي وجد فيها غزالا من ذهب ، وحلية سيف ؛ فصرَب عليها بالسَّهام ؛ فخرج سهم البيت ؛ فكان أول حُلِيٍّ حَلَّى به الكعبة .

قال الزبير : وكان حرب بن أمية بن عبد شمس نديم عبد المطلب ، وكان عبيد بن الأرمص تزوه ، وبلغ عيده مائة وعشرين سنة ، وبقي عبد المطلب بعده عشرين سنة .

قال : وقال بعض أهل العلم : توفي عبد المطلب عن خمس وتسعين سنة ، ويقال : كان يُعرف في عبد المطلب نور النبوة ، وهيبة الملك ، وفيه يقول الشاعر :

إني واللآلئ والنبيِّ الذي لَرَّ بالهَبَرِزِ عبد المطلب^(٢)

قال الزبير : حدثني عمي مصعب بن عبد الله ، قال : بينا عبد المطلب يطوف بالبيت بعد ما أسَّ وذهب بعصره ، إذ زححه رجل ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقيل : رجل من بني بكر . قال : فما منعه أن يُسَكَّب عني وقد رآني لا أستطيع لأن أسكَّب عنه ! فلما رأى بنيه قد توالوا عشرة قال : لا بد لي من امصا ؛ فإن اتخذتها طويلة شقت عني ؛ وإن اتخذتها قصيرة قويت عليها ، ولكن يعذب لها ظهري ؛ والحلدة ذل ، فقال بنوه : أو غير ذلك ؟ يوافيك كل يوم مائة رجل تنوكتا عليه فتطوف في حوائك . قال : ولذلك قال الزبير : ومكارم عبد المطلب أكثر من أن يحاط بها ؛ كان سيد قريش غير مدافع نقسا وأبا وبيتا وجمالا وسها وكالا وفعالا ؛ قال أحد بني كنانة يمدحه :

(٢) الهبرز : الأسد .

(١) لا تؤرب عليه : لا تغمته .

إني وما سترت قريش والذي تمزؤ لآلِ كلهن طلبه^(١)
وَوَحَقُّ مَنْ رَفَعَ الْجِبَالَ مُنِيفَةً^(٢) وَالْأَرْضَ مَدًّا فَوْقَهُنَّ سَمْلَه^(٣)
مُنًى وَمَهْدٍ لَابِنِ سَلَى يَدْحَةٍ فِيهَا أَدَاهُ ذِمَامِيهِ وَوَقَاهُ

قال الزبير : فأما أبو طالب بن عبد المطلب - واسمه عبد مناف ، وهو كافلُ رسول
الله صلى الله عليه وآله ، وحاميه من قريش وناصره ، والرفيق به ، الشفيق عليه ، ووصي
عبد المطلب فيه - فكان سيد بني هاشم في زمانه ، ولم يكن أحد من قريش يسود في
الجاهلية بمالٍ إلا أبو طالب وعُتْبَةُ بن ربيعة .

قال الزبير : أبو طالب أول من سنَّ القِامة^(٤) في الجاهلية في دم عمرو بن علقمة ،
ثم أثبتتها السنة في الإسلام ، وكانت السُّقْيَةُ في الجاهلية بيد أبي طالب ، ثم سلها إلى
أخيه العباس بن عبد المطلب .

قال الزبير : وكان أبو طالب شاعراً نَحِيداً ، وكان يديمه في الجاهلية مسافراً بن عمرو
ابن أمية بن عبد شمس ، وكان قد حُبِسَ^(٥) فخرج ليندأوى بالحيرة ، فمات ههنا^(٥) ،
فقال أبو طالب يرثيه :

لَيْتَ شَعْرِي مَسَافِرُ ابْنُ أُنَى نَعْمَ رِيَّوْ وَلَيْتَ يَقُولُهَا الْحَزُونُ
كَيْفَ كَانَتْ مَدَاقِقُ الْمَوْتِ إِذْ مَتَّ وَمَادَا بَعْدَ اللَّمَاتِ يَكُونُ
رَحَلَ الرَّكْبِ قَاصِدِينَ إِلَيَّا وَخَلِيلِي فِي مَرَمَسٍ مَذْفُونُ
بُورِكَ الْمَيْتِ الْعَرِيبُ كَمَا بَرَّكَ نَصْرُ الرَّيْحَانِ وَالزَّيْتُونُ

(١) تمزؤ : تطلب ؛ ولي ب : « كلهن » تعريجه .

(٢) المنيفة : العالية .

(٣) القامة بالفتح : الأيمان تقسم على أولياء القبيل إذا ادعوا الدم .

(٤) هالة : موضع .

(٥) الحُبْسُ بالتحريك : الاستسقاء .

رُزِهَ مَيِّتٍ عَلَى هُبَلَةٍ قَدْ حَا لَت قِيَافٍ مِنْ دُونِهِ وَحُرُونُ
مِذْرَةَ يَدْفَعُ الْخَصُومَ نَابِذٍ وَبَوَّاجٍ يَرْبِضُ الْعِرْنَيْنُ^(١)
كَمْ حَلِيلٍ وَصَاحِبٍ وَابْنِ عَمٍّ وَحَمِيمٍ قَفَّتْ عَلَيْهِ اللَّيْلُ !
فَتَعَزَّيْتُ بِالْجِلْدَةِ وَالصَّبْرِ وَإِلَى نَصَاحِي لُفْنَيْنُ

قال الزبير : فما هلك مسافرٌ بآدمَ أبو طالب بعد عمرو بن عبد بن أبي قيس بن
عبد ود بن نصر بن مالك بن حبل بن عامر بن لؤي ، ولذلك قال عمرو لعلي عليه السلام
يوم الخندق حين بارزه : إن أباك كان لي صديقا .

قال الزبير : وحدثني محمد بن حسن ، عن نصر بن مزاحم ، عن معروف بن حروذ ،
قال : كان أبو طالب يحضر أيام المعابر ، ويحضرُ معه النبي صلى الله عليه وآله وهو
علام ، فإذا جاء أبو طالب هُرِمَتْ قيس ، وإذا لم يحمي هزمت كسانه ، فقالوا لأبي طالب :
لأبائك ! لا تعب عنا ، ففعل .

قال الزبير : فأما الزبير بن عبد المطلب فكان من أشرف قريش ووجوهها ،
وهو الذي استثنته بنو قصي على بني سهم حين هجا عبد الله بن الزنجر بن قصي
فأرسلت بنو قصي عتبة بن ربيعة بن عبد شمس إلى بني سهم ، فقال لهم : إن قومكم قد
كروهوا أن يمجلوا عليكم ، فأرسلوني إليكم في هذا السفيه الذي هجاكم في غير ذنب
احترموا إليه ، فإن كان ما صنع عن رأيكم فبئس الرأي رأيكم ، وإن كان عن غير
رأيكم فادعوه إليهم . فقال القوم : نبرأ إلى الله أن يكون عن رأينا . قال : فأسدوه
إليهم ، فقال بعض بني سهم : إن شئتم صلوا ؛ على أن من هجاكم منكم دفعتموه إلينا .
فقال عتبة : ما يمنعني أن أقول ما تقول إلا أن الزبير بن عبد المطلب غائب بالطائف ،

وقد عرفت أنه سيفرع لهذا الأمر فيقول : ولم أكن أحصل الزبير خطراً لابن الزُبَيْرِ ، فقال قاتل منهم : أيها القوم ، ادفعوه إليهم ، فصرى إن لكم مثل الذي عليكم ، فكثر في ذلك الكلام والألفاظ ، فلما رأى العاصمُ بنُ وائل ذلك دعا يرمة ، فأوثق بها عبد الله ابن الزُبَيْرِ ، ودفعه إلى عتبة بن ربيعة ، فأقبل به مربوطاً حتى أتى به قومه ؛ فأطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه ، فأغرى ابن الزُبَيْرِ أناس من قريش بقومه بنى سهم ، وقالوا له : أهجهم كما أسلموك ، فقال :

لعمري ما جاءت شكر عشرين	وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فودَّ جُناة الشر أن سيوفنا	تأيماننا ملولة لا نشيمها
فيقطع ذو العشر القريب ويركوا	غمام منها إذ أحدت يريمها ^(١)
فإن قصياً أهلُ بجدٍ وثموية	وأهلُ فصال لا يُرام قديمها
همُ منعوا يومئ عكاظاً نساءنا	كما منع الشول الهجان قرومها ^(٢)
وإن كان هيج قد تموا فتقدموا	وهل يجمع الحرة إلا حيمها !
محاشيد لمقرى سراع إلى الندى	مرارية علب رزان حلومها ^(٣)

قال : فقدم الزبير بن عبد المطلب من الطائف ، فقال قصيدته التي يقول فيها :

فلولا الحس لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا^(٤)

وقد ذكرنا قطعة منها فيما تقدم .

قال الزبير : وقال الزبير بن عبد المطلب أيضاً في هذا المعنى :

(١) يريمها : يطلبها .

(٢) الثالثة من الإبل : التي أتى عليها من حلب سعة أشهر خلف لبنها . وجهه شول ، وهجان الإبل : كرامها .

(٣) الزريان : الفارس الشجاع التقدم على القوم دون نكت ، مرب : والأصل فيه أحد مهاراة الفرس ، وعلب : جمع أعلب ، وهو في الأصل العليط الرقة ، يصمون أبدأ اسادة بلفظ الرقة وطولها .

(٤) الحس هنا : قريش ومن ولدت ؛ سموا حساً لأنهم تحمسون في دينهم ؛ أي تشددوا .

قومي بنو عبد مسافر إذا أظلم من حولي بالجدل
لا أسد لن يسلموني ولا سيم ولا رهمة للنيطل^(١)
ولا بنو الحارث إن سر بي يوم من الأيام لا ينجلي
بأيها الشاتم قومي ولا حق له عندهم أقبل
إني لهم جار لن أبت لم تنصر عن الباطل أو تعدل

قال الزبير : ومن شعر الزبير بن عبد المطلب :

يألت شعري إذا ما حنتى وقت ماذا تقول أنتى فى النوح تنعافى !
تنتى أنا كان معروف الدفاع من مؤلى المصافى وفكاً كما عن المانى^(٢)
وبسم صاحب عاب كان رافده إذا تصحع عنه العاخر الوانى^(٣)

قال الزبير : وكان الزبير بن عبد المطلب ذا نظر وفكر ، أتى فقيلاً له : مات فلان
- لرحل من قريش كان ظالماً - فقال : بآى عقوبة مات ؟ قالوا : مات حتف أمه ! فقال :
لئن كان ما فتنوه حقاً إن للناس معاداً يؤخذ فيه لمظلوم من الظالم .

قال : وكان الزبير بكى بأبى الطاهر ، وكانت صفية بنت عبد المطلب كنت ابنها
الزبير بن العوام أبا الطاهر دهماً بكية أحيها ، وكان للزبير بن عبد المطلب ابن يقال له
الطاهر ، كان من أخرف فتيان مكة ، مات غلاماً ، وبه سمى رسول الله صلى الله عليه
 وآله أنه الطاهر ، وباسم الزبير سميت أخته صفية اسمها الزبير ، وقالت صفية ترى أحامها
الزبير بن عبد المطلب :

سكى زبير الخير إذ مات إن كنت على ذى گرم باكية

(٢) المانى : الأسير .

(١) النيطل : الموت الوحى .

(٣) التضجيع فى الأسر : التخصير فيه .

لو لَقَطَفَهُ الْأَرْضُ مَالَتُهَا أو أصبحت خاشعة عارية
 قد كان في نفسى أن أترك المَوْتى ولا أتبعهم قافية
 فلم أطلق صَبْرًا على رُزْئه وجدته أقرب إخواني
 لو لم أقل من فى قولاً له لَقَصَت العبرة أصلاعيه
 فهو الشاى والبانى إذا ما حُصروا ، ذو الشفرة الدامية
 وقال ضرار بن الخطاب يبكيه :

نَكى صُبَاعُ على أَيْ بكاء محزون أليم
 قد كنت أشده فلا رث السلاح ولا سلم
 كالنوكب الدرى به لو صوء صوء النجوم
 زخرت به أعراقه وماء والده الكريم
 بين الأعسر وهاشم قرعين قد قرعا القروم

فأما القَتُول الخَشَمِيَّة التى اعتصمها بيه بن الحجاج السهمي من أبيها ، فقد ذكر الزبير بن نكار قصتها فى كتاب "أساب قريش" .

قال الزبير : إن رجلا من حنم قدم مكة تاجرا ومعه ابنة يقال لها القَتُول ، أوصا ساء العالمين ، فمَلِقَهَا بيه بن الحجاج السهمي ، فلم يَرح حتى غلب أباهما عليها ، ونقلها إليه ، فقيل لأبيها : عليك بحلف الفصول ، فأنهم فشكا إليهم ذلك ، فأتوا نبيه بن الحجاج فقالوا له : أخرج ابنة هذا الرجل - وهو يومئذ منبذ^(١) بناحية مكة ، وهى معه - وإلا فإننا من قد عرفت ، فقال : يا قوم ، متعنوني بها الليلة ، فقالوا : قبضك الله !

(١) منبذ ، أى متبع بناحية مكة .

ما أجهلك ، لا والله ولا شخب لقحة ، فخرجها إليهم فأعطوها أباهما ، فقال نبيه بن
الحجاج في ذلك قصيدة أولها :

راح صحنى ولم أحى القسولا لم أودعهم وداعا جيلا (١)
إذا جدّ الفضول أب يمسوها قد أراى ولا أخاف الفضولا
في أبيات طويلة .

• • •

وأما قصة البارقي فقد ذكرها الريير أيضا .

قال : قديم رجل من ثمالة من الأرذمكة ، فباع سلعة من أبي بن خلف الجمحي
فقطعه بالثمن ؛ وكان سمي الخالطة ، فأتى الثمالي أهل حلف الفضول فأخبرهم ، فقالوا : اذهب
فأخبره أنك قد أيتنا ، فإن أعطاك حلفك وإلا فارجع إلينا ، فأتاه فأخبره بما قال أهل حلف
الفضول ؛ فأخرج إليه حقه فأعطاه ، فقال الثمالي :

أيهضر بي بيطن مكة طالما أبي ولا قومي لدى ولا صحنى
وناديت قومي بارقا لتحييني وكهون قومي من قيافيوم من سهب (٢)
ويأبى لكم حلف الفضول ظلامتى نى جحجرح والحق يؤخذ بالعصب

• • •

وأما قصة حلف الفضول وشرفه فقد ذكرها الزبيرى كتابه أيضا ، قال : كان بنو سهم
وبنو جحجرح أهل بغي وعذوان ؛ فأكثرُوا من ذلك ، فأجمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد
وبنو ذهرة وبنو تيم على أن تحالفوا وتمتدوا على رد العالم بمكة ، وألا يظلم أحد

(١) ب : د صحنى ، تحريف ، صوابه في ا .

(٢) القيف : للفازة التي لا ماء فيها ؛ وإذا أشئت معي القيفاء وجمعها القياقي ، والسهب جنتع السين :
الأرض الواسعة ، يجمع على سهب (بضم السين) وسكت الماء للشر .

إِلَّا مَسْعُوءٌ ، وَأَحْبُوا لَهُ مُحَقَّةً ، وَكَانَ حِلْفُهُمْ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « تَقْدُسْ شَهْدَتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبَّ أَنْ لِي بِهِ خَيْرَ النَّعَمِ ، وَلَوْ دَعَيْتُ بِهِ الْيَوْمَ لِأَحْسَنُ ، لَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً » .

قال الزبير : كَانَ رَحْلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ قَدْ قَدِمَ مَكَّةَ مُعْتَمِرًا بِبِصَاعَةٍ ، فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ ، فَأَوَّاهَا إِلَى بَيْتِهِ ، ثُمَّ تَفَيَّبَ ، فَابْتَعَى الْأَسَدِيَّ (١) مَتَاعَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ، فَنَاءَ إِلَى بَنِي سَهْمٍ يَسْتَعْرِضُهُمْ عَلَيْهِ ، فَأَعْظَمُوا لَهُ ، فَعَرَفَ أَنَّ لَاسِيلَ لَهُ إِلَى مَالِهِ ، وَطَوَّفَ فِي قَبَائِلِ قُرَيْشٍ يَسْتَعْرِضُهُمْ بِهِمْ ، فَتَحَدَّثَتِ الْقَبَائِلُ عَنْهُ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَشْرَفَ عَلَى أَبِي قُدَيْسٍ حِينَ أَخَذَتْ قُرَيْشٌ مَحَالَتَهَا ، وَنَادَى نَاعِلٌ صَوْتَهُ :

يَا لَرَجَالٍ إِمْظَلُومٍ بِبِصَاعَتِهِ يَبْطُرُ مَكَّةَ نَائِي الْأَهْلِ وَالنَّعْرِ
وَيُحَرِّمُ أَشْيَاءَ لَمْ يَقْصُرْ عَنْهَا يَا آلَ قُحَيْمٍ وَبَيْنَ الْحَجَرِ وَالْحَجَرِ (٢)
هَلْ مُصِيبٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ مَرْتَمِعٍ سَاهِبِيئُوا أَمْ حَلَالٌ مَالٍ مُعْتَمِرٍ (٣) !

فَاعْطَمَتْ ذَلِكَ قُرَيْشٌ ، وَتَكَلَّمُوا فِيهِ ؛ فَقَالَ الْمُطَيَّبُونَ : وَاللَّهِ إِنْ قَسَا فِي هَذَا لِيَمُصِبَ الْأَحْلَافُ ؛ وَقَالَتِ الْأَحْلَافُ : وَاللَّهِ إِنْ قَسَا فِي هَذَا لِيَمُصِبَ الْمُطَيَّبُونَ ؛ فَقَالَتْ قَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ : هَدُّوا فَلْنَحْتَلِفَ جُلْعًا حَدِيدًا ؛ الْمَعْرَنُ الْمَذْمُومُ عَلَى الظَّالِمِ مَائِلٌ بِحَرِّ صَوْفَةٍ . فَاجْتَمَعَتْ هَاشِمٌ وَالْمُطَلَّبُ وَأَسَدٌ وَتَيْمٌ وَرَهْرَهَةٌ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَوْمَئِذٍ مَعَهُمْ وَهُوَ شَابٌ ابْنُ حَسَنٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً لَمْ يَوْحَ إِلَيْهِ بَعْدُ ، فَتَحَالَفُوا أَلَّا يُظْلَمَ بِمَكَّةَ غَرِيبٌ وَلَا قَرِيبٌ وَلَا حَرٌّ وَلَا عَبْدٌ إِلَّا كَانُوا مَعَهُ حَتَّى يَأْخُذُوا لَهُ مُحَقَّةً ، وَيَرُدُّوا إِلَيْهِ مِظْلَمَتَهُ مِنْ أَعْيُنِهِمْ وَمِنْ عَيْرِهِمْ ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى مَاءٍ رَمَرَمَ لِحُلُولِهِ فِي جَفْنَةٍ ، ثُمَّ بَشَوْا بِهِ إِلَى الْبَيْتِ ، فَفَضَّلُوا بِهِ أَرْكَانَهُ ، ثُمَّ جَمَعُوهُ وَأَتَوْهُ ، فَشَرِبُوهُ ، ثُمَّ انْطَلَقُوا إِلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ

(٢) ب : « يَا أَهْلَ » .

(١) في أ ، وب : « الربدى » ، تصحيف

(٣) أ ، ب : « صلال » ، تحريف .

فقالوا له : أدُّ إلى هذا حقّه ، فأدَّ إليه حقّه ، فكثروا كذلك دهرًا لا يُظلم أحد بمكة إلا أخذوا له حقّه ؛ فكان عتبة بنُ ربيعة بن عبد شمس يقول : لو أنَّ رجلاً وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس ؛ حتى أدخل في حلف الفصول .

قال الزبير : وحدثني محمد بن حسن ، عن محمد بن طلحة ، عن موسى بن محمد ، عن أبيه ، أن الحلف كان على ألا يدعوا بمكة كلها ولا في الأحابيش مظلوما يدعوم إلى نصرته إلا أجدوه حتى يردوا عليه ماله ومطعمته ، أو يملوا في ذلك عُذرا ؛ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى التمسك في المعاش .

قال الزبير : ويقال : إنه سميَّ حلف الفصول لأن رجلا كانوا في وجوههم محالفوا على ردِّ المظالم ، يقال لهم فضيل وفصال وفصل ومفصل ، فسوى هذا الحلف حلف الفصول ؛ لأنه أحيات تلك السمة التي كانت مات .

قال الزبير : وقدم محمد بن جبير بن مطعم على عبد الملك بن مروان وكان من عداء قريش - فقال له : يا أبا سعيد ، ألم تكن - يعني بن عبد شمس - ، وأنتم في حلف الفصول ؟ فقال : أمير المؤمنين أعلم ؛ قال : لتعبرني بالحق ، قال : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ لقد خرجنا نحن وأنتم منه ، وما كانت يدنا ويدكم إلا جميعا في الجاهلية والإسلام .

قال الزبير : وحدثني محمد بن حسن ، عن إبراهيم بن محمد ، عن يزيد بن عبد الله ابن إلهادي الليثي ، أن محمد بن الحارث أخبره ، قال : كان بين الحسين بن علي عليه السلام وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان كلام في مال كان بينهما لدى الزوجة ، والوليد يومئذ أمير المدينة في أيام معاوية ، فقال الحسين عليه السلام : أيستطيع الوليد على سلطانة !

أقسم بالله لينصفني من حقى أو لأخذن سيفي ثم أقوم في مسجد الله فأدعو بخلف الفضول ! فبلغت كلمته عبد الله بن الزبير ، فقال : أحلف بالله لنن دعا به لأخذن سيفي ، ثم لأقومن معه حتى ينتصف أو نموت جميعا . فبلغت الشور بن محرم بن نوفل الزهرى ، فقال مثل ذلك ، فبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله النسي ، فقال مثل ذلك ، فبلغ ذلك الوليد بن عتبة ، فأ نصف الحسين عليه السلام من نفسه حتى رضى .



قال الزبير : وقد كان للحسين عليه السلام مع معاوية قصة مثل هذه ، كان بينهما كلام في أرض للحسين عليه السلام ، فقال له الحسين عليه السلام : احترمني ثلاث حاصل : إما أن تشتري منى حتى ، وإما أن ترده علي ، أو تحمل بيني وبينك ابن عمرا أو ابن الزبير حكما ؛ وإلا فالراية ، وهى الصلیم . قال معاوية يوما : قال : أعتف بخلف الفضول ، ثم قام مخرج وهو مضطرب ، فرأى عبد الله بن الزبير فاحترمه ، فقال : والله لن تهت به وأنا مصطعم لأقعدن ، أو قاعد لأقومن ، أو قائم لأمشين ، أو ماش لأسعين ، ثم لتعدن روحى مع روحك ، أو لينصفنك . فبلغت معاوية ، فقال : لا حاجة لنا بالصليم ؛ ثم أرسل إليه أن ابعت فاشترى مالك ؛ فقد اتعناه^(١) ملك .

قال الزبير : وحدثني بهذه القصة على بن صالح عن جدى عبد الله بن مصعب ، عن أبيه ، قال : خرج الحسين عليه السلام من عند معاوية وهو مضطرب ، فلقى عبد الله بن الزبير ، فحدثه بما دار بينهما ، وقال : لأخبرته وى حاصل ، فقال له ابن الزبير ما قال ، ثم ذهب إلى معاوية ، فقال : لقد لقينى الحسين فخيرك فى ثلاث حاصل ، والرابعة الصلیم ، قال معاوية : فلا حاجة لنا بالصليم ، أظنك لقيته معصا ؛ فهات الثلاث ، قال : أن مجعاني

(١) ب : « وانعاه » .

أو ابن عمر يسئك ويسته . قال : قد جعلت يفي ويسته ، أو جعلت ابن عمر أو جعلت كما هيما . قال : أو تقرر له محقه ثم تسأله إياه . قال : قد أفررت له محقه وأنا أسأله إياه ، قال : أو تشره منه ، قال : قد اشتريته منه ، فما الصيم ؟ قال : يهتب يهتب الفصول ، وأنا أول من يهيبه . قال : فلا حاجة لما في ذلك .

وبلغ الكلام عند ابن أبي بكر ويزور بن محرمه ، فقالا للحسين مثل ما قاله ابن الزبير .



فأما نحر الماء من تحت أحفاف بحير عبد المطلب في الأرض الجرار فقد ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة ، قال : لما أسط^(١) عبد المطلب الماء في زمزم حسنته قريش ، فصالت له . يا عبد المطلب ، إياها نثر أينما إسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فاشركنا معك . قال : ما أنا بفاعل ، إني هذا الأمر أمرٌ حصصت به ذوكم وأعطيت من يسكن ، قالوا له : إنا عبر تاركك حتى نخصمك فيها ، قال : فاحملوا يفي ويسكن حكاماً ككم إليه ، قالوا : كاهة بن سعد بن هذيم ، قال : نعم ، وكانت بأشراف الشام ، فركب عبد المطلب في بحر من بني عبد مناف ، وخرج من كل قبيلة من قبائل قريش قوم ، والأرض إذ ذاك مغاور^(٢) ، حتى إذا كانوا ببعض تلك المغاور بين الحجار والشام فبدأ ما كان مع عبد المطلب وبني أبيه من الماء فمطشوا عطشاً شديداً ، فاستسقوا قومهم ، فأبوا أن يسقوهم ، وقالوا : نحن بمفازة ومحشى على أعضائنا مثل الذي أصابكم . وما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وحاف على نفسه وأصحابه هلاك ، قال لأصحابه : ما ترون ؟ قالوا : ما رأينا إلا تبع لرأيتك ، فمرنا بما أحببت ، قال : فإني أرى أن يحير كل رجل منا حفرة لنفسه مما معه الآن من القوة ؛ فكلما مات رجل دفنه أصحابه في حفرة ؛ حتى يكون رجل واحد ، فصبيعة

(١) أسط الماء : استخرجه وطبه .

(٢) المغاور : جمع مغارة ، وهي البرية النحر ، أو الولاء فيها ؛ وسميت مفازة لأن من خرج منها وتبعد عنها فلاز وشم .

رجل واحد أيسر من ضيعة ركب ، قالوا : نعم ما أشرت ! فقام كل رجل منهم فحفر حفرة لنفسه ، وقعدوا ينتظرون الموت . ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا كذا للموت ؛ لا نضرب في الأرض فمطلب للواء لمعجز ؛ قوموا فمضى الله أن يرزقنا ماء بمض الأرض ، ارتحلوا ، فارتحلوا ومن معهم من قبائل قريش ينتظرون إليهم ما هم صائمون ، فتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما استعنت به انفجر من تحت خفها عين من ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه ، واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال لهم : هلموا إلى الماء ، فقد أسقانا الله ، فاشربوا واستقوا ، فاشربوا واستقوا ، ثم قالوا : قد والله قصي الله لك علينا ، والله لا نحاصلك في رصم أبد ، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه العلاء هو الذي سقاك رصم ، فارجع إلى سقائك راشدا . فرجع ورجعوا معه ، لم يصلوا إلى السكاهة وخلقوا بينه وبين رصم^(١) .



وروى صاحب كتاب الواقدي أن عبد الله بن حمر فاحر يريد بن معاوية بن يدي معاوية ؛ فقال له : ماى آتاك تعايرنى ؟ أتحرب الذى أجرناه ، أم بأمية الذى ملكناه ، أم بعد شمس الذى كملناه ؟ فقال معاوية : لحرب بن أمية يقال هذا ! ما كنت أحسب أن أحدا فى عصر حرب يرعم أنه أشرف من حرب ! فقال عبد الله : بلى أشرف منه من كرمأ عليه إمامه وحلله^(٢) ردائه ! فقال معاوية ليزيد : رويدا يا بنى ، إن عبد الله يعحر عليك بك لأنك منه وهو منك . فاستجيا عبد الله وقال : يا أمير المؤمنين يدان انشطتنا^(٣) وأخوان اصطرعا . فلما قام عبد الله ، قال معاوية ليزيد : يا بنى إياك ومنازعة

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) جلله بردائه : غملاه ؛ وفى حديث على : والمهم حللته عثمان حرياً ، أى فطهمه وألبسه مله .

(٣) انشطتنا ، على البناء المجهول ؛ انزعنا واحتلنا .

بنى هاشم فإنهم لا يجملون ماءً ليوا، ولا يبعدُ مُبفضهم لم سبًا، قال: «أما قوله: أبحرُب الذي أجزاه»، فإن قريشاً كانت إذا سافرت فصارت على العقبة لم يتجاوزها أحدٌ حتى تحوز قريش، فخرج حربٌ ليلةً فلما صار على العقبة لقيه رجلٌ من بني حاحب بن زُرارة تميمي فتنحى حربٌ بن أمية وقال: أنا حرب بن أمية، فتنحى التميمي وقال: أنا ابن حاحب ابن زُرارة، ثم مدر حجار العقبة، فقال حرب: لاها الله لا تدخل بعدها مكة وأنا حي! فكث التميمي حيناً لا يدخل، وكان متحزراً بمكة، فاستشار بها بمن يستجير من حرب، فأشير عليه بعبد المطلب أو بامرئ الرزيير بن عبد المطلب. فركب ناقته وصار إلى مكة كيلاً، فدخلها وأراح ناقته باب الرزيير بن عبد المطلب، فرغت^(١) الناقة؛ فخرج إليه الرزيير فقال: أمتجير فتحار، أم طالبٌ قرئ فتقرئ! فقال:

لأقبتُ حرّاً بالثنية مقملاً	والليل أبلغ نوره للباري
فملا بصوتٍ واكتى لبروعى	وكما بدعوة مُطيرٍ وشمسارٍ
فتركه حلى وحرّت أمانه	وكذلك كنتُ أكون في الأسفار
فصى يهددني ويمع مكة	ألا أحل بها بدارٍ قرارٍ
فتركته كالكذب بفتح وحده	وأبيت قرم مكارم وفجارٍ ^(٢)
كيتاً هزراً يستعارُ قره	رحب الماء مكرماً للجار ^(٣)
وحلفت بالبيت العتيق وحجه	وزمزم والحجر والأستار
إن الرزيير كساعي عهدي	صاى الحديد صارم بشار

فقال الرزيير: اذهب إلى المنزل فقد أجزتكَ. فلما أصبح نادى الرزيير أحاه الفيداق،

(١) يقال: رعت الناقة ترعو رعاء: صوتت وسجت. وفي المثل: «كفى رعاها نادياً»، أي أن رغاء الناقة يقوم مقام النداء في الحرم لصياحه والقرى.
(٢) القرم من الرجال: السيد العظيم.
(٣) المزبر: الأسد، والمامة: المراح التي تبيت فيه الإبل.

تفرجا متقلدين سيفيهما ، وخرج التميمي معهما ، فقالا له : إنا إذا أجرنا رجلا لم نمش أمامه ، فامش أماما ترمقك أنصارنا كي لا نخش من خفيها . فجعل التميمي يشق مكة حتى دخل المسجد ، فلما بصر به حرب قال : وإنتك لها هنا ! وسبق إليه فلقمه ، وصاح الزبير : تكلمتك أمك ! أتلقمه وقد أجرته ! فثنى عليه حرب فلقمه ثانية ، فالتصى الزبير سيفه ، فحل على حرب بين يديه ، وسعى الزبير حلقه فلم يرجع عنه حتى همم حرب على عبد المطلب داره ، فقال : ما شئت ؟ قال : الزبير ، قال : اجلس ، وكفأ عليه إباء كان هاشم يهشم فيه الثريد ، واحتنع الناس ، وانصم بنو عبد المطلب إلى الزبير ، ووقفوا على باب أبيهم بأيديهم سيوفهم ، فأرر عبد المطلب حربا يزار كان له ، ورداه برداء له طرقات ، وأخرجه إليهم ، فملوا أن أولهم قد أحاره .

وأما معنى قوله : « أم بامية الذي ملكناه لهم » ، فإن عبد المطلب راح أمية بن عبد شمس على فرسين ، وحمل الخطر ثم سبقت فرسه مائة من الإبل وعشرة أعبد وعشر إماء واستعبادسة ، وجز الباصية . فسق فرس عبد المطلب فأخذ الخطر فقسمه في قريش ، وأراد حره باصيته ، فقال : أو أفندي منك باستعباد عشر سين ! ففعل ، فكان أمية بعد في حشم عبد المطلب وعصاريته^(١) عشر سنين .

وأما قوله : « أم بعد شمس الذي كسناه » ، فإن عبد شمس كان مملقا لا مال له ، فكان أخوه هاشم يكمله ويموه إلى أن مات هاشم .

وفي كتاب " الأغاني " ، لأبي النرج أن معاوية قال لدعبل^(٢) التسمية : أرايت عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيت ؟ قال : رأيت رجلا نبيلاً جميلاً وضيقاً ، كأن على

(١) العصاريط : جم غصنوط ، وهو الرجل الذي يخدم بطعام بطنه .

(٢) في الأصول : « فعل » ، تصحيف ؛ وصوابه من الأغاني .

وجهه نور النبوة^(١) . قال : أفرأيت أمية بن عبد شمس^(٢) ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيتَه ؟ قال : رأيتُه رجلاً ضئيلاً^(٣) مسح أسمى يقوده عبده دكوان ، فقال معاوية : ذلك ابنه أبو عمرو ، قال : أستم تقولون ذلك ، فأتا قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبده^(٤) .

ونقلتُ من كتاب " هاشم وعبد شمس " لابن أبي رُوثة الدباس .
قال : روى هشامُ بنُ الكلبي عن أبيه ، أن نوفلَ بنَ عبد مناف ظلم عبد المطلب ابن هاشم أركاحاً له ممسكة - وهي الساعات - وكان نوفل يداً مع عبد شمس ، وعبد المطلب يداً مع هاشم ، فاستنصر عبد المطلب قوماً من قومه فقصرُوا عن ذلك ، فاستنجد أحواله من بني النجار بيثرب ، فقبل معه ميمون راحكاً ، فقالوا لنوفل : لا والله يا أبا عدي ، ما رأينا هذا الفاطم ^{بشاً} أحسنَ وخها ، ولا أمدَّ حسماً ، ولا أعفَّ نصاً ، ولا أمدَّ من كلِّ سوءٍ من هذا الفقه - يعمون عبد المطلب - وقد عرفت قرائته منا ، وقد منعتَه ساعاتٍ له ، ونحن نحبُّ أن نردَّ عليه حقَّه ، وردَّه عليه ، فقال عبد المطلب :

تَأْتِي مَازِنٌ وَتَفُو عَدِيٌّ وَذُنْيَانُ بْنُ تَيْمِ الثَّلَاثِ صَيْمِي
وَرَادَتْ مَالِكٌ حَقِّ سَاعَتِ وَكَتَبَ نَوْفَلٌ عَنْ حَرِيمِي

قال : ويقال إن ذلك كان سبب محاربة خزاعة عبد المطلب .

قال : وروى أبو اليقظان سُحيم بن حمص : أن عبد المطلب جمع بيده عند وفاته - وهم عشرة يومئذ - فأمرهم ونهأهم وأوصاهم وقال : إياكم والدعي ، فوالله ما خلق الله شيئاً

(١) الأغانى : « من رأيت من عبدة قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطلب بن هاشم وأميمة بن عبد شمس ، فقال : صفها لي ، فقال : كان عبد المطلب أبيض مديد القامة حسن الوجه ، في حبيبه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بيته كلهم أمداء » .

(٢) الأغانى : « قال : صف لي أمية » . (٣) الأغانى : « نعيم الجسم صريراً » .

(٤) الأغانى ١ : ١٢ (طبعة دار الكتب) .

أجمل عقوبة من التبعي ، وما رأيت أحداً بقي على البني إلا إخوتكم من بني عبد شمس .
وروى الوليد بن هشام بن قحدم ، قال : قال عثمان يوماً : وددت أني رأيت رجلاً
قد أدرك الملوك يحدثني عما مضى ؛ فذكر له رجل بحضر موت ، فبعث إليه فحدثه حديثنا
طويلاً تركماً ذكراً إلى أن قال : رأيت عبد المطلب بن هاشم ؟ قال : نعم ، رأيت رجلاً
قديراً^(١) أبصر طويلاً مقروناً الحاجبين ، بين عينيه عروة يقال إن فيها بركة ، وإن فيه
بركة ، قال : أفرأيت أمية بن عبد شمس ؟ قال : نعم ، رأيت رجلاً آدم دميماً قصيراً
أعمى يقال : إنه سكد ، وإن فيه سكد ، فقال عثمان : « بكعبك من شر سماعة^(٢) »
وأمر بإخراج الرجل .

وروى هشام بن الكلبي أن أمية بن عبد شمس لما كان غلاماً ، كان يسرق الحاج
فسي حارساً .

وروى ابن أبي ربيعة في هذا الكتاب أن أول قتيل قتله هو هاشم من
بني عبد شمس عفيف بن أبي العاصم بن أمية ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، ولم أقف على
هذا الخبر إلا من كتاب ابن أبي ربيعة .

قال : ومما يصدق قول من روى أن أمية بن عبد شمس استعبده عبد المطلب شعر
أبي طالب بن عبد المطلب حين تظاهرت عند شمس وتواقل عليه وعلى رسول الله صلى
الله عليه وآله وحضرهما في الشعب ، فقال أبو طالب :

توالى علينا مولىانا كلاًهما إذا سئلا قالاً إلى غيرنا الأمر
سلى لها أمرٌ ولكن براحماً كما أرتمت من رأس ذي القلع الصخر
أحمر حصوا عبد شمس وتواقلا هما تذاًناً مثل ما تنبأ الخبر
هما أخصا للقوم في أحوئهما فقد أصحت أيديهما وهما صفر

(١) القدي : الحس المته .

(٢) مثل ، ولقطه في جمع الأمثال ١ : ١٩٤ : « حبك من شر سماعة » ، وأول من قاله أم الربيع
ابن زياد العبسي .

قَدِيمًا أَبُوهمْ كَانَتْ عِبْدًا بَلَدَنَا بَنَى أُمّةً شَهْلَاءَ جَاشَ بِهَا الْبَحْرُ
لَقَدْ سَفَّهُوا أَحْلَامَهُمْ فِي عَقْدٍ فَكَانُوا كَحُمْرٍ بَشَّ مَاضَفَتْ جُمُرٌ^(١)

ثم نرجع إلى حكاية شيخنا أبي عثمان ، وقد مزحه بكلام آخر لنا أولغير نأمن تعاطي
للموازنة بين هذين البيتين.

قال أبو عثمان : فإن قالت أُمّة : لنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم
ابن أبي العاص بن أُمّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، أربعة حلما في نسق ،
قدما لهم : وليي هاشم : هارون الوائلي بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن
عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن علي السجاد ، كان يصلي كل يوم ليلة ألف ركعة ،
فكان يقال له السجاد لعاديه وفصله ، وكان أحمل قريش على وجه الأرض وأوسمها ،
وُلِدَ ليلة قتل علي بن أبي طالب عليه السلام قسما باسمه ، وكنتى بكنيته ، فقال عبد الملك :
لا والله لأحتمل لك الأسم ولا الكنية ، فعبر أحدكما ، فعبر الكنية فصيرها أبا محمد بن
عبد الله ، وهو البحر ، وهو حنظل قريش ، وهو لفقه في الدين المعلم التأويل ، ابن العباس
ذو الرأي ، وحليم قريش ، بن شعبة الحمد ، وهو عبد المطلب سيد الوادي بن عمرو ، وهو
هاشم ، هشم الثريد ، وهو العمر سمى بذلك لجماله ، ولأنهم كانوا يقنون ويهتدون برأيه ،
ابن المعيرة وهو عبد مناف ، بن زيد ، وهو قصي وهو محم ، هؤلاء ثلاثة عشر سيّدا
لم يُحرّم منهم واحد ، ولا قصر عن العاية ، وليس منهم واحد إلا وهو ملقب بلقب اشتق
له من فعله الكريم ، ومن حلقه الجميل ، وليس منهم إلا خليفة ، أو موصع للحلافة أو سيّد
في قديم الدهر منيع ، أو ناسك مُقدّم ، أو فقيه بارع ، أو حلّيم ظاهر الرّكّانة^(٢) ؛ وليس
هذا لأحد سواهم ، ومنهم خمسة حلما في نسق ، وهم أكثر مما عدته الأموية ، ولم يكن

(١) صغلت : أحدثت ، والجمر : جمع جمر ، ومن الاست .

(٢) الركّانة : الوار والهيبة .

مروانُ كالمصور لأنَّ المصور مَلَكُ اللاد ودَوَّخَ الأقطار ، وصَطَّطَ الأطراف اثنتي عشرة سنة ، وكانت خلافة مروانَ على خلاف ذلك كله ، وإِنَّمَا بَقِيَ في الخلافة تسعة أشهر حتى قتلته امرأته عاتكة بنت يزيدَ بن معاوية حين قال لابنها خالد من تعلِّمها الأول : يابن الرطبة . ولئن كان مروان مستوجبا لاسم خلافة مع قلة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلدان فضلا عن الأطراف ، ظنَّ الزبير أولى بذلك منه ، فقد كان مَلَكُ الأرض إلا بعضَ الأزْدَنَ ، ولكن سُلطانَ عبد الملك وأولاده لما اتصل بساطن مروان اتصل عند القوم ما أقطع منه وأخفى موضع الوَهْنِ عند من لا يعلم له ، وسُوِيَ المَهْدِيُّ كانت سِنِي سلامة ، وما زال عبدُ الملك في انتفاض وانتكاث ، ولم يكن ملك يزيد كملك هارون ، ولا مَلِكُ الوليدِ كملك المنصور .

قالت : رَحِمَ اللهُ أَبَا عُمَانَ ! لو كَلَّ اليَوْمَ لَعَدَّ مِنْ حُلَفاءِ بَنِي هَاشِمٍ تِسْعَةً وَتِسْعًا : المنصور بن المنصور بن الطاهر بن المنصور بن المستنجد بن المقتدر بن المستطهر بن المقتدر . والطالبون ، صرَّ يَصُدُّونَ عَشْرَةً وَتِسْعًا . لَأَمِيرِ بْنِ الْمُتَعَلَّى بْنِ الْمُنْصَرِّ بْنِ الطَّاهِرِ بْنِ الْحَاكِمِ بْنِ الْعَزِيزِ بْنِ الْمُعْتَرِ بْنِ الْمُنْصُورِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ الْمُهْدِيِّ .

قال أبو عثمان : وتَفَخَّرَ عَلَيْهِمْ بَنُو هَاشِمٍ بَنِي سِنِي مُلْكِهِمْ أَكْثَرَ ، وَمُدَّتْهُ أَطْوَلَ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَتْ مُدَّةُ مُلْكِهِمْ إِلَى الْيَوْمِ أَرْبَعًا وَتِسْعِينَ سَنَةً . وَيَعْبَحُونَ أَيْضًا عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ مَلَكَوا بِالْمِيرَاثِ وَبِحَقِّ الْعَصْبَةِ وَالْعُمُومَةِ ، وَأَنَّ مُلْكَهُمْ فِي مَعْرَسِ نِسْوَةٍ ، وَأَنَّ أَسْبَابَهُمْ غَيْرُ أَسْبَابِ بَنِي مَرْوَانَ ، بَلْ لَيْسَ لِبَنِي مَرْوَانَ فِيهَا سَبَبٌ ، وَلَا يَنْبَغِي لِبَنِيهَا نَسَبٌ ، إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : إِنَّمَا مِنْ قُرَيْشٍ فَيَسْأَلُونَ فِي هَذَا الْأَسْمِ قُرَيْشَ لَطَوَاهِرَ ، لِأَنَّ رِوَايَةَ الرَّائِي : « الْأَتَمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ » وَاقِعَةٌ عَلَى كُلِّ قُرَشِيٍّ ، وَأَسْبَابُ الْخِلَافَةِ مَعْرُوفَةٌ ، وَمَا يَدَّعِيهِ كُلُّ حِيلٍ مَعْلُومٌ ؛ وَإِلَى كُلِّ ذَلِكَ قَدْ ذَهَبَ النَّاسُ ، فَهُمْ مِنْ ادِّعَاءِ لِعَلِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِاجْتِمَاعِ الْقِرَاءَةِ وَالسَّابِقَةِ وَالْوَصِيَّةِ ؛ فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَيْسَ لَأَبِي سَفِينٍ وَآلِ مَرْوَانَ فِيهَا دَعْوَى ، وَإِنْ كَانَتْ

إنما تُنال بالوراثَةِ ، وتُستحقّ بالعمومة ، وتُسوّحَ بحقّ العصبَةِ ، فليس لهم أيضا فيها دعوى . وإن كانت لا تُنالُ إلا بالسوانق والأعمال والجهاد ، فليس لهم في ذلك قدمٌ مذكور ، ولا يومٌ مشهور ، بل كانوا إذا لم تكن لهم سابقة ، ولم يكن فيهم ما يستحقّون به الخلافة ، ولم يكن فيهم ما يمنعهم منها أشدّ لمنع ، لكان أهون ، ولكان الأمر عليهم أيسر ، قد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوة النبي صلى الله عليه وآله وفي محاربه له ، وإحلا به عليه وغروّه إياه ، وعرفنا إسلامه حيث أسلم ، وإحلاصه كيف أحلص ، ومعنى كُتبه يومَ الفتح حين رأى الجود وكلامه يومَ حنين ، وقوله يومَ صعيدِ بلالٍ على الكعبة ، فاذن . على أنه إنما أسلم على يدي العباس رحمه الله ، والعباس هو الذي منع الناسَ من قتله ، وحاء به رديفا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسأله فيه أن يُشرّفه وأن يكرّمه ويؤوّه به ، وتلك يدُ بنيّاء ، ونعمةٌ غراء ، ومقامٌ مشهود ، ويومٌ حُسين غيرُ مجحود ، فكان حراء بنى هاشم من بنيّ أن حاربوا علينا ، وسمّوا الحسن ، وقتلوا الحسين ، وحملوا النساء على الأتخاب حواسر^(١) ، وكشفوا عن عورة علي بن الحسين حين أشكل عليهم ثلوعه كما يُصمّع بدرارى المشركين إذا دخلت دُورهم عموة ، وبعث معاوية بُسرَ بن أرطاة إلى اليمن ؛ فقتل أثق عبيد الله بن العباس ، وهما غلامان لم يبلغا الحلم ، وقتل عبيد الله بن زياد يوم العلف تسعة من صُلب علي عليه السلام ، وسبعة من صُلب عقيل ، ولذلك قال ناعيم :

عين جودي مبرّة وعويل وأندبى إن تدبّت آل الرسول
تسمة كلهم لصُلب علي قد أصيبوا وسبعة لعقيل

نم إن أمة تزعم أن عقيلاً أعان معاوية على علي عليه السلام ، فإن كانوا كاذبين فإولامهم بالكذب ! وإن كانوا صادقين فما جأروا عقيلاً بما صنع ! وضرب عنق مسلم

ابن عقيل صبراً وغدراً بعد الأمان ، وقتلوا معه هاني بن عروة لأنه آواه ونصره ،
ولذلك قال الشاعر :

فإن كنت لا تدرين ما الموتُ فأنظري إلى هاني في السوف وابن عقيل^(١)
ترى بطلاً قد هشم السيف وجهه^(٢) وآخر يهوى من طمار قتييل
وأكلت هديج حرة ، فهم أسكة الأكباد ، ومهم كنف النفاق ، ومهم
من نقر بين نقي الحنين عليه السلام بالقصيب ، ومهم القاتل يوم الحرة عون بن
عبد الله بن حمفر ، ويوم الطف أبا بكر بن عبد الله بن حمفر . وقيل يوم الحرة أيضاً
من بني هاشم الفصل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، والعباس بن
عُتمة بن أبي لهب بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث
ابن عبد المطلب .



قلت : إن أبا عثمان قابس بين مدتي مُلكهما وهو حينئذ في أيام الوثاق ، ففضل
هؤلاء عليهم ، لأن مُلكهم أطول من مُلكهم بعشر سنين ، فكيف لو كان اليوم
حياً ، وقد امتد مُلكهم خمسمائة وست عشرة سنة ! وهذا أكثر من ملك البيت
الثالث من ملوك الفرس نحو ثلاثين سنة . وأيضاً فإن كان الفجرُ بطول مدة الملك
فبنو هاشم قد كان لهم أيضاً ملك بمصر نحو مائتين وسبعين سنة ، مع ما ملكوه بالمغرب
قبل أن ينتقلوا إلى مصر .



(١) البيهقي في الأسماء ٦ : ١٧٤ ؛ وصحبهما بن سليم بن سلام الحنلي .
(٢) اللسان : قد عثر السيف . وطمار : المكان العالي ؛ قال صاحب اللسان : « ويشتد من طمار
بفتح الراء وكسرهما ، مجرى وغير مجرى » قال : « ويروى : قد فرح السيف وجهه » .

قال أبو عثمان : وقالت هاشم لأمية : قد علم الناس ما صنعتم بنا من القتل والتشريد ، لالذنب أتيناكم إليكم ، صرتم على بن عبد الله بن عباس بالسياط مرتين ، على أن تزوج بنت عمه الخفربة التي كانت عند عبد الملك ، وعلى أن تحكتموه قتل سليط ، وسميتم أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وببشتم زيدا وصلتموه ، وألقيتم رأسه في عرصة الدار توطأ بالأقدام ، ويسقر دماغه الدجاج ، حتى قال القائل :

أطرد الديك عن ذؤابة زبيد طالما كان لا تطأه الدجاج
وقال شاعركم أيضا :

صلنا لكم زيدا على جذع محبة ولم رمه ديا على الخدع يصلب
وقيتم عثمان عليا ساهية وعثمان حبر من علي وأطيب

فروى أن بعض الصالحين من أهل البيت عليهم السلام قال : اللهم إن كان كاذبا مسلط عليه كلما من كلامك ، فخرج يوما سمر له ، فعرض له الأسد فافترسه . وقتلهم الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، وقتلهم يحيى بن زيد ، وسميت قاتله : نائر مروان ، وناصر الدين ، هذا إلى ما صنع سليمان بن حبيب بن المهدي عن أمركم وقولكم بعد الله أبي جعفر المنصور قبل الخلافة ، وما صنع مروان إبراهيم الإمام ، أدخل رأسه في حراب نورة حتى مات ، فإن أنشدتم :

أفاس المدامع قتلى كدى وقلى يكتوة لم ترمس
وبالزأبين نفوس توت وأخرى بئر أي فطرس
أنشدنا نحن :

وادكروا مصرع الحسين وزيدا وقيلا بجانب المهراس

والقتيل الذي بنجران أمسى ثاوياً بين غربة وتساس
وقد علمتم حال مروان أبيكم وضعفه ، وأنه كان رجلاً لافقاً له ، ولا يعرف بالهد ولا
الصلاح ، ولا برواية الآثار ، ولا بصحبة ولا ببعده ، وإعما ولي رستاقاً من رستاق
دار محمّد لابن عامر ، ثم ولي البحرين معاوية ، وقد كان جمع أصحابه ومن تابعه ليبيع ابن
الزبير حتى رذّه عبيد الله بن زياد ، وقال يوم مرج راهط ، والرؤوس تندّر^(١) عن كواهاها
في طاعته :

وما صرتم عسير حين المو س وأى علامي قريش علب
هذا قول من لا يستحق أن يلي رعا من لأربع ، ولا حماس من الأخماس ، وهو أحد
من قتلته النساء لكلمة كان حصه فيها .

وأما أبوه الحكم بن العاص فهو طريد رسول الله صلى الله عليه وآله ولعيه والمتحج
في مشيته ، الحاكي لرسول الله صلى الله عليه وآله ، والمستمع عليه ساعة حياته ، ثم صار طريداً
لأبي بكر وعمر ، امتنعاً عن إعادته إلى المدينة ، ولم يقبل بمعاوية عثمان ، فلما ولى أدخله ،
فكان أعظم الناس شؤماً عليه ، ومن أكره الخبيث في قتله وحلعه من الخلافة ، فعبد
الملك أبو هؤلاء الملوك الذين تمتعوا الأموية بهم أعرق الناس في الكفر لأن أحد
أبويه الحكم هذا ، والآخر من قبل أمه معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ؛ كان النبي صلى
الله عليه وآله طرده من المدينة ، وأجله ثلاثاً ، فخبّره الله تعالى حين خرج ، وبقي متردداً
متلذذاً حولها لا يهتدي لسبيله ، حتى أرسل في أثره عبداً عليه السلام وعماراً ، فقتلاه ، فأثم
أعرق الناس في الكفر ، ونحن أعرق الناس في الإيمان ؛ ولا يكون أمير المؤمنين إلا
أولاهم بالإيمان ، وأقدمهم فيه .

قال أبو عثمان : وتمعر هاشم بأن أحداً لم يحدّ تسعين عاماً لا طواعين فيها إلا منذ
ملكوا ، قالوا : لو لم يكن من ركة دعوتنا إلا أن تصيب الأمراء بعالم الخراج

(١) تندّر : أي تسقط فلا يحسب بها .

بالتعليق والزُهق والتحرید والتسهير والمسد والنورة والمحورتين والعذراء والجامعة
والتشطيب قد ارتفع لكان ذلك حيرا كثيرا ، وفي الطاعون يقول العُصَائِيّ الراجز
يذكر دولتنا :

قد رفعَ الله رِمَاحَ الجنِّ وأذهبَ التعديتَ والنَّحَى

والعرب نسي الطواعين رِمَاحَ الجنِّ ، وفي ذلك يقول الشاعر :

لعمرك ما حشيتُ على أُنَى رِمَاحَ بنى مقيدة الحارِ

ولكني خشيتُ على أُنَى رِمَاحَ الجنِّ أو إياك حارِ

يقول بعضُ بني أسد للحارث العسائِيّ الملقب :

قال أبو عثمان : وتفعر هاشمٌ عليهم ؛ أنهم يهدموا الكعبة ، ولم يُحَوِّلُوا القبلة ، ولم
يحملوا الرسول دور الخليفة ، ولم يحضروا في أعين الصحابة ، ولم يبرؤا أوقات الصلوات ، ولم
يمشوا أكتاف المسلمين ، ولم يأكلوا الطعام ويشرُّوا على مبر رسول الله صلى الله عليه
 وآله ، ولم ينهبوا الحرم ، ولم يطنوا المسلات دبر في الإسلام بالسَّباء .

قلت : نقلت من كتاب " افتراق هاشم وعبد شمس " لأبي الحسين محمد بن علي بن
نصر المعروف بابن أبي ربيعة الدباس قال : كان أبو أمية في ملكهم يؤذنون و يقيمون
في العيد ويخطبون بعد الصلاة ، وكانوا في سائر صلاتهم لا يجهرون بالتكبير في الركوع
والسجود ، وكان لهُشام بن عبد الملك خصيٌّ إذا سعد هشام وهو يصلي في المتصورة قال :
لا إله إلا الله ؛ فيسمع الناس يسجدون ، وكانوا يقعدون في إحدى خطبتي العيد والجمعة
ويقومون في الأخرى ، قال : ورأى كعب مروزي الحكم يخطب قاعدا ، فقال : انظروا

إلى هذا يَحْطُبُ قاعداً ، واللهُ تعالى يقول لرسوله : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾^(١) .

قال : وأوّل من قعد في الحطْب معاوية ، وأوّل من أذن وأقام في صلاة العيد بشرُّ ابنِ مروان ، وكان عمّال بني أمية يأخذون الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ، ويقولون : هؤلاء قرّوا من الجزية ، وبأخذوا الصدقة من الخيل ، وربما دحوا دلازلهم قد نَمَقَ^(٢) فرسه أو باعه ، فإذا أنصروا الآحية ، قالوا : قد كان هاهنا فرس ، فهات صدقتها ، وكانوا يؤخّرون صلاة الجمعة نشألاً عنها بالخطبة ، ويُطَيّون فيها ، إلى أن تتجاوز وقت العصر ، وتسكاد الشمس تصفّر ؛ فعل ذلك الوليد بن عبد الملك ويزيد أخوه والحجاج عاملهم ، ووكل بهم الحجاج المالح معه والشبوف عن رؤوسهم ، فلا يستطيعون أن يُصَلُّوا الجمعة في وقتها .

وقال الحسن البصري : واقصا من الخبيث^(٣) ما قفنا عن ديننا ، وصعد على منبرنا ، فيحطب والناس يلتفتون إلى الشمس فيقول : ما أناكم تلتفتون إلى الشمس ! إنّا والله ما نصلّي للشمس ، إنما نصلّي لربّ الشمس ! أفلا تقولون : يا عدوّ الله ، إن الله حنّ بالليل لا يقبله بالنهار ، وحنّ بالنهار لا يقبله بالليل ؛ ثم يقول الحسن : وكيف يقولون ذلك وعلى رأس كل واحد منهم عجاج^(٤) قائم بالسيف !

قال : وكانوا يسبون ذراري الخوارج من العرب وغيرهم ؛ لما قتل قريب وزخاف الخارجيان ، سبي زياد ذراريهما ، فأعطى شقيق بن ثور السدوسي إحدى بنتيهما ، وأعطى عباد بن حصين الأخرى . وسُيِّتَت بنتُ لمبيدة بن هلال اليشكري ، ونبت لقطريّ ابن الفجاءة المازني ، فصارت هذه إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك ، واسمها أم سلمة ؛

(٢) خفي فرسه ؛ أي مات .

(١) سورة الصف ١١ .

(٣) الخفش بالتحريك : سبق في البصر وصحب في العجب . (٤) الملح : الرجل الذي السهم .

(١٦ - نهج - ١٥)

فوطئها بملك اليمن على رأيهم ، فوَلَدَتْ لَهُ لَمُؤْمِلٌ ، وَمُحَمَّدًا ، وَإِبْرَاهِيمَ ، وَأَحْمَدَ ، وَحَصِيْبًا ؛
 بَنَى عَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ . وَسُبَيْ وَاصِلُ بْنُ عَمْرِو الْقِنْدِ وَاسْتَرْقَ ، وَسُبَيْ سَعِيدُ
 الصَّغِيرِ الْحُرُورِيُّ وَاسْتَرْقَ ، وَأُمُّ يَزِيدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ هُبَيْرَةَ ، وَكَانَتْ مِنْ سَبِي عُثْمَانَ الَّذِينَ
 سَاهَمَ مَخَافَةً ، وَكَانَتْ سَوَامِيَّةً تَسْبَحُ لِرَجُلٍ فِي الدِّينِ يَلْزَمُهُ وَتَرَى أَنَّهُ يَصِيرُ بِدَلِكِ رَقِيقًا .
 كَانَ مِنْ أَوْ عَمِيرِ بْنِ مَعْنِ السَّكَنْبَرِ حُرًّا مَوْلَى لِسَى الْعَصْبِ ، فَبِيعَ فِي دَيْنٍ عَلَيْهِ ،
 فَاشْتَرَاهُ أَبُو سَعْدِ بْنِ رِبَادٍ مِنْ عَمْرِو الْمُتَكِنِ ، وَبَاعَ الْحِجَابَ عَلَى بْنِ شَيْبَةَ الْمَاحُورِ لِكُونِهِ
 قَتَلَ رَسُولَ الْمُهَلَّبِ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَرْدِ .

فَأَمَّا السَّكْمَةُ فَإِنَّ الْحِجَابَ فِي أَيَّامِ عَبْدِ الْمَلِكِ هَدَمَهَا ، وَكَانَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ يَصَلِّي
 إِذَا صَلَّى أَوْفَاتِ إِفَاقَتِهِ مِنَ السَّكْرِ إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ ، فَقَبِلَ لَهُ ، فَهَرَأَ : ﴿ فَأَيْسًا تَوَلَّوْا قَسَمَ
 وَجْهَهُ اللَّهُ ﴾ ^(١) .

وَحَطَبَ الْحِجَابَ بِالْكُوفَةِ فَذَكَرَ الَّذِينَ يَزُورُونَ قَدْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
 بِالْمَدِينَةِ ، فَقَالَ : سَأَلُمُ ! إِنَّمَا يَطُوفُونَ بِعَوَادٍ وَرِمَةٍ بَالِيَةٍ ! هَلَّا طَافُوا بِقَصْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 عَبْدِ الْمَلِكِ ! أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ حَدِيفَةَ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ رَسُولِهِ !

قَالَ : وَكَانَتْ سَوَامِيَّةً تَحْمِي فِي أَعْدَقِ الْمَسْمُومِينَ كَمَا تُوسَمُ الْخَيْلُ عِلَامَةً لِاسْتِعْمَادِهِمْ .
 وَبَايَعَ مُسْلِمُ بْنُ عَقْمَةَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ كَفَّةً ، وَفِيهَا ثَقَايَا الصَّحَابَةِ وَأَوْلَادُهَا وَصُلَحَاءُ النَّاسِ
 عَلَى أَنَّ كُلَّ مَسْأَلَةٍ عَنْهُمْ عَدَقْنِ ^(٢) لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ ، إِلَّا عَلَى بْنِ الْحُسَيْنِ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَإِنَّهُ بَايَعَهُ عَلَى أَنَّهُ أَخُوهُ وَابْنُ عَمِّهِ .

قَالَ : وَنَقَشُوا أَكْبَادَ الْمَسْمُومِينَ عِلَامَةً لِاسْتِزْقَاقِهِمْ ، كَمَا يُصْنَعُ بِالْعُلُوجِ مِنَ الرُّومِ
 وَالْحَبَشَةِ . وَكَانَتْ حُطَاءُ بَنِي أُمِيَّةٍ تَكُلُ وَتَشْرَبُ عَلَى اللَّبْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِإِطْلَاقِهِمْ

(١) - سورة القدر ١١٥ .

(٢) - العهد القوي . الذي ولد عندك ولا يستطيع أن يخرج منك .

في الخطّة ، وكان المسلمون تحت مبر الخطّة يأكلون ويشربون .

قال أبو عثمان : وتعمّر بنو العباس على بني مروان ، وهاشم على عبد شمس ؛ بأنّ الملك كان في أيديهم فأنزعوه منهم ، وغلبهم عليه بالنطش الشديد ، وبالحيلة اللطيفة ، ثم لم ينزعوه إلّا من يد أشجعهم شعاعة ، وأشدّهم تدبيراً ؛ وأنعمهم غوراً ، ومن شأ في الحروب ورؤى في الثغور ، ومن لا يعرف إلا الفتوح وسياسة الجنود ، ثم أعطى الوفاء من أصحابه والصبر من قوّاده ، فلم يعدر منهم عاذر ، ولا قصر منهم مقصر ، كما قد بلمك عن حطلة بن بناة ، وعامر بن صارة ، ويريد بن عمر بن هيرة ، ولا أحد من سائر قوّاده حتى من أحبابه وكُناه كعدي الحيد لكاتب ، ثم لم يلقه ، ولا لقي تلك الحروب في عامّة تلك الأيام إلّا رجال ولد العباس ؛ أنفسهم ، ولا قام بأكثر الدولة إلّا مشايخهم كعبد الله بن عليّ ، وصالح بن عليّ ، وداود بن عليّ ، وعبد الصمد بن عليّ ، وقد لقيهم المنصور نفسه .

قال : وتعمّر هاشم أيضاً عليهم بقول النبي صلى الله عليه وآله - وهو الصادق المصدّق : « نُقِلْتُ من الأصلاب الزاكية ، إلى لأرحام الطاهرة ، وما أفرقت فرقتان إلّا كنت في خيرهما » . وقال أيضاً : « نعت من خيرة قريش » .

ومعلوم أن بني عبد مناف افترقوا فكَات هاشم والمطلب بدأ ، وعبد شمس وتوفل بدأ . قال : وإن كان المعمر بكثرة العدديّة من أعظم معاجر العرب ، فولد عليّ بن عبد الله بن العباس اليوم مثل جميع بني عبد شمس ، وكذلك ولد الحسين بن عليّ عليه السلام ، هذا مع قرب ميلادهما ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : شوهاه ولود خير من حسناء عقيم » . وقال : « أنا مكاتركم الأمم » .

وقد روى الشعبي عن جابر بن عبد الله ؛ أنّ النبي صلى الله عليه وآله قدّم من سفر ،

فأراد الرجال أن يطرُقوا النساء ليلاً ، فقال : « امهلوا حتى تَمَشِطَ^(١) الشَّعْثَةَ ،
وتستعدَّ^(٢) المِيعَةَ ، فإذا قدِمتم فالكيس الكيس » . قالوا : ذهب إلى طلب الولد ،
وكانت العربُ تفخر بكثرة الولد ، ونمَّح العَجَل القيس^(٣) ، وتذمُّ العاقرَ والعقيم .
وقال عامرُ بنُ الطفيلِ يعني نفسه :

لَيْسَ الْعَقُّ إِنْ كُنْتُ أَعَوَّرَ عَاقِراً جَبَاناً فَا عُذْرِي لَدَى كُلِّ مُحَضَّرٍ !
وقال علقمة بنُ علاثةٍ يَفْخَرُ على عامرٍ : آمَنْتُ وَكَفَرْتُ ، وَوَفَيْتُ وَغَدَرْتُ ،
وَوَلَدْتُ وَعَقَرْتُ .

وقال الرُّبْرُقَانُ :

فَأَسْأَلُ بَنِي سَدَدٍ وَغَدَرٍ^(٤) يَوْمَ الْفَجَارِ صَنْدُوقَ خُبْرِي
أَيَّ امْرَأَةٍ أَمَّا حِينَ الْمُحَضَّرِ^(٥) لَفْدُ الْمَطَاءِ وَطَالِبُ النَّصْرِ
وإذا هَكَتُ رَكَتُ وَسَطَهُمْ^(٦) وَلَدِي الْكِرَامُ وَنَابَهُ الذُّكْرُ^(٧)
وقال طرفةُ بن العبد :

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ فَيْسَ بْنَ خَالِدٍ وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرُو بْنَ مَرْثَدٍ^(٨)
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَعَادَنِي^(٩) بَنُونَ كِرَامٍ سَادَةٌ لِسُودٍ
وَمَدَحَ النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ نَاساً هَالاً :
لَمْ يَحْرَمُوا طَيْبَ النِّسَاءِ وَأَمَّهُمْ طَفَعْتُ عَلَيْكَ نَتَاقِي مِذْكَارٍ^(١٠)

(١) تَمَشِطُ : ترحل شعرها وتصفهه ، والشعثة : التلعة الشعر .

(٢) المِيعَةُ : التي طامسها روحها . والاستعداد حلق العانة (٣) القيس كناية : الفعل السريع الإلفاح .

(٤) يقال : به فلان ؛ أي شرف فهو نابه وشبهه .

(٥) دواؤه ٥٨ .

(٦) ديواته ٣٧ ، وروايته : « لَمْ يَحْرَمُوا حِينَ الْمَدَاءِ » . وطفعت : البعت وعتت . والناتق ،

مأخوذ من تنق البقاء ، يقال : اتقى سقاءك ، أي اتقى ما فيه ، وإنما يريد أنها تنفس ما في رجبها .

والذكور : التي تلد الذكور .

وقال نهشل بن حرثي :

على نبي يشد الله عظمهم والدنح يذيت قضباناً فيكتهل
ومسكت الفرزدق زماناً لا يؤلد له فغيرته أسراؤه ، فقال :

قالت أراه واحداً لا أحاله يؤمله في الواريين الأباعد^(١)

لعلك يوما أن تربى كأنما بنى حوالى اللبوث الخوارد^(٢)

فإن تمها قبل أن يلد الخصاص أقام زماناً وهو في الناس واحد

وقال الآخر ، وقد مات إخوانه ، وملا حوصه ليسيقي ، فجاء رجل صاحب عشرة وعشرة ، فأخذ يصعق فتعاه ، ثم قال لراعيه : سقي إيلك :

لو كان حوض حمارٍ ماشرت به إلا ياذن حمارٍ آحمر الأبد

لكه حوض من أودى بإخوانه ريب المون قامسى بيصة اللد

لو كان يشكى إلى الأموات مالتى أحياه تمدم من قلة المدد

ثم اشتكيت لأشكاني وأحمدنى قبرٌ يسجار أو قبرٌ على الحد^(٣)

وقال الأعشى وهو يذكر الكثرة :

واستأ بالأكثر منهم حتى وإنما العيرة للكاثر

قال : وقد ولد رجال من العرب كل منهم بيلد لصلبه أكثر من مائة ، فصاروا

بذلك معضراً ، منهم عبد الله بن عمير اللثني ، وأنس بن مالك الأنصاري ، وخليعة بن

بر السعدي ، أتى على عاقبتهم الموت الجارف . ومات جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله

ابن العباس عن ثلاثة وأربعين ذكراً وخمس وثلاثين امرأة كلهم لصلبه ، فما ظلك بمن

مات من ولده في حياته ! وليس طبقة من طبقات الأسنان الموت إليها أسرع ، وفيها أعم

(١) ديوانه ١٧٢ ، وروايته : « تقول أراه » .

(٢) الموارد : المقولون ؛ ورواية الديوان :

فإن عسى أن تبصر بني كأنما بنى حوالى الأسود اللوابد

(٣) سنجار : بلد على ثلاثة أيام من الموصل .

وأفشى من سِنِّ الطُّغُوئية ، وأمرُ حفص بن سليمان قد عابته عالمٌ من الناس ، وعامتهم
أحياء ، وليس خبر حفص كخبر غيره من الناس .

قال الهيثم بن عدي : أفضى أُنْتُك إلى ولَدِ العباس ، وجميع ولَدِ العباس يومئذٍ من
الدُّكور ثلاثة وأربعون رجلاً ، ومات جعفر بن سليمان وحده عن مثل ذلك العدد من
الرجال . ومن قُرْب ميلاده وكثر سَلُه حتى صار كبعض القبائل والعمائر أبو بكر صاحبُ
رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمُهَلَّب بن أبي صُفْرة ، ومُسلم بن عمرو الباهلي ، وزِياد
ابن عبيد أميرُ العراق ، ومالكُ بن مِسْعَر ، ولَدُ جعفر بن سليمان اليومَ أكثرُ عدداً من
أهل هذه القبائل . وأربعة من قريش ترك كل واحد منهم عشرة سِنِّ مذكورين
معروفين وهم : عبدُ المطلب بن هاشم ، والمطلب بن عبد مناف ، وأمية بن عبد شمس ،
والغبرة بن المُعيرة بن عبد الله بن عُمر بن محروم ، وليس على ظهر الأرض هاشميٌّ إلا من
ولَدِ عبد المطلب ، ولا يشك أحدٌ أن عدداً هاشميين شبيه بعداد الجميع ، فهذا ما
الكثرة والقلة .

قلتُ : رحمَ الله أبا عثمان لو كان حيّاً اليومَ لرأى ولَدَ الحسن والحسين - عليهما
السلام - أكثرَ من جميع العرب الذين كانوا في الجاهلية على عصرِ النبي صلى الله عليه
وآله للسَّيدين منهم والكافرين ، لأنهم لو أحصوا لما قُصَّ ديوانهم عن مائتي
ألف إنسان .

قال أبو عثمان : وإن كان العصر بنبل الرأي ، وصواب القول ، فمن مثل عباس بن
عبد المطلب وعبد الله بن العباس ! وإن كان في الحكم والتؤدد وأصالة الرأي والنساء
العظيم فمن مثل عبد المطلب ! وإن كان في الفقه والعلم بالتأويل ومعرفة التأويل وإلى القياس
السديد وإلى الألسنة الحداد والخطب الطوال ، فمن مثل علي بن أبي طالب عليه السلام
وعبد الله بن عباس !

قالوا : خطبنا عبد الله بن عباس حُطبةً بمكة أيام حصار عثمان لو شهدنا الترك والديلم لأسلموا .

وفي عبد الله بن العباس يقول حسان بن ثابت :

إذا قال لم يترك معالاً لقاتلٍ بمغتطاتٍ لا ترى بينها فضلاً
شقي وكفى مافي التمسوس فلم بدع لذي إزبة في القول حدًا ولا هزلًا

وهو البخر ، وهو الخبز ؛ وكان عمرُ يقول له في حديثه عند إحالة الرأي : غصن يا غوص^(١) ؛ وكان يقدمه على حلة السلب .

قلت : أبى أبو عثمان إلا إعراصاً عن علي عليه السلام ، هلاً قال فيه كما قال في عبد الله ! فلمعمرى لو أراد لو جد محالا ، ولأبى قولاً وسيعاً ؛ وهل تعلم الناس الخطب والعهود والمعصاة إلا من كلام علي عليه السلام ! وهل أحد عبد الله رحمه الله الفقه وتفسير القرآن إلا عنه ! فرحم الله أبا عثمان ، لقد عشت البصرة وطبعتها على إصابتها به ! قال أبو عثمان : وإن كان الفخر في البسالة والسخنة وقتل الأقران وحرر العرسان ، فمن كحمرة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب ! وكان الأحنف إذا دكر حمزة قال : أكيس ، وكان لا يرضى أن يقول : شعع ، لأن العرب كانت تحمل ذلك أربع طبقات ، فتقول : شعاع ، فإذا كان فوق ذلك قالت : تطل ، فإذا كان فوق ذلك قالت : بهمة ، فإذا كان فوق ذلك قالت : أكيس . وقال المصاحح :

• أكيس عن حوَّانه متحى •

وهل أكثر ما يمد الناس من حرواحها وصرعها إلا سادسكم وأعلامكم ! قتل حمزة وعلي عليه السلام عتة والوليد ، وقتلاً شبيهة أيضاً ، شرَّ كما عبيدة بن الحارث فيه ؛ وقتل علي عليه السلام حنظلة بن أبي سفيان . فتمَّ بكم من بني مروان قلوبهم كما قال

(١) يريد أنه ضرب بالأمور ، عارب بدنيها وحليها .

عبدُ الله بن الزبير لما آتاه خبر للنصب : إنا والله مانعوت حَبَاحاً^(١) كما يموت آلُ أبي العاص ، والله ما قُتِلَ منهم قَتِيلٌ في جاهلية ولا إسلام ، وما يموت إلا قَتْلًا ؛ قَمَصًا^(٢) بالرماح ، ومَوْتًا تحت ظلال السيوف .

قال أبو عثمان : كأنه لم يمد قتل معاوية من للغيرة بن أبي العاص قَتْلًا ، إذ كان إنما قتل في غير معركة ، وكذلك قتل عثمان بن عفان ؛ إذ كان إنما قتل محاصرًا ، ولا قتل مروان ابن الحكم ؛ لأنه قتل حَقًّا ، حَقُّهُ التَّاء . قال : وإنما حرَّ عبدُ الله بن الزبير بما في بني أسد بن عبد العزى من القَتْلِ ، لأن من شئ العرب أن يهزروا بذلك ، كيف كانوا قاتلين أو مَقْتُولين ، ألا ترى أنك لا تصيب كثرة القَتْلِ إلا في القوم المروفين بالناس والتَّحَدَّةِ وكثرة اللقاء والمخاربة ، كآل أبي طالب ، وآل الزبير ، وآلِ للهِبِ !

قال : وفي آل الزبير حادثة سمة مقتولون في نسق ولم يوجد ذلك في غيرهم ، قُتِلَ عمارة وحمزة أسد الله بن الزبير يومَ فُذَيْدٍ في المعركة ، قتلتهما الإِصْبِيَّةُ ، وقيل عبد الله بن الزبير في محاربة الحجاج ، وقتل مصعب بن الزبير بدَيْرِ الجاثليق^(٣) في المعركة أكرمَ قتل ، وديارنه عبدُ الملك بن مروان ، وقيل الزبير بوادي السَّاعِ مُنْصَرَفَهُ عن وقعة الجمل ، وقُتِلَ العوام بن خُوَيْلِدٍ في حربِ المعارك ، وقُتِلَ حُوَيْلِدُ بنُ أسد بن عبد العزى في حرب حُرَاعَةَ ، فهو لاء سبعة في نسق .

قال : وفي بني أسد بن عبد العزى قَتْلَى كثيرون غير هؤلاء ، قُتِلَ المنذر بن الزبير بمَكَّةَ ، قَتَلَهُ أَهْلُ الشَّامِ في حرب الحجاج ، وهو على نعل ورْدٍ كان نَعْرَهُ فَاصْعَدَهُ في الحقل .

(١) في الأصول : « حبا » تحريف ؛ وفي اللسان : « اصبح متحيف » ، من أكل العير لحاء العرماج ويسمى عبه وربما بشم منه فقله ، بصرى بنى صهوان لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدب وأنهم يموتون بالثَّغَةِ . وانظر نهاية ابن الأثير .

(٢) القمص : الموت الوحى ، يقال : مات قَمَصًا ، إذا أصابه صبره أو رمية فأتى مكانه .

(٣) الجاثليق : رئيس البشارى في بلاد الإسلام .

وإتياء بمعنى يزيد بن مفرغ الحميري وهو يهجو صاحبكم عبداً لله بن زياد ويعتبه بفراره
يوم البصرة :

لأبن الزبير غداة تدمر منذراً أولى مكل حيلة ودفاع
وقتل عمرو بن الزبير، قتله أخوه عبد الله بن الزبير، وكان في حوار أخيه عبدة بن
الزبير فلم يُفِن عنه، فقال الشاعر يحرّض عبدة على قتل أخيه عبد الله بن الزبير، ويعتبه
بإخفائه جوار عمرو أخيهما :

أُعبد لو كان الخير لو لولت سعد الهدوء برّة أسماء
أُعبد إليك قد أحرّت وجاركم تحت الصّبح تنوء الأصداء^(١)
أضرب بسيفك صرّة مذكرة فيها أدام أمانة ووفاء
وقتل عُتَيْرُ بن العوام أخو الزبير بن العوام، قتله سعد بن صفح الدؤسي حد
أبي هريرة من قتل أمه، قتله ساحية البيمة، وقتل معه أصرم وتعلت أحويه أبي العوام
ابن خويلد، وقد قتل منهم في محاربة النبي صلى الله عليه وآله قوم مشهورون، منهم
رمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، كان شريفاً، قتل يوم بدر،
وأبوه الأسود، كان أنثى يصرب سرته بمكة، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو
يذكر عاقر الناقة : « كان عزيزاً مبيهاً كأي رمعة »، وبسكى رمعة من الأسود بأحكيمة، وقتل
الحارث بن الأسود بن المطلب يوم بدر أيضاً : وقتل عبد الله بن حميد بن رهير من الحارث
ابن الأسود بن المطلب بن أسد يوم بدر أيضاً، وقتل نوفل بن خويلد يوم بدر أيضاً ؛
قتله علي بن أبي طالب عليه السلام، وقيل يوم الحرة يزيد بن عبد الله بن رمعة من
الأسود، ضرب عنقه مُسرف بن عقيقة صبراً^(٢) قال له : بايع لأمر المؤمنين يريد

(١) الصّبح : المحاربة الرافق، والأصداء : جم صدى، وهو ما يرد على الصوت

(٢) صبرا، أي حبساً .

ابن معاوية على أمك عبد قن له ، قال : بل أبيكم على أبي أخوه وابن عمه ، فصرّب
عمّه . وقُتِلَ إسماعيل بن هبار بن الأسود ليلاً ؛ وكان أدعى حيلةً فخرج مُصرخاً
لمن استصرّخه ؛ فقتل ؛ فاتهم به مُصعب بن عبد الله بن عبد الرحمن ، فأحلفه معاوية
خمين يمينا ، وخلّ سبيله ، فقال الشاعر :

ولا أحيب مليل داعياً أداً أحشى العرور كما غرّ ابن هبار
باتوا يجرّونه في الحشر مُصعراً شس الهدية لابن العم والجبار

وقُتِلَ عبدُ الرحمن بن العوّام بن خويلد في خلافة همر بن الخطّاب في بعض المغازي ،
وقُتِلَ أسه عبدُ الرحمن يوم الدار مع عمر ، صدّ الله بن عبد الرحمن بن العوّام بن
خويلد قتيل ابن قتيل ابن قتيل أرسه . ومن قتلام عيسى بن مُصعب
ابن الرير ، قُتل بين يدي أبيه عسكى^(١) في حرب عبد الملك ، وكان مُصعب
[بكى أبا عيسى وأنا عبد الله وفيه يقول الشاعر] .

لِتَشْكُ أبا عيسى ، وعيسى كلاماً موالي قرّيش كهلها وصميمها
ومنهم مُصعب بن عكاشة بن مُصعب بن الزبير ، قُتل يوم قديد في حرب الحوارج ،
وقد ذكره الشاعر فقال :

قَمْنٌ قَائِدُ بَنٍ رِحَالاً قُودُوا قُودُوا وَلُفْصَالِ الْمَدَدِ
ثُمَّ لَا تَعْدِلُنَّ فِيهَا مُصَعّاً حِينَ يُسْكِي مِنْ قَتِيلٍ نَاحِدَ
إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهَا بَاسِلاً صَارِماً بِقَدِيمِ إِقْدَامِ الْأَسَدِ

ومنهم خالد بن عثمان بن خالد بن الرير ، خرج مع محمد بن عبد الله بن حسن
ابن حسن ، فقتله أبو جعفر وصّده . ومنهم عتيق بن عامر بن عبد الله بن الزبير ، قُتل
بقديد أيضاً ، وسُمّي عتيقاً باسم جدّه أبي بكر الصّدّيق .

(١) مسكن ، كسجد : موضع بالكوفة .

قلت : هذا أيضا من تحامل أبي عثمان ، هَذَا ذَكَرَ قَتْلَ الطَّفِّ وَهُمْ عَشْرُونَ سَيِّدًا مِنْ بَيْتٍ وَاحِدٍ قَتَلُوا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ! وَهَذَا مَا لَمْ يَقَعْ مِثْلُهُ فِي الدُّنْيَا لَا فِي الْعَرَبِ وَلَا فِي الْعَجَمِ . وَلَمَّا قُتِلَ حَذِيفَةُ بْنُ بَذْرٍ يَوْمَ الْهَبَاءِ ^(١) وَقُتِلَ مَعَهُ ثَلَاثَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ضَرَبَتْ الْعَرَبُ بِذَلِكَ الْأَمْثَالِ وَاسْتَعْظَمُوهُ ، لَهَاءَ يَوْمِ الطَّفِّ ، هَ حَرَى الْوَادِي فَطَمَ عَلَى الْقَرْيِ ^(٢) »

وَهَلَّا عَدَدُ الْقَتْلِ مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ فِيهِمْ إِذَا عُذُّوا إِلَى أَبْنَامِ أَبِي عَثْمَانَ كَانُوا عَدَدًا كَثِيرًا أَضْعَافَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ قَتْلِ الْأَسَدِيِّينَ !
قَالُوا أَبُو عَثْمَانَ : وَإِنْ كَانَ الْعَجْرُ وَالْقَصْلُ فِي الْخُودِ وَالسَّيَاحِ مِنْ مِثْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَفْصٍ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ! وَمَنْ مِثْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ عَبْدِ الطَّلَبِ !
وَقَدْ اعْتَرَضَتْ الْأُمُيَّةُ هَذَا الْمَوْضِعَ فَقَالَتْ : لِمَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَفْصٍ يَهَبُ مَا كَانَ مُعَاوِيَةُ وَزَيْدُ يَهَبَانِ لَهُ ، فَفِي فَصْلِ جُودِيَا جَدِّ .

قَالُوا : وَمُعَاوِيَةُ أَوَّلُ رَحِلٍ فِي الْأَرْضِ وَهَبَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَأَسُهُ أَوَّلُ مَنْ صَاعَمَ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحْيِزُ الْحَسَّ وَالْحُسَيْنَ ابْنَيْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كُلِّ عَامٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ثَلَاثَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَحْيِزُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَاصِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَفْصٍ ، وَلَمَّا مَاتَ وَقَامَ يَرْدُ وَفَدَّ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَفْصٍ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُعَاوِيَةَ كَانَ يَصِلُ رَحِيٍّ فِي كُلِّ سَنَةٍ ثَلَاثَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، قَالَ : فَكُلُّ أَلْفٍ دِرْهَمٍ ، فَقَسَالَ : نَأَى أَسْتُ وَأُمِّي ! أَمَا إِنِّي مَا خَلْتُهَا لِأَسْ أَنْتَ قَتَلْتَهُ ، قَالَ : فَكُلُّ أَرْبَعَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ . وَهَذَا الْإِعْتِرَاضُ سَاقِطٌ ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنْ صَحَّ لَمْ يُعَدَّ حُودًا وَلَا جَائِزَةً وَلَا صِلَةً رَحِيمٍ ، هُوَلَاءُ

(١) يَوْمُ الْهَبَاءِ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ لِلْمَشْهُورَةِ .

(٢) قَالَ صَاحِبُ بَعْضِ الْأَمْثَالِ ١ : ١٥٨ هَ أَيُّ حَرَى سَبِيلِ الْوَادِي فَطَمَ ، أَيُّ دَمٍ ، يُقَالُ : فَطَمَ السَّبِيلَ الرَّكْبَةَ ، أَيُّ دَقَّهَا . وَالْقَرْيُ - بَحْرِي السَّاءِ فِي الرُّوحَةِ وَالْجَمْعُ أَقْرِيَّةٌ وَفَرِيَانٌ . - أَيُّ آيٍ عَلَى عَلَى الْقَرْيِ ، بِمَعْنَى أَهْلِكَ بِأَنَّ دَمَهُ .

قومٌ كان يخافهم على مُلكِهِ ، ويعرف حقهم فيه ، وموقعهم من قلوب الأُمّة ، فكان يدبّر في ذلك تدبيراً ، ويربح^(١) أموراً ، ويُبصّر عن دولته وملكه ، ونحن لم نصدّ قطّ ما أعطى خلفاء بني هاشم قوادهم وكتّابهم وبنى عمّهم خوفاً ، فقد وهب المأمونُ للحسن ابن سَهْل غلّة عشرة آلاف ألفٍ فما عُدّ ذلك منه مَكْرَمة ، وكذلك كلُّ ما يكون واحلاً في باب التجارة وأستالة القلوب ، وتدبير الدولة ، وإيّا ما يكون الجود ما يدفعه للولك في الوفود الخطباء والشعراء والأشراة والأدباء والشهرو محوم ؛ ولولذلك لكان الخليفة إذا وقى الجند أعطيتهم احتسب ذلك في حوده ؛ فالعالماتُ شيء ، والإعطاء على دفع المَكروه شيء ، والتفصل والحد شيء . ثم إن الدين أعطاهم معاويةً ويزيدُ هو مصُ حقهم ، والذي فصل عليهما أكثر مما خرج منهما .

وان أريد الموارنة بين موك بني المباس وموك بني أمية في العطاء افصح بنو أمية وناصرهم فصيحة طاهرة ، فإنّ نساء خلفاء بني عبّس أكثر معروفاً من رجال بني أمية ، ولو ذكرتُ معروف أم جعفر وحدها لآتى ذلك على جميع صنائع بني مروان ، وذلك معروف ، ولو ذكر معروف الخيزران وسنبل لم يأت العلوامير الكثيرة به ، وما نظنّ خالصة مولاتهم إلّا فوق أخواد أخوادهم ، وإن شئت أن تدكر مواليتهم وكتّابهم فاذا ذكر عيسى بن ماهان ، واسه عبيد ، وحالد بن برمك وأبوه يحيى ، وأبنته حفصراً والفصل وكانهم منصور بن زياد ومحمد بن منصور وفقى العسكر ، فإنّك تجد لكل واحد من هؤلاء ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس .

فإنما موك الأموية فليس منهم إلّا من كان يُتَحَلّ على الطعام ، وكان حفص بن سليمان كثيراً ما يذكر ذلك ؛ وكان معاوية يُغض الرجل النهم على مائدته ، وكان

(١) يربح : يربد .

المنصور إذا ذكرهم يقول : كان عبدُ الملك حباراً لا يُبالي ما صنع ، وكان الوليدُ يُجنونا ، وكان سليمان همُّه نطه وقرُّه ، وكان عمرُ أعور بين عميان ، وكان هشامُ رجل القوم ، وكان لا يذكر ابن عاتكة . ولقد كان هشام مع ما استثناء به يقول : هو الأحول السَّراق ، مازال يُدخل إعطاء الخلد شهرًا في شهرٍ وشهرًا في شهرٍ حتى أخذ لنفسه مقدار رِوقِ سنة ، وأنشده أبو النعم العجل أرحوزته التي أولها :

• الخلد لله الوهب المحزل •

فما زال يُصفق بيديه أستحساناً له حتى صار إلى ذكر الشمس ، فقال :

• والشمس في الأفق كمين الأخوك •

فأمر بوج : ^(١) عتقه وإحراجه ، وهذا صنف شديد ، وحمل عظيم .

وقال خاله إبراهيم بن هشام المحرومي : ما رأيتُ من هشام خطأ قط إلا مرتين :

حدّاه الحادي مرة فقال :

إنَّ عليك أيُّها المُحنى أكرم من تمشى به المطي

فقال : صدقت . وقال مرة : والله لأشكون سليمان يوم القيامة إلى أمير المؤمنين

عبد الملك . وهذا صنف شديد ، وحمل مُفرط .

وقال أبو عثمان : وكان هشام يقول : والله إني لأستحي أن أعطي رجلاً أكثر من

أربعة آلاف درهم ، ثم أعطى عبد الله بن الحسن أربعة آلاف دينار فاعتدّها في جوده

وتوسّع ، وإنما اشترى بها ملكه ، وحصّن بها عن نفسه وما في يديه . قال له أخوه مسلة :

أتطامع أن تلي الخلافة وأنت محيل حبار ! فقال : ولكني حلیمٌ عفيف ، فاعترف بالجبن

والبخل ؛ وهل تقوم الخلافة مع واحد منهما ! وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم ،

والتفكير الشديد . ولو سلمت من العساد لم تعلم من العيب .

(١) الوج : الضرب .

ولقد قَدَّم المنصورُ عليهم عمرَ بنَ عبد العزيز بقوله : أَعَوُّزُ بَيْنَ عُثْمَانَ ؛ وزعمتم أنه كان ناسكاً ورعاً تقياً ، فكيف وقد حُلِدَ حُيَيْبٌ بن عبد الله بن الزبير مائة جلدة ، ووصَبَ على رأسه جِرَّةٌ من ماء بارد في يوم شاتٍ ، حتى كُرَّ (١) فَمَاتَ ، فَمَا أَقْرَبَ بَدَمَهُ ، وَلَا خَرَجَ إِلَى وَلِيِّهِ مِنْ حَقِّهِ ، وَلَا أُعْطِيَ عَقْلاً وَلَا قُوَّةً ؛ وَلَا كَانَ حُيَيْبٌ مِمَّنْ أَتَتْ عَلَيْهِ حُدُودُ اللَّهِ وَأَحْكَامُهُ وَقَصَاصُهُ ؛ فيقال : كان مطيعاً برفقتها ، وأنه أَزْهَقَ الحَدُّ نَفْسَهُ ! واحتسبوا الصرب كان أدنا وتمزيراً ، فمأذره في الماء البارد في الشتاء ، على أثر حُلْدٍ شديد ! ولقد بلغه أن سليمان بن عبد الملك يوصى ، فجاء حتى جلس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه ، فقال رجاء بن حيوة في بعض من يدخل ومن يخرج : نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر ، أو تشير بي في هذا الشأن ؛ فوالله مالى عليه من طاعة ! فقال له رجاء : قاتلك الله ؛ ما أحرصك عليها !

ولما جاء الوليد بن عبد الملك بهي الحجاج ؛ قال له الوليد : مات الحجاج يا أبا حفص ؟ فقال : وهل كان الحجاج إلا رحلاً من أهل البيت ؛ وقال في خلافته : لولا بيعة في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجمت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعوص إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق وبين أحسن قریش القاسم بن محمد بن أبي نكر ، وبين سالم بن عبد الله بن عمر ؛ فما كان عليه من الضرر والخرج ، وما كان عليه من الوَكْب (٢) والنقص أن لو قال : بين علي بن المباس وعلي بن الحسين بن علي ؛ وعلى أنه لم يرد التيمم ولا العدوى ، وإنما دبر الأمر للأُموي ، ولم يكن عنده أحدٌ من هاشم يصالح للشورى ، ثم دبر الأمر لبياض لأخيه أبي نكر بن عبد العزيز من بعده حتى عُوجِلَ بالسُّمِّ . وقَدَّم عليه عبدُ الله بنُ حسن بن حسن ، فما رأى كآله وبيانه وعرف نسبهم ومركبه

(١) كُرَّ ، أى أصابه كزاز ؛ كعراب ورمات ؛ وهو داء يجرى من شدة البرد .

(٢) الوكب ، عركة ؛ الإثم .

وموضعه وكيف ذلك من قلوب المذمومين وفي صدور المؤمنين لم يدعه يبيت بالشام ليلة واحدة ، وقال له : الحق بأهلك ، فإنت لم تعيهم شيئا هو أمس منك ولا أريد عليهم من حياتك . أحاف عليك طواعين الشام ، وستلحقك الحوائج على ما تشتهي وتمحب . وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه ، فلعنه يبدؤ في قلوبهم ندرا ، ويعرس في صدورهم غرسا ، وكان أعظم خلق قولا بالجهر حتى يتصور الحمية ، ويرى على كل ذي عاية ، صاحب شناعة ، وكان يصع ذلك الكتب ، مع جهله بالكلام وقلة اختلافه إلى أهل النظر . وقال له شوذب الخارجى . لم لا تلعن رهنك وتذكر أباك إن كانوا عندك طمة حرة ؟ فقال عمر : متى عهدك لمن فرعون ! قال . مالى به عهد . قال : أفيسعك أن تمك عن لعن فرعون ، ولا يسمي أن أمك عن لعن آباءى ! فرأى أنه قد حصمه ^(١) وقطع حجته ، وكذلك يطمه كل من قصر عن مقدار العالم ، وجاور مقدار الخاهل ، وأى شه لمرعون نال مروا وآل أبى سفيان هؤلاء قوم لم حرب وشيعة ، وبأس كثير يدينون بتعريضهم وقد اعتورثهم الشىء في أمرهم ، وفرعون على خلاف ذلك ، وضده لا شيعة له ولا حرب ولا نسل ولا موالى ولا صانع ولا فى أمره شبهة . ثم إن عمر ظنين ^(٢) فى أمر أهله فيحتاج إلى غسل ذلك عنه بالبراءة منهم ، وشوذب ليس بظنين فى أمر فرعون ، وليس الإمامك عن لعن فرعون والبراءة منه مما يعرفه الحوارج ، فكيف استويا عنه !

وشكا إليه رجل من رهنه دينا فادحا ، وعيالا كثيرا ؛ فاعتل عليه ، فقال له : فهلا اعتلت على عبد الله بن الحسن ! قال : ومتى شاورتك فى أمري ! قال : أو مشيرا

تراني ! قال . أو هل أعطيته إلا بعض حقه ! قال : ولم قصرت عن كله ؟ فأمر بإخراجه وما زال إلى أن مات محروماً منه .

وكان عمال أهله على البلاد عماله وأصحابه . والذي حس أمره ، وشه على الأغنياء حاله ، أنه قام بعقب قوم قد بدّلوا عامة شرع الدين وسنن النبي صلى الله عليه وآله ، وكان الناس قبله من العلم والجور والتهون بالإسلام في أمر صغر في حننه عابثوا منه ، وألقوه عليه ، فجعلوه بما نقص من تلك الأمور القطيعة في عداد الأئمة الراشدين ، وحسبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون علياً عليه السلام على مسارهم ، فما هي عمر عن ذلك عدّ محسناً ، وبشهد لذلك قول كثير فيه :

وَلَيْتَ قَلَمٌ تَشْتُمُ عَلِيًّا وَلَمْ يَكُفْ بِرَبِّهِ وَلَمْ تَسْعَ مِفَالَةَ مُحَرَّمٍ

وهذا الشعر يدل على أن عقيم علي عليه السلام قد كان لم عادة ، حتى مدح من كفت عنه ؛ ولما ولي خالد بن عبد الله القسري مكة وكان إذا خطب بها لع علياً والحسن والحسين عليهم السلام - قال عبيد الله بن كثير السهمي :

لَنْ أَلْفَ مَنْ يَسُبُّ عِيًّا وَحُيِّنًا مِنْ سُوْقَةٍ وَإِمَامٍ
أُسَبُّ لِلطَّاهِرُونَ حُدُودًا وَالْكَرَامُ الْآبَاءُ وَالْأَعْمَامُ
يَأْمَنُ الطَّيْرُ وَالْحِمَامُ وَلَا يَأْ مَنْ آلُ الرُّسُولِ عِنْدَ الْمَقَامِ !
طَبَتْ يَتًّا وَطَابَ أَهْلُكَ أَهْلًا أَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ وَالْإِسْلَامِ !
رَحْمَةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِمْ كُلُّ قَامٍ قَائِمٌ سَلَامًا !

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عثمان - وكان ممن يناله بزعهم إلى هشام بن عبد الملك ، وهو يخطب على المنبر بعرفة - فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا يوم كانت

الخلفاء تستحب فيه لمن أبي تراب^(١) ، قتل هشام : ليس لهذا جثا ، ألا ترى أن ذلك يدل على أنه قد كان لعنه فيهم فاشيا ظاهرا ، وكان عبد الله بن الوليد هذا يلعن عليا عليه السلام ويقول : قتل جدّي جميعا ؛ الزبير وعثمان .

وقال النخعي وهو عامل معاوية يومئذ لصمصعة بن ضوحان : قم قائم عليا . فقام فقال : إن أميركم هذا أمرني أن ألعن عليا ، فآلعه له الله ! وهو يصير للميرة . وأما عبد الملك فحبك من جهله بتبديله شرائع الدين والإسلام ، وهو يريد أن يلي أمور أصحابها بذلك الدين بعينه ، وحسبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير في منع نفي هاشم الخلافة أن يلعن علي بن أبي طالب عليه السلام على منابرهم ، ويؤمى بالفقور في محالسه ، وهذا قرّة عين عدوه وعزّ واثقه ، وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلا : إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ولا بالخليفة المداخن ، ولا بالخليفة المأفون^(٢) . وهؤلاء سلكه وأتمته ، وشققهم قام ذلك المقام ، وتقدّمهم وتأسيسهم نال تلك الرئاسة ، ولولا العادة المتقدمة ، والأجناس المجتدة ، والصنائع القائمة ، لكان أمدّ خلق الله من ذلك المقام ، وأقرّبهم إلى التهلكة إن دام ذلك الشرف . وعنى بالاستضعف عثمان ، والمداخن معاوية ، والمأفون يزيد بن معاوية ؛ وهذا الكلام نقض لسلطانه ، وعداوة لأهله ، وإفساد لقلوب شيعته ، ولو لم يكن من عجز رأيه إلا أنه لم يقدر على إظهار قوته ، إلا بأن يظهر عجز أئمنه لكفالك ذلك منه . فهذا ما ذكرته هاشم لأنفسها .

[مفاخر بني أمية]

قالت أمية : لنا من عوادير الرجال في العقل والبداهة والأدب والمكر ما ليس لأحد ،

(١) أبو تراب ؛ من كنى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

(٢) المأفون : المصعب .

ولنا من الأجواد وأصحاب الصنائع ما ليس لأحد ، زعم الناس أن الدهاة أربعة : معاوية بن أبي سفيان ، وزيد ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، فمنا رجلان ، ومن سائر الناس رجُلان . ولنا في الأجواد سعيد بن العاص ، وعدُّ الله بنُ عاص ؛ لم يوجد لهما نظيرٌ إلى الساعة . وأما نوادر الرجال في الرأي والتدبير فأبو سفيان بن حرب ، وعبدُ الملك ابنُ مروان ، ومسleme بنُ عبد الملك ، وعلى أنهم يمدِّون في الخلفاء والرؤساء ، فأهلُ الحجاز يضرِّبون المثل في الحلم بمعاوية ، كما يضرب أهلُ العراق المثل فيه بالأحنف .

فأما الفتوح والتدبير في الحرب فمعاوية غير مدافع ؛ وكان خطيباً مصقفاً ، ومُجرباً مظهرًا ، وكان يحيد قولَ الشمر إذا آثر أن يقوله ، وكان عبدُ الملك خطيباً حازماً محرباً مظهرًا ، وكان مسleme شجاعاً مدبرًا وسائلاً مقدماً ، وكثيرَ الفتوح كثيرَ الأدب . وكان يزيد بنُ معاوية خطيباً شاعراً ، وكان الوليد بنُ يزيد خطيباً شاعراً ، وكان مروان بنُ الحكم وعبدُ الرحمن بنُ الحكم شاعرَيْن ، وكان بشر بنُ مروان شاعراً ناسبًا ، وأديباً عالمًا ؛ وكان خالد بنُ يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، جيدَ الرأي ، أديباً كثيرَ الأدب ، حكيمًا ؛ وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرب أهلَ الحكمة ورؤساء أهل كلِّ صناعة ، وترجم كتبَ العلوم والفنون والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات .

قالوا : وإن ذكرت البأس والشجاعة فالعباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان ابن محمد ، وأبو محمد بن مروان بن الحكم ، وهو صاحبُ مُصمب ، وهؤلاء قومٌ لم آثار بالروم لا تحمل ، وآثارٌ بأرمينية لا تُسكر ، ولم يوم القفر ؛ شهد مسleme والعباس ابنُ الوليد .

قالوا : ولما الفتوح العظام ، ولنا فارس ، وخراسان ، وأرمينية ، وسجستان ، وإفريقية ، وجميع فتوح عثمان ؛ فأما فتوحُ بني مروان فأكثَر وأعم وأشهر من أن

محتاج إلى عدد أو إلى شاهد . والذين بلغوا في ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خُفٍّ وحافر أن يبلغه؛ حتى لم يحتجز منهم إلا بسحر أو خليج بحر أو غياض أو عقاباً أو حصون وصياصى ثلاثة رجال : قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ بخراسان ، وموسى بْنُ نُصَيْرٍ يافريقية ، والقاسمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بن القاسم الثقفي بالسند والهند ؛ وهؤلاء كلهم عمالنا وصنائعنا . ويقال : إن البصرة كانت صنائع ثلاثة رجال : عبدالله بن عامر ، وزِيَاد ، والحجاج ، فرجلان من أنفسنا والثالث صَنِيعُنَا .

قالوا : ولنا في الأجواد وأهل الأقدار بنو عبدالله بن خالد بن أسيد بن أمية ، وأخوه خالد ، وفي خالدٍ يقول الشاعر :

إلى خالدٍ حتى أُنَحِّنَا بِخَالِدٍ فِيمَ الْفَقَى يُرَجَى وَنِعْمَ لِلْوَمَلِ !
ولنا سعيد بن خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، وهو عقيد الندى ، كان بسبت ستة أشهر ويُفِيق ستة أشهر ، ويرى كحِيلًا من عبر الكِتَال ، ودُهَيْنًا من غير تذهين ؛ وله يقول موسى شهوات :

أبا خالدٍ أعني سعيد بن خالدٍ أحمأ العُرف لأعني ابن بنت سعيد^(١)
ولكنني أعني ابن عائشة الذي أبو أبوبه خالد بن أسيد
عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لم يرض الندى بعقيد^(٢)
قالوا : وإنما تمكن فينا الشعر وجاد ، ليس من قيل أن الذين مدحونا ما كانوا غير من مدح الناس ، ولكن لما وحدثوا فينا مما يتسع لأجله القول ، ويصدق فيه القائل .
قدمدح عبدالله بن قيس الرقييات من الناس : آل الزبير عبدالله ومُصعبا وغيرهما ، فكان يقول كما يقول غيره ، فَمَا صَارَ إِلَيْنَا قَالَ :

مَا تَقُومُوا مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْمَلُونَ إِنْ غَضِبُوا^(٣)

(١) الأغانى ٣ : ٣٥٢ (طبعة دار الكتب) .

(٢) عقيد الندى : الكرم بطبعة . (٣) ديوانه ٤ .

وَأَنْتُمْ مَعْدَنُ الْمُلُوكِ فَاصْلُحْ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
وَقَالَ نُصَيْبٌ :

مِنَ النَّفَرِ أَشْمَ الَّذِينَ إِذَا أُتَحَوَّا أَفْرَتْ لَنَجْوَاهُمْ لَوْىُ بْنُ غَالِبٍ^(١)
يُحْيُونَ بَسَامِينَ طَوْرًا وَتَارَةً يُحْيُونَ عَبَّاسِينَ شُوسَ الْحَوَاجِبِ^(٢)
وَقَالَ الْأَحْطَلُ :

شَمْسُ الْمَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَفَادَ لَهَا وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قُدِّرُوا^(٣)
قَالُوا : وَفِينَا يَقُولُ شَاعِرُكُمْ وَلِلتَّشْيِيعِ لَكُمْ، الْكَمِيتُ بْنُ رَيْدٍ :
هَالَانَ صِرْتَ إِلَى أُمِّيَّةٍ وَالْأُمُورُ لَهَا مَصَايِرُ^(٤)

وَفِي مَعَاوِيَةَ يَقُولُ أَبُو الْبَلْجَمِ الْمَدَوِيُّ :
نَقَلْتَهُ لِنَخْبَرِ حَالَتِيهِ فَتَعَذَّرَ مِنْهَا كَرَمًا وَلِينًا
عَمِلُ عَلَى جَوَابِهِ كَأَنَّا كَادَا مِلْنَا نَمِيلُ عَلَى أَيْنَا
وَفِيهِ يَقُولُ :

تَرْيَعُ إِلَيْهِ هَوَادِي الْكَلَامِ إِذَا صَلَّ حَطَمَتْهُ الْمِهْدَرُ^(٥)

قَالُوا : وَإِذَا نَظَرْتُمْ فِي امْتِدَاحِ الشُّعْرَاءِ عِنْدَ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ عَرَفْتُمْ صَدَقَ مَا يَقُولُهُ.
قَالُوا : وَفِي إِرسَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ عُمَانٌ ، وَاسْتَعْمَالُهُ عَلَيْهَا
عَتَابُ بْنُ أَسِيدٍ وَهُوَ ابْنُ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً دَلِيلٌ عَلَى مَوْضِعِ الْمَنَعَةِ أَنَّ تَهَابَ الْعَرَبُ
وَتَعَرَّتْ قَرِيشٌ ؛ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قُلُوبُ النَّتَحِ : « فَتَيَانُ أَصْنَّ بِهِمَا عَلَى النَّارِ :
عَتَابُ بْنُ أَسِيدٍ ، وَحُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ » قَوْلِي عَتَابًا ، وَتَرَكَ جُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ .

(١) الشَّم : جَمْعُ أَشْمٍ ، وَهُوَ كِبَايَةُ عَنِ الرَّصَةِ وَالسُّرِّ وَشَرَفِ الْعَمَلِ .
(٢) شُوسٌ : جَمْعُ أَشُوسٍ ؛ وَالشُّوسُ بِالْحَرَكِ : النَّظَرُ بِمُؤَخَّرِ الْعَيْنِ تَكْبِيرًا وَهَيْلًا .
(٣) دِيوَانُهُ ١٤ ، وَشَمْسٌ : جَمْعُ شَمْسٍ ؛ وَهُوَ الرَّجُلُ الْمَسْرُوقُ عِدَاوَتُهُ ؛ الشَّدِيدُ الْخِلَافِ عَلَى
مَنْ تَأَنَّهُ .

(٤) الْأَعْيَانُ ١٥ ، ١١١ ، وَرَوَايَتُهُ : « وَالْأُمُورُ إِلَى الْمَصَايِرِ » .

(٥) الْمِهْدَرُ : الْكَثِيرُ الْخَطَأُ فِي الْكَلَامِ .

وقال الشعبي : لو وُلِد لي مائة ابنٍ لَسَمَّيْتُهُم كُلَّهُم عبدَ الرحمن ؛ فَلَذِي رَأَيْتُ في قُرَيْشٍ من أصحابِ هذا الاسمِ ، ثم عَدَّ عبدَ الرحمن بنَ عَتَّاب بنَ أسيد ، وعبدَ الرحمن بنَ الحارث ابنَ هشام ، وعبدَ الرحمن بنَ الحَكَم بنَ أبي العاص ؛ فَأَمَّا عبدَ الرحمن بنُ عَتَّاب فإنه صاحبُ الخَيْل يومَ الجَل ، وهو صاحبُ الكَفِّ والخَلَام ، وهو الَّذِي مَرَّ به عليٌّ وهو قَتِيلٌ فقال : لَهْفِي عَلَيْكَ يَصُوبُ قُرَيْش ، هَذَا الثَّابِ لِلْحَضَرِ من بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ ! فقال له قَاتِل : لَشَدَّ مَا أَتَيْتَهُ اليومَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! قال : إِنَّهُ قَامَ عَنِّي وَعَنهُ نِسْوَةٌ لَمْ يَقُمْ عِنْدَكَ .

قالوا : وَلَنَا من الخُطباءِ معاويةُ بنُ أبي سفيان ، أخطبُ الناسِ قَاعًا وقَاعِدًا ، وعلى منبرٍ ، وفي حُطَّةٍ سَكَّاح . وقال عمرو بنُ الخَطَّاب : مَا يَتَصَدَّقُ شَيْءٌ من الكلامِ كما يَتَصَدَّقُ خُطْبَةُ السَّكَّاح ، وقد يَكُونُ خُطْبًا من لَبْسٍ عِنْدَهُ في حَدِيثِهِ ووصفِهِ لِلشَّيْءِ . أحتجَّاجُهُ في الأمرِ لسانُ بَارِع . وَكَانَ معاويةُ يَجْرِي مع ذَلِكَ كُلِّهِ .

قالوا : وَمِنَ خُطبائنا يَزِيدُ بنُ معاوية ، كانَ أعْرَابِيَّ اللِّسانِ ، نَدَوَى اللَّهْجَةَ . قال معاويةُ : وَهو حُطْبٌ عِنْدَهُ خُطْبٌ فَأَجَاد : لأرْمِيتهُ بِالْخُطْبِ الْأَشْدَقِ يَزِيدُ بنُ معاوية ، وَمِنَ خُطبائنا سَعِيدُ بنُ العاصِ ، لم يَوْحِدْ كَتَحْيِيرِهِ تَحْيِيرَ ، وَلَا كَارْتِحَالِهِ ارْتِحَالَ . وَمِنَا عمرو بنُ سَعِيدِ الْأَشْدَقِ ، لَقِبَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ حَيْثُ دَخَلَ عَلَى معاويةَ وَهُوَ غَلَامٌ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ ، فَسَمِعَ كَلَامَهُ ، فَقَالَ : إِنْ ابنُ سَعِيدٍ هَذَا الْأَشْدَقُ .

وقال له معاويةُ : إِلَى من أَوْصَى بِكَ أَبُوكَ ؟ قال : إِنْ أَبِي أَوْصَى إِلَى ولم يَوْصِ بِي ، قال : فَمِمَّ أَوْصَى إِلَيْكَ ؟ قال : أَلَا يَفْقِدُ إِخْوَانَهُ مِنْهُ إِلَّا وَجْهَهُ .

قالوا : وَمِنَا سَعِيدُ بنُ عمرو بنِ سَعِيدٍ ، حُطْبِيٌّ ابنُ خُطْبِيٍّ ابنِ خُطْبِيٍّ ، تَكَلَّمَ النَّاسُ عِنْدَ عَبْدِ الْمَلِكِ قِيَامًا وَتَكَلَّمَ قَاعِدًا . قال عبدُ الْمَلِكِ : فَتَكَلَّمُوا وَأَنَا وَاللَّهِ أَحَبُّ عَثْرَتِهِ وَإِسْكَاتِهِ ، فَأَحْسَنَ حَتَّى اسْتَطَقَّتْهُ وَاسْتَزَدَّتْهُ ؛ وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ خُطْبِيًّا ، خُطْبِ

الناس مرة فقال : ما أصفتمونا معشر رعيتنا ، طلبتم منا أن نسير فيكم وفي أنفسنا سيرة أبي بكر وعمر في أنفسهما ورعيتهما ، ولم تسيروا فيما ولا في أنفسكم سيرة رعية أبي بكر وعمر فيهما وفي أنفسهما ، ولكل من النصفة بصيب . قالوا : فكانت خطبته نافعة . قالوا : ولما زيارت وعبيد الله بن زياد ، وكانا عنيين في صحة المعاني ، وجودة اللامع ، ولهما كلام كثير محفوظ .

قالوا : ومن خطبائنا سليمان بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك . ومن خطبائنا وساكنا يزيد بن الوليد الناقص . قال عيسى بن حاصر : قلت لعمر بن عبيد : ما قولك في عمر بن عبد العزيز ؟ فكبح^(١) ، ثم صرف وجهه عني . قلت : فما قولك في يزيد الناقص ؟ فقال : أو السكامل ، قال بالعدل ، وعمل بالعدل ، وتدل نفسه وقتل ابن عمه في طاعة ربه ، وكان كالأهل لأهل ، ونقص من أعطياهم ما رادته الجسارة ، وأظهر البراءة من آباءه ، وحمل في عهده شرط ولم يحمله حرما ؛ لا والله لكأنه ينطق عن لسان أبي سعيد - يريد الحسن المصري - قال : وكان الحسن من أطلاق الناس .

قالوا : وقد قرئ في الكتب القديمة : يا منذر الكوز ، يا ساجدا بالأسعار ، كانت ولايتك رحمة بهم ، وحنة عليهم . قالوا : هو يزيد بن الوليد .

ومن خطبائنا ثم من ولد سعيد بن العاص نخرو بن خولة ، كان ناسبا فصيحاً خطيباً . وقال ابن عائشة الأكبر : ما شهد خطيباً قط إلا ولجلج هبة له ومعرفة بانتقاده . ومن خطبائنا عبد الله بن عامر ، وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ، وكانا من أكرم الناس ، وأبين الناس ، كان مسلمة بن عبد الملك يقول : إني لأحبي كور عمامتي على أذني لأسمع كلام عبد الأعلى .

(١) كبح ، كنع : كسر ل عيوس .

وكانوا يقولون : أشبه قريش نعمة وجهارة واقتداراً وبياناً بصرو بن سعيد عبد الأعلى بن عبد الله .

قالوا : ومن خطبائنا ورجالنا الوليد بن عبد الملك ، وهو الذي كان يقال له غل بني مروان ، كان يركب معه ستون رجلاً لصلبه .

ومن ذوى آدابنا وعلماؤنا وأصحاب الأخبار ورواية الأشعار والأنساب بشر بن مروان أمير المراق .

قالوا : ونحن أكثر نساءكم ، من معاوية بن يزيد بن معاوية ، وهو الذي قيل له في مرضه الذي مات فيه : لو أقمت للناس ولياً عهداً ؟ قال : ومن جعل لي هذا العهد في أعناق الناس ! والله لو لا خوفاً العتنة لما أقمت عليها طرفة عين ، والله لا أذهب عمراتها ، وتذهبون محلاتها ؛ فقالت له أمه : لو ددت أمك حنيفة ، قال : أنا والله وددت ذلك . قالوا : ومنا سليمان بن عبد الملك الذي هدم الديلماس^(١) وردة المسيرين ، وأخرج المسحوبين ، وترك القريب . واختار حمزة بن عبد المطلب ، وكان سليمان جواداً حطياً جليلاً صاحب سلامة ودعة وحب للعافية وقرب من الناس ، حتى سُمي المهدي ، وقيل الأشعار في ذلك .

قالوا : ولنا عمر بن عبد العزيز ، شه عمر بن الخطاب ، قد ولد له عمر ، وباسمه سمي ؛ وهو أشجع قريش للذكور في الآثار للمقولة في الكتب ، العدل في أشد الزمان ، وظلف^(٢) نفسه بعد اعتياد النعم ، حتى صار مثلاً ومفخراً . وقيل للحسن : أما رويت أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : لا يزداد الزمان إلا شدة ، والناس إلا شحاً ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ! قال : بلى ؛ قيل : فما بال عمر بن عبد العزيز وعدله

(١) الديلماس : سجن كل العبيد .

(٢) ظلف نفسه : منعها .

وسيرته ! فقال : لا بدّ للناس من متنفس . وكان مذكوراً مع الخطباء ، ومع النساء ، ومع الفقهاء .

قالوا : ولما ابنه عبدُ الملك بن عمرو بن عبد العزير ، كان ماسكاً زكياً طاهراً ، وكان من أتقى الناس وأحسهم معونة لأبيه ، وكان كثيراً ما يمشي أباه وبيناه .

قالوا : ولما من لا نظير له في جميع أموره ، وهو صاحب الأعوص ، إسماعيل بن أمية ابن عمرو بن سعيد بن العاص ؛ وهو الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز : لو كان إلى من الأمر شيء لبعثتها شوري بين العاصم بن محمد وسالم بن عبد الله وصاحب الأعوص .

قالوا : ومن نساكنا أبو حراب من بني أمية الصغرى ، قتله داود بن عليّ ، ومن نساكنا يزيد بن محمد بن مروان ، كان لا يهدب^(١) ثوباً ولا يصفه ، ولا يتعلّق بخوق^(٢) ، ولا اختار طعاماً على طعام ، ما أطعم أكله ، وكان يكره التكلف ، ويهيئ عنه . قالوا : ومن نساكنا أبو سكر بن عبد العزيز بن مروان ؛ أراد عمر أخوه أن يجعله ولياً بعده لما رأى من فضله وزهده ، فما فيها جيباً .

ومن نساكنا عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان ، كان يصلي كل يوم ألف ركعة ، وكان كثير الصدقة ، وكان إذا تصدّق بصدقة قال : اللهم إن هذا لوجهك ، فغف عني الموت . فاطلق حاجباً ، ثم تصدّع باليوم فذهبوا يُنبّهونه للرّحيل ، فوجدوه ميتاً ، فأقاموا عليه المأتم بالمدينة ، وجاء أشعث فدخل إلى المأتم وعلّ رأسه كبة من طين ، فالتدّم^(٣) مع النساء ، وكان إليه محناً .

ومن نساكنا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

(١) يهدب : يقطع .

(٢) الخوق : الطيب .

(٣) التّدّم مع النساء : ضرب صدره ممسكاً في الثياب .

قالوا : فتحن نعدّ من الصلاح والفضل ما سيمشوه ، وما لم نذكره أكثر ، وأنتم تقولون : أمية هي الشجرة للثموة في القرآن ، وزعمتم أن الشجرة الخبيثة لا تثمر الطيب ، كما أن الطيب لا يثمر الخبيث ، فإن كان الأمر كما تقولون ، فثمان بن عفان ثمرة خبيثة . وينبغي أن يكون النبي صلى الله عليه وآله دفع انتبه إلى خبيث ، وكذلك يزيد بن أبي سفيان صاحب مقدمة أبي بكر الصديق على جيوش الشام ، وينبغي لأبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكون كذلك ، وينبغي لمحمد بن عبد الله المدحج أن يكون كذلك ، وإن ولدته فاطمة عليها السلام ، لأنه من بني أمية ، وكذلك عبد الله بن عثمان بن عفان سبط رسول الله صلى الله عليه وآله ، الذي مات بعد أن شدّ^(١) ، وقرّ الدليل عنه فبات ، لأنه من بني أمية ، وكذلك ينبغي أن يكون عتاب بن أسيد بن أبي اليسر بن أمية ، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم ولّاه مكة أم القرى وقلة الإسلام ، مع قوله عليه السلام « فتیان أصنّ مهاعن النار : عتاب ابن أسيد ، وجنير بن مطعم » . وكذلك ينبغي أن يكون عمر بن عبد العزيز شهيد عمر بن الخطاب كذلك ، وكذلك معاوية بن يزيد بن معاوية ، وكذلك يريد الساقص ؛ وينبغي ألا يكون النبي صلى الله عليه وسلم عدّ عثمان في العشرة الذين بشرهم بالجنة ؛ وينبغي أن يكون خالد بن سعيد بن العاص شهيد يوم مرج الصفر^(٢) والحبيس في سبيل الله ، ووالى النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن ، ووالى أبي بكر على جميع أجناد الشام ، وراعى أربعة في الإسلام ، والمهاجر إلى أرض الحبشة كذلك . وكذلك أمان بن سعيد بن العاص المهاجر إلى المدينة ، والتديم في الإسلام ، والحبيس على الجهاد ، ويجب أن يكون ملعونا حينئذ ، وكذلك أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وهو بدرى من المهاجرين الأولين ، وكذلك أمية بنت أبي العاص بن الربيع ، وأمهها زينب بنت

(١) شدّ : قوى وترعرع ؛ وأصله في الصماء .

(٢) مرج الصفر : موضع .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكذلك أم كلثوم بنت عتبة بن أبي مَعِيْط ، وكان النبي صلى الله عليه وآله يخرجها من اللَّعَازِي ، ويصرب لها بسهم ، ويصالحها ، وكذلك فاطمة بنت أبي مَعِيْط ، وهي من مهاجرة الحبشة .

قالوا : ومما تفخر به وليس لني هاشم مثله ؛ أن متارحلا وُلِّي أربعين سنة منها عشرون سنة خليفة ، وهو معاوية بن أبي سفيان . ولنا أربعة أخوة خلفاء : الوليد ، وسليمان ، وهشام ، بنو عبد الملك ، وليس لكم وزيد ، إلا ثلاثة إخوة : محمد ، وعبد الله ، وأبي إسحاق أولاد هارون .

قالوا : ومما رحل ولد سبعة من الخلفاء وهو عبد الله بن يزيد بن عبد الملك بن مَرْثَران ، أبوه يزيد بن عاتكة ، خليفة ، وجدّه عبد الملك خليفة ، وأبو حذافه مروان الحكم خليفة ، وجدّه من قبل عاتكة ابنة يزيد بن معاوية وهو خليفة ، ومعاوية بن أبي سفيان وهو خليفة ، فهو لأحمه ، وأم عبد الله هذا عاتكة بنت عبد الله بن عثمان بن عفان ، وحفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب ؛ فهذان خليفتان ، فهذه سبعة من الخلفاء ولّدوا هذا الرجل .

قالوا : ومما امرأة أبوها خليفة ، وجدّها خليفة ، وابنها خليفة ، وأخوها خليفة ، وبعلها خليفة ، فهو لأحمه ، وهي عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، أبوها يزيد بن معاوية خليفة ، وجدّها معاوية بن أبي سفيان خليفة ، وابنها يزيد بن عبد الملك بن مَرْثَران خليفة ، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة ، وبعلها عبد الملك بن مَرْثَران خليفة . قالوا : ومن ولّد المدبج محمد بن عبد الله الأصغر امرأة ولّدّها النبي صلى الله عليه وآله وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير ، وهي عائشة بنت محمد بن عبد الله بن عمر ابن عثمان بن عفان ، وأما خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير ، وأم عروة أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق ، وأم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان - وهو

اللدّيج - فاطمة بنت الحسين بن علي عليه السلام ، وأمّ الحسين بن علي عليه السلام
فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وأمّ فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام
أمّ إسحاق بنت طلحة بن عبد الله ، وأمّ عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أمّ
عبد الله بن عمر بن الخطاب .

قالوا : ولنا في الجلال والحسن ما يس لكم ، ما للدّيج ، والدّيباج ، قيل ذلك لجلاله .
ومنا المطرف ، ومنا الأرحوان ، فأنطرف وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان ، سُمّي
المطرف لجلاله ، وفيه يقول الفرزدق :

مأ العاروق إليك وابن أروى أبوك فأت منصرف النهار

واللدّيج هو الدّيباج ، كان أطولكم الناس قياماً في الصلاة ، وهلك في
سجن المنصور .

قالوا : ومنا ابن الخلائف الأربعة ، دعي بذلك وشهر به ، وهو المؤمل بن العباس
ابن الوليد بن عبد الملك ، كان هو وأخوه الحارث أبنّي العباس بن الوليد من العجاءة
بنت قنبر بن النجاءة ، إمام الخوارج ، وكانت سُيبت فوقعت إليه ، فلما قام عمر بن
عبد العزيز أتت وحوه بن ماري وفيهم صاحب بن دبيان الماري الشاعر ،
فقال حاجب :

أتينك زوّاراً وفعداً إلى التي أصامت فلا يحنّ على الناس نورها
أبوها عيّد الحىّ جمعاً وأمها من الحفظليات الكرام حجورها
فإن تكّ صارت حين صارت فأتها إلى سير زالك كرام فسيرها

فمات عمر بن عبد العزيز إلى العباس بن الوليد إما أن ترُدّها إلى أهلها ، وإما أن
تزوّجها ، فقال قائل ذات يوم للمؤمل : يا ابن الخلائف الأربعة ، قال : ويحك من الرابع !

قال : قطري ، فأما الثلاثة فالوليد وعبدُ الملك ومروان ، وأما قطري فبُويع بالخلافة ،
وفيه يقول الشاعر :

• وأبو نعامَة سيّد الكُفّار •

قالوا : ومن أين صار محمد بنُ عليّ بن عبد الله بن العباس أحقّ بالدعوة والخلافة
من سائر إخوته ! ومن أين كان له أن يصعها في بيته دون إخوته ! وكيف صار بنو الأئمة
أحقّ بها من الأعمام !

وقالوا : إن يكن هذا الأمر إنما يُستحقّ بالميراث ، فالأقرب إلى العباس أحقّ ،
وإن كان بالسّن والتحرّبة فالمُؤمنة بذلك أولى .

قالوا : قد ذكرنا جملًا من سالف الرجال في الإسلام ، وأما الجاهلية فلنا الأعيان .
والصائب (١) .

ولنا ذو العصابة أبو أحيحة سعيد بنُ العاص كان إذا اعتم لم يعتم (٢) بمكة أحد ،
ولنا حرب بن أمية رئيسُ يوم الفجار ، ولنا أبو سُفيان بنُ حرب رئيسُ أحد والحندق ،
وسيد قريش كلها في زمانه .

وقال أبو الجهم بنُ حذيفة المدونيّ لمرّ حين رأى العباس وأبا سُفيان على فراشه :
دون الناس : ما نرانا نستريح من بني عبد مناف على حال ! قال عمر : بشّ أحو المشيرة .
أت ! هذا عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهذا سيّد قريش .

(١) في الأغاني ١ : ١٤ (طعة دار الكتب) بسنده عن الزبير بن نكار شيوخه : « الأعيان :
العباس وأبو العباس والميس وأبو الميس والمويس ؛ ومنهم العباس ، وهم : حرب وأبو حرب وسفيان
وأبو سفيان ومرو وأبو مرو ؛ ولما سموا العباس ؛ لأنهم ثبتوا مع أحبيهم حرب بن أمية بمكة ،
وعقلوا أنفسهم وقاتلوا قتالا شديداً ؛ فجهوا بالأسد ، والأسد يقال لها : العباس ، واحداً عنبة . »
(٢) اعتم : أرخى صماته .

قالوا : ولنا عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، سَادِمِيقًا ، وَلَا يَكُونُ السَّيِّدُ إِلَّا مُتَرَفًا ، لَوْلَا مَا رَأَوْا عِنْدَهُ
 مِنَ الْبَرَاةِ وَالثَّبَلِ وَالْكَمَالِ . وَهُوَ الَّذِي لَمَّا نَحَاكَتْ بَجِيَّةٌ وَكَلْبٌ فِي مُنَافَرَةٍ جَرِيرٍ
 وَالْفَرَاغَةَ ، وَتَرَاهُنَا بِسُوقِ عُكَاظٍ ، وَصَنَعُوا الزَّهْنُ عَلَى يَدِهِ دُونَ جَمِيعٍ مَنِ شَهِدَ عَلَى
 ذَلِكَ الْمَشْهَدِ ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَنَظَرَ إِلَى قَرِيشٍ مُقِيلَةٍ يَوْمَ بَدْرٍ : « إِنْ
 يَكُنْ مِنْهُمْ عِدَدُ أَحَدٍ خَيْرٌ فَعَتَدَ صَاحِبُ الْجَلِّ الْأَحْمَرُ » ، وَمَا ظَنَنْتُكَ بِشَيْخٍ طَلَبُوا لَهُ مِنْ
 جَمِيعِ الْعُكْرِ عِنْدَ الْمُبَارَزَةِ بِيَضَةٍ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى بَيْضَةٍ يُدْخِلُ رَأْسَهُ فِيهَا ، وَقَدْ
 قَالَ الشَّاعِرُ :

• وَإِنَّا أَنَا نَسُتُ عِمْلًا الْبَيْسَ هَامُنَا •

قالوا : وَأُمِّيَّةُ الْأَكْبَرِ صَنْفَانِ : الْأَعْيَاصُ وَالْعَابِسُ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

مِنَ الْأَعْيَاصِ أَوْ مِنْ آلِ حَرْبٍ أَغْنَمَ كَفَرَتِ الْقَرَسِ الْجَوَادِ^(١)

سُمُّوا بِذَلِكَ فِي حَرْبِ النَّجَّارِ حِينَ حَقَرُوا الْأَوْجَلَهُمُ الْخَمَائِرَ وَثَبَتُوا فِيهَا ، وَقَالُوا :
 نَمُوتُ جَمِيعًا أَوْ نَطْمُرُ . وَإِنَّمَا سُمُّوا بِالْعَبَاسِ لِأَنَّهَا لَسُلَالَةُ الْأَسْوَدِ ، وَإِنَّمَا سُمُّوا الْأَعْيَاصِ
 لِأَنَّهَا أَسْمَاءُ الْأَصُولِ ، فَالْعَنَاسُ : حَرْبُ بُوْسُفَيَّانٍ وَأَبُو سُفْيَانَ وَعَمْرُو ، وَالْأَعْيَاصُ : الْعَيْصُ ،
 وَأَبُو الْعَيْصِ ، وَالْعَاصُ ، وَأَبُو الْعَاصِ وَأَبُو عَمْرٍو ، وَلَمْ يَقْبِضْ مِنَ الْعَنَاسِ إِلَّا حَرْبٌ ، وَمَا عَقَّبَ
 الْأَعْيَاصُ إِلَّا الْعَيْصُ ، وَلِذَلِكَ كَانَ مَعَاوِيَةُ يُشْكُو الْقِتْلَةَ .

قالوا : وَلَيْسَ لِبْنِ هَاشِمٍ وَالْمُطَلَّبِ مِثْلُ هَذِهِ الْقِسْمَةِ ، وَلَا مِثْلُ هَذَا الْقَلْبِ لِلشُّهُورِ .
 وَهَذَا مَا قَالَتْهُ أُمِّيَّةٌ عَنْ نَفْسِهَا .

• • •

(١) مِنْ آيَاتِ وَ الْأَخْيَارِ ١ : ١٤ - ١٦ ؛ وَسَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

[ذكر الجواب مما فخرت به بنو أمية]

وممن ذكر ما أجاب به أبو عثمان عن كلامهم ، ونضيف إليه من قبلنا أموراً لم يذكرها ، فنقول : قالت هاشم : أما ذكرتم من الدُّهَاء والمكر فإن ذلك من أسماء فجّار العقلاء ، وليس من أسماء أهل الصواب في الرأي من العقلاء والأرار ، وقد بلغ أبو بكر وعمر من التدبير وصواب الرأي ، والخبرة بالأمور العامة ، وليس من أوصافهما ولا من أسمائهما أن يقال : كما داهيتين ، ولا كانا مكبرين . وما عامل معاوية وعمرُو أن العاص علياً عليه السلام قطّ معاملة إلا وكان على عليه السلام أعلم بهما ، ولكن الرجل الذي يُحارب ولا يستعمل إلا ما يحل له أقل مذهب وُحوه الخيل والتدبير من الرجل الذي يستعمل ما يحل وما لا يحل ، وكذلك من حدث وأخبر ، ألا ترى أن الكذاب ليس لكذب غاية ، ولا لا يؤلّد ويصنع بهاية ، والصدوق إنما يحدث عن شيء معروف ، ومعنى محدود ؛ ويُلّ على ما قلنا أنكم عدتم أربعة في الدُّهَاء ، وليس واحدٌ منهم عند المسلمين في طريق المتقين ، ولو كان الدُّهَاء مرتبة والمكر مرتبة لكان تقدم هؤلاء الجميع السابقين الأولين عياً شديداً في السابقين الأولين ، ولو أن إنساناً أراد أن يمدح أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ثم قال : الدُّهَاء أربعة ، وعدّم ، لكان قد قال قولاً مرغوباً ، لأن الدُّهَاء والمكر ليس من صفات الصالحين ؛ وإن علوا من غامض الأمور ما يحمله جميع العقلاء ، ألا ترى أنه قد يحسن أن يقال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله أكرم الناس ، وأحلم الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، ولا يجوز أن يقال : كان أمكر الناس ، وأدهى الناس ، وإن علواً أن عليه قد أحاط بكل مكبر وخديعة ، وبكل أدب ومكيدة !

وأما ما ذكرتم من حود سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر ، فإن أنتم من عبد الله ابن جعفر ، وعبيد الله بن العباس ، والحسين بن علي ! وأين أنتم من جود خلفاء بني

العباس ، كعبد المهدى ، وهارون ، ومحمد بن زبيدة ، وعبد الله المأمون ، وجعفر المقتدر ! بل لعل جود بعض صنائع هؤلاء كبنى يرمك وبنى القرات ، أعظم من جود الرحلين اللذين ذكرتموها ، بل من جميع ما جاء به خلفاء بني أمية .

وأما ما ذكرتم من حلم معاوية ، فلو شئنا أن نجعل جميع ساداتنا حواء لكانوا محتيلين لذلك ، ولكن الوجه في هذا ألا يشتق للرجل اسم إلا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه ، وإلا أن يثبت بذلك عند أصحابه حتى يصير بذلك اسماً يستحق به ، ويصير معروفاً به ، كما عرف الأحنف بالحلم ، وكما عرف حاتم بالجود ، وكذلك هريم ، قالوا : هريم الجواد ، ولو قلتم : كان أبو العاصر أمية أحلم الناس ، لقلنا : ولعله يكون قد كان حلماً ، ولكن ليس كل حلم يكون صاحبه به مدكورا ، ومن إشكاله بائنا .

وإسكم لظهور حصركم في تلميحكم معاوية بالحلم ، فكيف من دونه ، لأن العرب تقول : أحلم الحلين ألا يتعرض ثم يحلم ، ولم يكن في الأرض رجل أكثر تعرضاً من معاوية ، والتعرض هو السعة ، فبن ادعيت أن الأخبار التي جاءت في تعرضه كلها باطلة ، فإن لقائل أن يقول ، وكل حبر رويتموه في حلمه باطل ، ولقد شهر الأحنف بالحلم ، ولكنه تكلم بكلام كثير يخرج في الحلم ويثلم في العرض^(١) ، ولا يستطيع أحد أن يحكي عن العباس بن عبد المطلب ولا عن الحسن بن علي بن أبي طالب لفظاً فاحشاً ، ولا كلمة ساقطة ، ولا حرفاً واحداً مما يحكى عن الأحنف ومعاوية . وكان للمأمون أحلم الناس ، وكان عبد الله السعاح أحلم الناس . ومن يستطيع أن يصف هاشماً أو عبد المطلب بالحلم دون غيره من الأخلاق والأفعال حتى يسميه بذلك ، ويخص به دون كل شيء من الفضل ! وكيف وأخلاقهم متساوية ، وكلها في الغاية ! ولو أن رجلاً كان أظهر الناس زهداً ، وأصدقهم للعدو لقاء ، وأصدق الناس لساناً ،

(١) يثلم في العرض : أي ينال منه ويقع فيه .

وأجود الناس كفاً ، وأفصحهم منطقاً ، وكان بكل ذلك مشهوراً ، لمنع بعض فليث من بعض ، ولما كان له اسم السيد للقدم ، والكامل المعظم ، ولم يكن الجواد أغلب على اسمه ، ولا البيلن ولا التجدة .

وأما ما ذكرتم من الخطابة والمصاحفة والتؤدد والعلم بالأدب والنسب ، فقد علم الناس أن بني هاشم في أجلة أرق السيرة من بني أمية ، كان أبو طالب والزبير شاعرين ، وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعراً ، ولم يكن من أولاد أمية بن عبد شمس لصليبه شاعر ، ولم يكن في أولاد أمية إلا أن تعدوا في الإسلام المرجمين من ولد عثمان ابن عفان ، وعد الرحمن بن الحكم ، فتعد عن الفصل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب ، وعبد الله بن معاوية بن جعفر ، ولنا من التأخرين محمد بن الحسين بن موسى المعروف بالرضي ، وأخوه أبو القاسم ، ولنا الحناني ، وعلي بن محمد صاحب الرنج ، وكان إبراهيم ابن الحسن صاحب باخرى^(١) أديباً شاعراً فاضلاً ؛ ولنا محمد بن علي بن صالح الذي خرج في أيام المتوكل .

قال أبو الفرج الأصفهاني : كان من فتيان آل أبي طالب وقفاً كهم وشجعانهم وغلرافهم وشعرائهم ، وإن عدتكم الخطابة والبيان والفصاحة لم تعدوا كعلي بن أبي طالب عليه السلام ، ولا كعبد الله بن العباس ؛ ولنا من الخطباء زيد بن علي بن الحسين ، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وجعفر بن الحسين بن الحسن ، وداود بن علي بن عبد الله بن العباس ، وداود وسليمان ابنا جعفر ابن سليمان .

قالوا : كان جعفر بن الحسين بن الحسن بنارزع زيد بن علي بن الحسين في الوصية ،

(١) باخرى : بلدة قرب السكوة بها قد إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي .

وكان الناس يجتمعون لستمعوا محاورتهما ، وكان سليمان بن جعفر بن سليمان بن علي والي مكة ، فكان أهل مكة يقولون : لم يرد علينا أميرٌ إلّا وسليمان أمين منه قاعداً ، وأخطب منه قائماً . وكان داود إذا خطب استغفر ^(١) فلم يردّه شيء .

قالوا : ولنا عبد الملك بن صالح بن علي ، كان خطيباً بليفاً ، وسأله الرشيد - وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر حاضران - فقال له : كيف رأيت أرض كذا ؟ قال : مساق ریح ، ومناات شیح . قال : فأرض كذا ، قال : هَضَبَات ^(٢) حُر ، ورووات ^(٣) عُمُر ، حتى أتى علي جميع ما سأله عنه ، فقال عيسى لسليمان : والله ما ينبغي لنا أن نرضى لأنفسنا بالدُّون من الكلام .

قالوا : وأما ما ذكرتم من نَسَاك للوك ؛ فلنا علي بن أبي طالب عليه السلام ، وبزُهده ومديته يصرب للثل ، ولنا محمد بن الوائلي حلفاء بني العباس ، وهو الملقب بالمهتدي ، كان يقول : إني لأبغض لبني العباس إلّا يكون منهم مثل عمر بن عبد العزيز ، فكان مثله وفوقه . ولنا القادر أبو العباس بن إسحاق بن المقتدر ، ولنا القائم عبد الله بن القادر ، كانا على قدم عظيمة من الرهد والدين والنسك ، وإن عددتكم النساك من غير الملوك فأين أنتم عن علي بن الحسين زين العابدين ! وأين أنتم عن علي بن عبد الله بن العباس ! وأين أنتم عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، الذي كان يقال له : علي الخير ، وعلي الأعر ، وعلي العابد ، وما أقسم علي الله شيء إلّا وأبرّ قسمه ! وأين أنتم عن موسى بن جعفر بن محمد ! وأين أنتم عن علي بن محمد الرضا ، لانس الصوف طول عمره ، مع سعة أمواله ، وكثرة ضياعه وعَلّاته !

(١) استغفر الرجل في منطقة : مضى فيه .

(٢) الهضاب : جمع هضبة ؛ وهي الملجأ الطويل المنح ، ولا يكون ذلك إلّا في حر الجبال .

(٣) الروات ، جمع روبة ، وهي أعلى الجبل .

وأما ما ذكرتم من الفتوح، فلنا الفتوح المتضمنة التي سارت بها الركبان، وضربت بها الأمثال، ولنا فتوح الرشيد، ولنا الأناشيد الشريفة في قتل هاتك الخرمي بعد أن دامت فتنته في دار الإسلام نحو ثلاثين سنة. وإن شئت أن تعد فتوح الطالبين بإفريقية ومصر وما ملكوه من مدن الروم والفرنج والحلافة^(١) في سبي ملكهم، عدت الكثير الجمل الذي يخرج عن الحصر، ويحتاج إلى تاريخ مفرد يشمل على حلو كثيرة.

فأما الفقه والعلم والتفسير والتأويل فمن ذكرتموه لم يكن لكم فيه أحد، وكان لنا فيه مثل علي بن أبي طالب عليه السلام، وعبد الله بن عباس، وزيد بن علي، ومحمد بن علي، وأبي علي بن الحسين بن علي، وجعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه. ويقال: إن أبا حنيفة من تلاميذه، وكذلك سفيان الثوري، وحسبك بهما في هذا الباب، ولذلك نسب سفيان إلى أنه ربي للذهب، وكذلك أبو حنيفة.

ومن مثل علي بن الحسين زين العابدين، وقال الشامي في الرسالة في إثبات خبر الواحد: وحدث علي بن الحسين وهو أئمة أهل المدينة يؤول على أخبار الآحاد.

ومن مثل محمد بن الحنفية وأمه أبي هاشم الذي قرّر علوم التوحيد والتدليل وقالت المعترلة: غلبها الناس كلهم بأبي هاشم الأول، وأبي هاشم الثاني!

وإن ذكرتم التعدة والنسالة والشجاعة فمن مثل علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد وقع اتفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجع البشر!

ومن مثل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسود رسوله، ومن مثل الحسين بن علي عليهما السلام! قالوا يوم الطف: ما رأينا مكنوزاً^(٢) قد أفرد من إخوته وأهله وأنصاره أشجع منه، كان كالليث المحروب، يحطم الفرسان خطماً. وموطنك رجل أبت نفسه الدنية وأن يعطى

(١) الخلافة: أهل جلي، وهي دمشق.

(٢) المكنوز: الغلبة والكثرة.

يَدِهِ ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ هُوَ وَنُوءُ وَإِخْوَتُهُ وَبَنُو عَمَّةِ مَدَنِلِ الْأَمَانِ لَمْ ، وَالتَّوْتِقَةُ
بِالْأَيْمَانِ الْمُفْلُطَةِ ، وَهُوَ الَّذِي سَمَّيَ لِلْعَرَبِ الْإِبَاءَ . وَاقْتَدَى بَعْدَهُ أَبْنَاءُ الرِّبْرِ وَبَنُو الْمَهْلَبِ
وغيرهم .

وَمِنْ لَكُمْ مِثْلُ مُحَمَّدٍ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ! وَمِنْ لَكُمْ كَرِيدٌ بْنُ عَلِيٍّ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ كَلِمَتَهُ
الَّتِي قَالَهَا حَيْثُ خَرَجَ مِنْ عَبْدِ هِشَامٍ : مَا أَحَبَّ الْحَيَاةَ إِلَّا مَنْ ذَلَّ ؛ فَلَمَّا بَاغَتْ هِشَامًا
قَالَ : حَارِجُ وَرَبِّ الْكُفَّةِ ! مَخْرَجٌ بِالسَّيْفِ ، وَمَهْيٌ عَنِ الْمَكْرِ ، وَدَعَا إِلَى إِقَامَةِ شُعَائِرِ
اللَّهِ حَتَّى قُتِلَ صَارًا مُحْتَسِبًا .

وَقَدْ بَلَغْتُمْ شِعَاعَةَ أُنَى إِسْحَاقَ الْمُعَصِّمِ ، وَوُقُوفَهُ فِي مَشَاهِدِ الْحُرُوبِ سَمِعِهِ حَتَّى
فَتَحَ الْفَنُوحَ الْجَلِيلَةَ . وَبَلَغْتُمْ شِعَاعَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ ؛ وَهُوَ الَّذِي أَرَادَ مُلُوكُ بَنِي
مَرْوَانَ ، وَشَهِدَ الْحُرُوبَ سَفِيهِ ، وَكَذَلِكَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَهُوَ الَّذِي اتَّبَعَ مَرْوَانَ بْنِ
مُحَمَّدٍ إِلَى مِصْرَ حَتَّى قَتَلَهُ .

قَالُوا : وَإِنْ كَانَ الْفَعْلُ وَالْفَحْرُ فِي تَرَاوُعِ لَشَرِيفٍ ، وَإِصَافِ السَّيِّدِ ، وَسَجَّاحَةِ^(١)
الْمُلُوكِ وَلِيْنِ الْجَانِبِ لِلْعَشِيرَةِ وَالْمَوَالِي ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ ذَلِكَ مَا لِنَبِيِّ الْعَمَّاسِ ؛ وَلَقَدْ سَأَلْنَا
طَارِقَ بْنَ الْمُبَارَكِ - وَهُوَ مَوْلَى لِنَبِيِّ أُمِّيَّةٍ ، وَصَنِيعَةٌ مِنْ صَنَائِعِهِمْ - فَقُلْنَا : أَيُّ الْقَبِيلَتَيْنِ
أَشَدُّ نَحْوَةً وَأَعْظَمَ كِبَرِيَاءً وَجَبَرِيَّةً ؛ أَمْوُ مَرْوَانَ ؟ أَمْ سُوُ الْعَمَّاسِ ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ لِبَنُو
مَرْوَانَ فِي غَيْرِ دَوْلَتِهِمْ أَعْظَمَ كِبَرِيَاءً مِنْ سُوُ الْعَمَّاسِ فِي دَوْلَتِهِمْ ، وَقَدْ كَانَ أَدْرَكَ الدَّوْلَتَيْنِ ،
وَلِلَّذَلِكَ قَالَ شَاعِرُهُمْ :

إِذَا نَابَهُ مِنْ عَدِيٍّ شَمْسُ رَأْيَتَهُ بَنِيَهُ فَرَشَّعَهُ لِكُلِّ عَظِيمٍ

(١) سَجَّاحَةُ الْمُلُوكِ : سَهْوُكَ وَلَبِثُهُ .

وإن تاة تيتاه سيواهم فأنما يتيه لنوك أو يتيه للوم^(١)

ومن كلامهم : من لم يكن من بني أمية تيتاه فهو دعي .

قالوا : وإن كان الكبر مفعرا يمدح به الرجال ويمدح من خصال الشرف والفضل ،
فولانا عمارة بن حمزة أعظم كبراً من كل أموى كان ويكون في الدنيا ، وأخباره في
كبره وتيته مشهورة متعالية .

قالوا : وإن كان الشرف والفخر في الجلال وفي الكمال وفي البسطة في الجسم وتنام
القوام ، فمن كان كالعاس بن عبد المطلب ا

قالوا : رأينا العاس يطوف بالبيت وكأنه مسطاط^(٢) أبيض .

ومن مثل علي بن عبد الله بن العباس وولديه ، وكان كل واحد منهم إذا قام إلى
جنب أبيه كان رأسه عند شحمة أذنه ، وكأبهم من أطول الناس ، وإليك لتعد ميراث
ذلك اليوم في أولادهم .

ثم الذي رواه أصحاب الأخبار وحال الأمازيق عبد المطلب من التمام والقوام والجمال
والبهاء ، وما كان من لقب هاشم بالقر لجائه ، ولأنهم يستضيئون برأيه ، وكان رواه
الناس أن عبد المطلب ولد حشرة كان الرجل منهم يأكل في المجلس الجدة^(٣)
ويشرب العرق^(٤) ، وترد أنفهم قبل شفاههم ، وإن عاصم بن مالك لما رآهم يطوفون
بالبيت كأنهم جمال جيون^(٥) قال : بهؤلاء تجمع مكة ؛ وتشرف مكة !

وقد سمعتم ما ذكره الناس من جمال السفاح وحسنه ، وكذلك المهدي وابنه
هارون الرشيد ، وابنه محمد بن زبيدة وكذلك هارون الواثق ، ومحمد المنتصر
والزبير المعتز .

(١) ب : « لنول » تصحيف ؛ وصوابه في أ . والنوك : الحق ، والوم أصله « اللوم » : بالهزيمة ،
ونصف الشعر .

(٢) المسطاط : الخبث . (٣) الجدة من الصل : الصغيرة .

(٤) الفرق ، بكسر فسكون : مكبال بالمدينة ، يسع ثلاثة أصع ، أو ستة عشر رطلا .

(٥) الجيون من الإبل والخيول : جمع جيون ، منع فسكون ، وهو الأدم .

قالوا : ما رُئيَ في العَرَب ولا في العَجَم أحسن صورة منه ؛ وكان المكتنى علي بن المعتضد بارع الجلال ، ولذلك قال الشاعر يضرب للمثل به :

والله لا كَلَمْتُه ولو أنه كالشمس أو كالنَّار أو كالْمَكْتَنِ

فَجَمَلُهُ ثالثُ القمرين . وكان الحسن بن علي عليه السلام أصبح الناس وجها ، كان يشبه برسول الله صلى الله عليه وآله ، وكذلك عبد الله بن الحسن المحض .

قالوا : ولنا ثلاثة في عصر بنو عَم ، كلهم يسمى عليا ، وكلهم كان يصلح للخلافة بالفقه والنسك والركب ، والرأي ، والتحرية ، والخال الرفيعة بين الناس : علي بن الحسين بن علي ، وعلي بن عبد الله بن العباس ، وعلي بن عبد الله بن جعفر ، كل هؤلاء كان تاما كاملا بارعاً جامعاً . وكانت أباة بنت عبد الله بن العباس عند علي بن عبد الله بن جعفر ، قالت : ما رأيت صاحباً قط ولا فاحشاً ، ولا قال شيئاً أحتاج إلى أن يعتذر منه ، ولا ضرب عبداً قط ، ولا مَلِكاً أكثر من سنة .

قالوا : وبعد هؤلاء ثلاثة بنو عَم ، وهم سو هؤلاء الثلاثة ، وكلهم يسمى محمداً ، كان كل واحد من أولئك يسمى علياً ، وكلهم يصلح للخلافة ، بكرم السب وشرف الخصال : محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ومحمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، ومحمد بن علي بن عبد الله بن جعفر .

قالوا : كان محمد بن علي بن الحسين لا يسمع المبتلى الاستعانة ، وكان ينهى الجارية والعلامة أن يقولوا للسكينة : يا سائل ؛ وهو سيد فقهاء الحجاز ؛ ومنه ومن أبنته جعفر تعلم الناس الفقه ، وهو الملقب بالباقر ، باقر العلم ؛ لقبه به رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يخلق بعد ، وبشر به ، ووعد جابر بن عبد الله برويته ، وقال : ستراه طفلاً ، فإذا رأيته فأبلغه عنى السلام ، فهاش جابر حتى رآه ، وقال له : ما وصى به .

وتوعد خالد بن عبد الله القسري هشام بن عبد الملك في رسالة له إليه ، وقال : والله
إني لأعرف رجلاً حجازي الأصل ، شامي الدار ، عراقي الهوى ، يريد محمد بن
علي بن عبد الله ابن العباس .

قالوا : وأما ما ذكرتم من أمر عائكة بنت يزيد بن معاوية فإننا نذكر فاطمة بنت رسول
الله صلى الله عليه وآله ، وهي سيدة نساء العالمين ، وأُمُّها خديجة سيدة نساء العالمين ،
وبعلها علي بن أبي طالب سيد المسلمين كافة ، وابنُهما حفر دو الجاهلين ، وذو
الهجرتين ، وإنشأها الحسن والحسين سيّدَا شباب أهل الجنة ، وجدُّهما أبو طالب بن
عبد المطلب أشدُّ الناس عارضةً وشكينةً ، وأحودُهم رأياً ، وأشهرُهم نفساً ، وأسمعُهم
وَدَاءً ظَهْرَهُ ، منَعَ النبي صلى الله عليه وآله من جميع قريش ، ثم بي هاشم وبني المطلب ،
ثم منَعَ بني إخوانه من بني أخواته من بني تميم كرم الدين أسدوا ، وهو أحد الذين سادوا
مع الإقلال ، وهو مع هذا شاعرٌ خطيبٌ ، ومن يطبق أن يُفاخر بني أبي طالب ، وأُمُّهم
فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي ، وهي التي رُبِّي رسولُ الله
في حجرها ، وكان يدموها أُمِّي ، ورُكِّل في قبرها ، وكان يُوجب حقها كما يُوجب حقَّ
الأم ! من يستطيع أن يُسامي رجلاً ولدهم هاشم مرتين من قتل أبيهم ومن قتل أُمِّهم .
قالوا : ومن العجائب أنها ولدت أربعة كلُّ منهم أسن من الآخر بعشر سنين : طالب ،
وعقيل ، وحضر ، وعلي .

ومن الذي يَعُدُّ من قريش أو من غيرهم ما يَعُدُّه الطالبيون عشرة في نسق ؛ كل واحد
منهم عالمٌ راهد ناسك شجاع جواد طاهر زاكٍ ، فهم خلفاء ، ومنهم مُرشعون :
ابن ابن ابن ابن ، هكذا إلى عشرة ، وهم الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن
جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام ؛ وهذا لم يتفق ليبت من بيوت
العرب ولا من بيوت العجم .

قالوا : فإن فخرتم بأن منكم اثنتين من أمهات المؤمنين : أم حبيبة بنت أبي سفيان وزينب بنت جحش ، فزينب امرأة من بني أسد بن خزيمة ، ادعىتموها بالحلف^(١) لا بالولادة ، وفيما رجل ولده أمان من أمهات المؤمنين ، محمد بن عبد الله بن الحسن المحض ، ولده حديجة أم المؤمنين ، وأم سعة أم المؤمنين ، ولده مع ذلك فاطمة بنت الحسين بن علي ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفاطمة بنت أسد بنت هاشم ؛ وكان يقال : خير النساء المواضع والمواضع وهن أمهاته .

قالوا : ونحن إذا ذكرنا إسماعيل أن نعمة من ولده تأتي به شريفاً في نفسه ، مذكورا بما فيه دون ما في غيره ، قلتم لنا : عاتكة بنت يزيد ، وعاتكة في نفسها كمرأة من عرض قریش ، ليس فيها في نفسها خاصة أمر تستوجب به الفخارة . ونحن نقول : منّا فاطمة ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ، وكذلك أمها خديجة الكبرى ، وإنا نذكر أن مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم اللتين ذكرهما النبي صلى الله عليه وآله ود كر إحداهما القرآن ، وهن المذكورات من جميع نساء العالم من العرب والعجم .

وقلتم لنا : عبد الله بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ولده سبعة من الخلفاء ؛ وعبد الله هذا في نفسه ليس هناك ، ونحن نقول : منّا محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، كلهم سيد ، وأمه العالية بنت عبيد الله بن العباس ، وإخوته داود وصالح وسليمان وعبد الله رجال كلهم أغرّ محجّل ، ثم ولدت الرؤساء إبراهيم الإمام وأخويه أبا العباس وأبا جعفر ، ومن جاء بعدهما من خدما بني العباس .

وقلتم : منّا عبد الله بن يزيد ، وقلنا : منّا الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنة ،

(١) الحلف ، بكسر الهمزة وسكون اللام : العهد بين القوم .

وأولى الناس بكل مكرمة ، وأطهرهم طهارة ، مع النجدة والبصرة واقفه والصبر والحلم والألف^(١) ، وأخوه الحسن سيد شباب أهل الجنة ، وأرفع الناس درجة ، وأشبههم برسول الله خلقا وخلقا هو أبو هاشم بن أبي طالب .

قال شيخنا أبو عثمان : وهو الذي ترك وصفه أبلغ في وصفه ، إذ كان هذا الكتاب يعجز عنه ، ويحتاج إلى كتاب يفرد له ، وعمهما ذو الجناحين ، وأمهما ، فاطمة وجدتهما خديجة ، وأخوالهما : القاسم وعبد الله وإبراهيم ، وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم ، وجدتهما آمنه بنت وهب والدة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم ، وجدتهما رسول الله صلى الله عليه وآله والخمسة لكل فاجر ، والفالب لكل منافق ، قل ما شئت ؛ واذكر أية باب شئت من الفصل ، فإليك تحمد قد حووه .

وقالت أمية : نحن لا نذكر أخو بني هاشم وفصلهم في الإسلام ، ولكن لا فرق بيننا في الجاهلية ، إذ كان الناس في ذلك الدهر لا يقولون : هاشم وعبد شمس ، ولا هاشم وأمية ، بل يقولون : كانوا لا يزيدون في الجميع على عبد مناف ، حتى كان أيام تميز في أمر علي وعثمان في الشورى ، ثم ما كان في أيام تمزيبهم وحزبهم مع علي ومعاوية .

ومن تأمل الأخبار والآثار علم أنه ما كان يذكر فرق بين البيتين ، وإنما يقال : بنو عبد مناف ؛ ألا ترى أن أبا قحافة سمع رجلة شديدة ، وأصواتا مرتفعة ، وهو يومئذ شيخ كبير مكفوف ، فقال : ما هذا ؛ قالوا : قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فاصنمت قريش ؛ قالوا : ولوا الأمر انك ؛ قال : ورصيت بذلك بنو عبد مناف ؛ قالوا : نعم . قال : ورضى بذلك بنو النخيلة ؛ قالوا : نعم ، قال : فلا مانع لما أعطى الله ولا معطى

(١) الألف بفتحين ؛ مثل الألف ؛ ومعناها التسم والإباء .

لما منع أولم يقل : أَرْضَى بِذَلِكَ بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ ؟ وَإِنَّمَا جَعَلَهُمْ عَلَى عَبْدِ مَنَافٍ لِأَنَّهُ كَذَلِكَ كَانَ يُقَالُ .

وهكذا قال أبو مُثَنِّيَانِ بْنِ حَرْبٍ لَعَلَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ سَخِطَ إِيمَارَةُ أَبِي بَكْرٍ : أَرْضَيْتُمْ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْ تَتْلَى عَلَيْكُمْ نَبِيٌّ ! وَلَمْ يَقُلْ : أَرْضَيْتُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ ؟ وَكَذَلِكَ قَالَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ حِينَ قَدِمَ مِنَ الْيَمَنِ وَقَدْ اسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ : أَرْضَيْتُمْ مَعَشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْ تَتْلَى عَلَيْكُمْ نَبِيٌّ ؟

قَالُوا : وَكَيْفَ يُمَرَّقُونَ بَيْنَ هَاشِمٍ وَعَبْدِ شَمْسٍ ، وَهِيَ أَخَوَانُ لِأَبِ وَأُمٍّ ! وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَمْرَهُمَا كَانَ وَاحِدًا ، وَأَنَّ اسْمَهُمْ كَانَ جَامِعًا ، قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصْنِيئُهُ حِينَ قَالَ : « مَنَا حَيْرٌ فَارِسٍ فِي التَّرْبِ » عُنَا شَيْخُ بْنُ مَحْمَدٍ « وَكَانَ أَسَدِيًّا ، وَكَانَ حَلِيفًا لِبَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، وَكُلٌّ مِنْ شَهْلٍ يَدْرَأُ مِنْ بَنِي كَيْسٍ بْنِ دَاوُدَ كَانُوا حَلَفَاءَ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، فَقَالَ ضَرَارُ بْنُ الْأَزْوَارِ الْأَسَدِيُّ : ذَلِكَ مَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « بَلْ هُوَ مَنَا بِالْحَلْفِ » ، فَعَمِلَ حَلِيفَ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ حَلِيفَ بَنِي هَاشِمٍ ، وَهَذَا يَبَيِّنُ لَا يَحْتَاجُ صَاحِبُ هَذِهِ الصَّفَةِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْهُ .

قَالُوا : وَلِهَذَا سَكَّحَ هَذَا الْبَيْتَ فِي هَذَا الْبَيْتِ ، فَكَيْفَ صِرْنَا نَتَزَوَّجُ بَنَاتَ النَّبِيِّ وَبَنَاتَ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ لَا وَبَعْنَ أَكْفَاءَ ، وَأَمْرًا وَاحِدًا ! وَقَدْ سَمِعْتُمْ إِسْحَاقَ بْنَ عِيسَى يَقُولُ لِحَمْدِ بْنِ الْحَارِثِ أَحَدِ بَنِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَتَّابٍ بْنِ أَسِيدٍ : لَوْلَا حَيٌّ أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِالرَّسَالَةِ ، لَزَعَمْتَ أَنَّكَ أَشْرَفُ النَّاسِ ؛ أَفَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمْ يَقْدِمْ عَلَيْنَا رَهْطَهُ إِلَّا بِالرَّسَالَةِ !

قَالَتْ هَاشِمٌ : قَلَمٌ : لَوْلَا أَنَا كُنَّا أَكْفَاءَ كَمَا لَأَمْكَحْتُمُونَا سَاءَكُمْ ، فَقَدْ نَحَدُ الْقَوْمَ يَسْتَوُونَ فِي حَسَبِ الْأَبِ ، وَيُفْتَرِقُونَ فِي حَسَبِ الْأَنْفُسِ ، وَرَبَّمَا اسْتَوَوْا فِي حَسَبِ أَبِي

القبيلة ، كاستواء قُريش في الضر بن كنانة ، ويختلفون كاختلاف كعب بن لؤي ، وعامر ابن لؤي ، وكاختلاف ابن قصي وعبد مناف وعبد الدار وعبد العزى ، والقوم قد يساوى بعضهم بعضاً في وجوه ، ويفارقونهم في وجوه ، ويستحيزون بذلك القدر منا كحتمهم ، وإن كانت معاني الشرف لم تكامل فيهم كما تكاملت فيمن زوجهم ، وقد يزوج السيد ابن أخيه وهو حارص ابن حارص^(١) على وجه صلة الرحم ، فيكون ذلك جائزاً عندهم ، ولو جوه في هذا الباب كثيرة ، فليس لكم أن ترعوا أسكم أ كفاؤنا من كل وجه ، وإن كنا قد رَوَّحناكم وساويناكم في بعض الآراء والأحاديث . ومنه ، فأنتم في الجاهلية والإسلام قد أخرجتم سائكم إلى سائر قريش وإلى سائر العرب ، أقترعوا أنهم أ كفاؤكم عينا عين ! وأما قولكم : إن الحيتين كان يقال لهما عبد مناف فقد كان يقال لهما أيضا مع غيرها من قريش ونسبها : بنو النضر . وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(٢) ، فلم يدع النبي صلى الله عليه وآله أحداً من بني عبد شمس ، وكانت عشيرته الأقربون بني هاشم وبني المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف وفوق ذلك قصي ، ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله لما أتى بعدد من عامر بن كُرير بن حبيب بن عبد شمس وأم عامر ابن كُرير أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم - قال عليه السلام : هذا أشبه بيا منه بكم ، ثم تهل في فيه فاردَّده ، فقال : أرحوا أن تكون مشفياً ، فكأن كما قال . ففي قوله : « هو أشبه سامنه بكم » حصلت : إحداهما أن عبد شمس وهاشما لو كانا شيئاً واحداً كما أن عبد المطلب شيء واحد لما قال : « هو بيا أشبه به بكم » ، والأخرى أن في هذا القول تفصيلاً لنبي هاشم على بني عبد شمس ، ألا ترون أنه خرج خطيباً حواداً ببيل وسيداً مشفياً ، له مصانع وآثار كريمة ، لأنه قال : « وهو بيا أشبه به بكم » وأتى عبد المطلب

(١) الحارص : الرجل الرذل القاسد . (٢) سورة الشعراء ٢١٤ .

عاصم بن كرز وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء فأنمله ، وقال : وعظام هاشم ما ولدنا ولدا أحرص منه ، فكان كما قال عبد الله يحمق ، ولم يقل « وعظام عبد مناف » لأن شرف هذه عبد مناف له فيه شركاء ، وشرف هاشم أبيه حاصر له .

فأما ما ذكرتم من قول أبي سفيان وخالد بن سعيد : أرضيتم معشر بني عبد مناف أن تلي عيكم نيم إني هذه الكلمة كلمة تحريض وتهيج ، فكان الأملع فيما يريد من اجتماع قلوب العربيين أن يدعوم لأب ، وأن يجمعهم على واحد ، وإن كانا معترقين ، وهذا المذهب شديد ، وهذا التدبير صحيح .

قال معاوية بن صفصة للأشهب بن ربيعة ، وهو هاشمي وللمرردق بن غالب ، وهو محاشمي ولكن رأيف وهو عندى : أرضيتم معشر بني دارم أن يئس آباءكم ويئس أعراصكم كلب بني كليب ! وإنما نسبهم إلى دارم الأب الأكبر المشعل على آباء قائلهم ليستووا في الحمية ويتفقوا على الآف ، وهذا في مثل هذا الموضع تدبير صحيح .

قالوا : ويدل على ما قلنا ما قاله الشعراء في هذا الباب قبل مقتل عثمان وقبل صفين ؛ قال حسّان بن ثابت لأبي سفيان الخارث بن عبد المطلب :

وأنت منوط نيط^(١) في آل هاشم كما يبط حنف الراكب القدح الفرد
لم يقل : « نيط في آل عبد مناف » .

وقال آخر :

ما أنت من هاشم في بيت مكرمة ولا بني بجمع الحصر الجلاعيد^(٢)

(١) ب : « يبط » ريب . (٢) الجلاعيد : الصلاب الشداد .

ولم يقل : « ما أنت من آل عبد مناف » ، وكيف يقول هذا ، وقد علم الناس أن عبد مناف ولد أربعة : هاشما والمطلب وعبد شمس ونوفلا ؛ وأن هاشما والمطلب كانا يداً واحدة ، وأن عبد شمس ونوفلا كانا يداً واحدة ، وكان مما نطأ بيني نوفل عن الإسلام إبطاء إخوتهم من بني عبد شمس ، وكان مما حث بني للمطلب على الإسلام فضل محبتهم لبني هاشم ؛ لأن أمر النبي صلى الله عليه وآله كان يبتاً ، وإنما كانوا ينعنون منه من طريق الحسد والبغضة ، فمن لم يكن فيه هذه العلة لم يكن له دون الإسلام مانع ، ولذلك لم يصحب النبي صلى الله عليه وآله من بني نوفل أحدٌ فضلاً أن يشهدوا معه للشاهد الكريمة ، وإنما صحبه حنفاؤهم كيعلى بن مسنه وعتبة بن غرّوان وغيرهما ، وشو الحارث بن المطلب كلهم بذري : عبيد ، وطعيل ، وحصين ؛ ومن بني المطلب مسطح بن أثانة بذري .

وكيف يكون الأمر كما قلتم وأبو طالب يقول لمطعم بن عدي بن نوفل في أمر النبي صلى الله عليه وآله ، لما تمالأت قريش عليه ؟

جرى الله عنا عبد شمس ونوفلا حراء مسيء عاجلاً غير آجل
أطعم إنا سامني القوم حطة فأتى متى أوكل فليست بأكل
أطعم لم أجدك في يوم شدة ولا مشهد عند الأمور الجلائل

ولقد قسم النبي صلى الله عليه وآله قسمة فحملها في بني هاشم وبني للمطلب ، فأتاه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وجبير بن مطعم ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، فقالا له : يا رسول الله ، إن قرابتنا منك وقرابة بني المطلب واحدة ، فكيف أعطيتهم دوننا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله : « إنا لم نزل وبني للمطلب كهاتين » ، وشبك بين أصابعه ، فكيف تقولون : كما شيئاً واحداً ، وكان الاسم الذي يجمعنا واحداً !

ثم نرحع إلى أفخار بنى هاشم ، قالوا : وإن كان الفخر بالأيد^(١) والقوة ، واعتصار^(٢) الأقران ومباطشة الرجال ، فمن أين لكم كعبد بن الحنفية ، وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على درع فاضلة ، فجذبها فقطع ذنبها ما استدار منه كله . وسمعتم أيضا حديث الأيد^(٣) القوي الذي أرسله ملك الروم إلى معاوية بمخر به على العرب ، وأن عمدا قعد له ليقبضه فلم يستطع ، فكأنما يحرك جبلا ، وأن الروي قعد ليقبضه محمد فرقه إلى فوق رأسه ، ثم جلد به الأرض ؛ هذا مع الشجاعة المشهورة ، والفق في الدين والحلم والصبر والفصاحة والعلم بالأمم والإخبار عن الغيوب ، حتى ادعى له أنه المهدي ، وقد سمعتم أحاديث أبي إسحاق العتصم ، وأن أحدا من أي دوايد عصف ساعده بأسنانه أشد العصف فلم يؤثر فيه ، وأنه قال : ما أظن الأسيّة ولا السهام تؤثر في جعده ، وسمعتم ما قيل في عبد الكريم المطيع ، وأنه جذب دس^(٤) ثور فاستلته من بين وركيه .

وإن كان الفخر بالبشر وطلاقة الأوجه وسجاجة الأخلاق ، فمن مثل علي بن أبي طالب عليه السلام وقد بلغ من سجاجة خلقه وطلاقة وجهه أن عيب بالدعاية^(٥) ومن الذي يسوي بين عبد شمس وبين هاشم في ذلك ؛ كان الوليد جبّارا ، وكان هشام شريرا ، وكان مروان بن محمد لا يزال قاطبا عاسا ، وكذلك كان يزيد بن الوليد الناقص ، وكان المهدي المنصور أسرى خلق الله والطفهم خنقا ، وكذلك محمد الأمين وأخوه للمؤمن ، وكان السفاح يضرب به المثل في السرو وسجاجة الخلق .

قالوا : ونحن نعدّ من رفقنا رجالا لا تعدّون أمثالهم أبدا ، فننا الأمراء بالدليم الناصر الكبير ، وهو الحسن الأطروش بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن عمر الأشرف

(١) الأيد (يفتح فسكون) : القوة . (٢) اعتصار القرون : جده به بشعة .

(٣) الأيد : الشجاع الشديد .

ابن ريد العابدين، وهو الذي أسلمت الدِّيمُ على يده، والناصر الأصغر وهو أحد بن يحيى
ابن الحسن بن القاسم بن إبراهيم بن ططط، وأخوه محمد بن يحيى، وهو الملقب بالمرقسي،
وأخوه يحيى بن الحسن وهو الملقب بالهادي. ومن ولد الناصر الكبير الثائر، وهو جعفر
ابن محمد بن الحسن الناصر الكبير، وهم الأمراء تطبرستان وجيلان وجرجان
ومازندران وسائر ممالك الديلم؛ ملكوا تلك الأصقاع مائة وثلاثين سنة، وضرّوا
الدانير والدرام بأسمائهم، وحطّ بهم على المار، وحاربوا الملوك السامانية، وكسروا
جيوشهم، وقتلوا أمراءهم، فهؤلاء واحدٌ أعظمُ كثيراً من ملوك بني أمية، وأطول
مدة وأعدل وأصفواً كثرُ نكاحهم وأشدَّ حرصاً على الأمر المعروف والهي عن المنكر،
ومن تحرّى محرام الداعي الأكبر والداعي الأصغر مديكاً الدئم، فاداً الجيوش.
واصطعما الصنائع.

قالوا: ولنا ملوك مصر وإفريقية، ملكوا مائتين وسبعين سنة، فتحو الفتوح
واستردوا ما تملك عليه الروم من مملكة لإسلام، واصطعموا الصنائع الجليلة.

ولم الكتاب والشعراء والأمراء والتقوادة، فأولهم المهدي عبد الله بن ميمون بن
محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب
وآخرهم العاصد، وهو عبد الله بن الأمير أبي القاسم بن الحافظ أبي الميمون بن
المستعلي بن المستنصر بن الطاهر بن الحاكم بن عبد العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم
ابن المهدي؛ فإن افتخرت الأموية بموكهمافي الأندلس من ولد هشام بن عبد الملك،
واتصال ملكهم وحلوم بإراء ملوكنا بمصر وإفريقية، قلنا لهم: ألا إنا نحن أركنا
ملككم بالأندلس، كما أركنا ملككم هشام والمشرق كله، لأنه لنا ملك قرطبة

الظافر من بني أمية وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الملقب بالناصر ، خرج عليه علي بن حميد بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، قتلته ، وأزال ملكه . وملك قرطبة دار ملك بني أمية ، ويلقب بالناصر . ثم قام بعده أخوه القاسم بن سقود ، ويلقب بالعتلى ؛ فنحن قتلناكم وأزلنا ملككم في الشرق والمغرب ، ونحن لكم على الرصد^(١) حيث كنتم ؛ اتبعناكم فقتلناكم وشرذمناكم كل شرذمة ، والفقر للعالم على الغلوب ، بهذا قضت الأم قاطبة .

قالوا : ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله ، ما يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، كان شجاعاً حريزاً^(٢) وهو الذي ولي الموصل لأخيه السفاح فاستعرض أهلها ، حتى ساخت^(٣) الأقدام في الدماء

ومنا يعقوب بن إبراهيم بن عيسى بن أبي حمزة المصور ، كان شاعراً فصيحاً ، وهو المعروف بأبي الأسباط ، ومنا محمد وجعفر ابنا سليمان بن علي ، كانا أعظم من ملوك بني أمية ، وأجل قدراً وأكثر أموالاً ومكاناً عند الناس . وأهدى محمد بن سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة وصيفة في يد كل واحدة منهن جام^(٤) من ذهب ودرته ألف مثقال ، مملوء مسكاً ، وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السودان خاصة ، فكم يكون لیت شعري غيرهم من البيض ومن الإمام ! وما رثي جعفر بن سليمان راكباً قط إلا طن أنه الخليعة .

ومن رجالنا محمد بن السفاح ، كان جواداً أبداً شديد البطش ، قالوا ما رثي أخوان

(١) على الرصد : مفصلون لكم . (٢) في ما : « حريزاً » تصحيف .
(٣) ساخت : خاصت . (٤) الجام : إمام من الذهب أو الفضة .

أشد قوة من محمد ورَبِطَةُ أخته وَلَدَى أَبِي العباس السَّعَاح ، كان محمد يأخذ الحَدِيدَ فيلويهِ فتأخذه هي فترده .

ومن رجالنا محمد بن إبراهيم طَطَطًا صاحب أبي السَّرايا ، كان ناسكا عابدا فقيها عظيم القُدْر عند أهل بيته وعند الرُّبَدِيَّة .

ومن رجالنا عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، وهو الذي شيد مُلْك المنصور وحارَبَ أُنثَى عبد الله بن حسن ، وأقام عمودَ الخلافة بعد اضطرابه ، وكان فصيحاً أدبياً شاعراً .

ومن رجالنا عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، حَجَّ بالناس وولى الشَّام ، وكان فصيحاً حطيباً .

ومن رجالنا عبد الله بن موسى الهادي ثم كان أكرم الناس وحواداً ممدوحاً أدبياً شاعراً ، وأخوه عيسى بن موسى الهادي ، كان أكرم الناس ، وأجود الناس ، كان يلبس الثياب ، وقد حُدِّدَ ظُفْرُهُ فَيَحْرِقُهَا بِظُفْرِهِ لثَلَاثَ عَادٍ إِلَيْهِ . وعبد الله بن أحمد ابن عبد الله بن موسى الهادي ، وكان أدبياً ظريفاً .

ومن رجالنا عبد الله بن المعتز بالله ، كان أَوْحَدَ الدُّبَا في الشُّعْرِ والأدب والأمثال الحكيمية والسؤدد والرياسة ، كان كما قيل فيه لَمَّا قُتِلَ :

لَهُ دَرَكٌ مِنْ مَيِّتٍ بِمَصِيْمَةٍ نَاهِيكَ فِي الْعِلْمِ وَالْأَشْعَارِ وَالْخَطَبِ^(١)
مَا فِيهِ لَوْ لَا تَوَلَّى فَتَنَقَّصَهُ وَإِنَّمَا أَدْرَكْنُهُ حِرْفَةُ الْأَدَبِ

ومن رجالنا النقيب أبو أحمد الحسين بن موسى شيخُ أبي هاشم الطالبين والعباسيين في عصره ، ومن أطلَّعَه الخلفاء والملوك في أقطار الأرض ورجعوا إلى قوله ، وإبناء عليّ ومحمد وهما المرتضى والرضى ، وهما فريدا العصر في الأدب والشُّعْر والفقه والكلام ، وكان الرضى شجاعاً أدبياً شديداً الألف .

(١) لعل بن بسام ، ابن خلِّكان ١ : ٢٥٩ .

ومن رجالنا القاسمُ بن عبد الرحيم بن عيسى بن موسى الهادي ، كان شاعراً ظريفاً .
ومن رجالنا القاسمُ بن إبراهيم طباطبا . صاحب المصنفات والورع والدعاء إلى الله وإلى
التوحيد والعَدْل ومنايذة الظالمين ، ومن أولاده أمراء اليمن .

ومن رجالنا محمد الفأفأ بن إبراهيم الإمام ، كان سيداً مقدّماً ، ولي للوسم وحج
بالناس ، وكان الرشيد يسيره ، وهو مفتع طيّب الساه .

ومن رجالنا محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين صاحب أبي السرايا ، ساد
حدّثنا ، وكان شاعراً أدبياً قصيباً ، بأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، ولما أُسِرَ وحلّ إلى
الأمون أكرّمه وأفضل عليه ، ورعى له فضله وسكّه .

ومن رجالنا موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، كنيته
أبو عيسى ، وهو أجل ولد عيسى وأبائهم أدقّ لجة الكوفة وسوادها زمانا طويلاً للهدي ،
ثم الهادي ، وولي المدينة وإمريّة ومعير للرشيد فقال له ابن السماك لما رأى تواضعه :
إِنَّ تَوَاضَعَكَ فِي شَرَفِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ شَرَفِكَ ؛ فقال موسى : إِنَّ قَوْمَنَا - يعني بني هاشم -
يقولون : إِنَّ التَّوَاضِعَ أَحَدُ مَصَائِدِ الشَّرَفِ .

ومن رجالنا موسى بن محمد أحو السّاقح والمصور ، كان بيلاً عديم ، هو وإبراهيم
الإمام لأُمّ واحدة ، رأى في منامه قبل أن يصير من أمرهم ما صارَ أُمّه دخل بُسْتَانًا فلم
يأخذ إلّا عبوداً واحداً عليه من الحت المتراصّ مَارَتْكَ به عليم ، فلم يُؤدّله إلّا عيسى ، ثم
وُلد لعيسى من ظهره أحدٌ وثلاثون ذكراً وعشرون أنثى .

ومن رجالنا عبدُ الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وهو
عبدُ الله المحض ، وأبوه الحسن بن الحسن ، وأُمّه هاطمة بنتُ الحسين ، وكان إذا قيل : مَنْ

أجل الناس ؟ قالوا : عبد الله بن الحسن ، فإذا قيل : مَنْ أَكْرَمُ الناس ؟ قالوا : عبد الله ابن الحسن ، فإذا قالوا : مَنْ أَشْرَفُ الناس ؟ قالوا : عبدُ الله بن الحسن .

ومن رجالنا أخوه الحسن بن الحسن ، وحمه زيد بن الحسن وبنوه محمد وإبراهيم وموسى ويحيى ؛ أما محمد وإبراهيم فأمرهما مشهور ، وفضلهما غيرُ يُجْحَد ، في الفقه والأدب والنسك والشجاعة والسؤدد . وأما يحيى صاحبُ الديلم فكان حسن المذهب والهدى ، مقدما في أهل بيته ، سيدا مما يُعَابُ على مثله ، وقد روى الحديثَ وأكثَرَ الرواية عن جعفر بن محمد ، وروى عن أكابر الحديثين ، وأوصى جعفر بن محمد إليه لما حضرته الوفاة وإلى ولده موسى بن جعفر . وأما موسى بن عبد الله بن الحسن ؛ فكان شاعرا بعيضا صوراشجاعا سخيا شاعرا .

ومن رجالنا الحسن الثالث ، وهو الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، كَانَ مُتَأَلِّهاً^(١) فاضلاً ورعاً ، يذهب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مذهبَ أهله . وإبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، كان مقدما في أهله ، يقال : إنه أشبهُ أهل زمانه رسول الله صلى الله عليه وآله .

ومن رجالنا عيسى بن زيد ، ويحيى بن زيد أخوه ، وكانا أفصلَ أهل زمانهما شجاعة وزهداً وفقها ونسكاً .

ومن رجالنا يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد صاحب الدعوة . كان فقيها فاضلا شجاعا فصيحاً شاعرا ، ويقال : إن الناس ما أحبُّو طالبياً قط دما إلى نفسه حبهم يحيى ، ولا رثي أحد منهم بمثل ماريته .

(١) مطلقاً : مصداً .

قال أبو الفرج الأصفهاني : كان يحيى فارساً شجاعاً شديد البدن ، مجتَمِع القلب ، بعيداً عن زهو الشباب وما يُعَابُ به مثله ، كان له حمودٌ حديدٌ ثقيلٌ يصحبه في منزله ، فإذا سَخِطَ على عبدٍ أو أمة من حَشَمِه لَوَاهُ في عُنُقِه فلا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَحْلَهُ عنه حتى يَحْلَهُ هو ^(١) .
ومن رجالنا محمد بنُ القاسم بن علي بن عمر بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام صاحب الطالِقَانِ ؛ لَقِبَ بالصوفي لأنه لم يكن يلبس إلا الصوف الأبيض ، وكان عالماً فقيهاً ، ديناً زاهداً ، حسن المذهب ، يقول بالعدل والتوحيد .

ومن رجالنا محمد بنُ علي بن صالح بن عبد الله بن موسى بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام . كان من فتيان آل أبي طالب وُفِّتَا كَهْمُ وشُجِّعَانِهِمْ وظُرَفَاتِهِمْ وشُعْرَاتِهِمْ ، وله شعرٌ لطيفٌ محموط .

ومنهم أحمد بنُ عيسى بن زيد ، كان فاضلاً عالماً مقدِّمًا في عُشِيرَتِه ، معروفًا بالفصل ؛ وقد رَوَى الحديث ورَوَى عنه .

ومن رجالنا موسى بنُ جعفر بن محمد - وهو الصِّدِّقُ الصَّالِحُ - جَمَعَ من الفقه والدين والنسك والحلم والصبر . وانه علي بن موسى للرشح للعلاقة ، والمخطوب له بالهدى ، كان أعلم الناس ، وأسخى الناس ، وأكرم الناس أخلاقاً .

قالوا : وأما ما ذكرتم من أمر الشَّجَرَةِ المَعْنُوءَةِ ، فإنَّ المُفَسِّرِينَ كلَّهم قالوا ذلك ورَوَوْا فيه أخباراً كثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله ، ولستم قادرين على جَعْدِ ذلك ، وقد عَرَقْتُمْ تَأْخِرَكُمْ عن الإسلام وشدة عداوتكم لرسول الدَّاعِي إليه ، ومحاربكم في نَذْرِ وأُحْدٍ والخندق ، وصَدَّكُمْ الهدى عن البيت ، وليس ذلك مما يوجب أن يَمُتَّكُمْ الأَمْنُ حتى

لا يصادر واحدا ، فإن زعم ذلك زاعمٌ فقد تعدى . وأما اختصاص محمد بن علي بالوصية والخلافة دون إخوته ؛ فقد علمتم أن وراثته السيادة والمرتبة ليس من جنس وراثته الأموال ؛ ألا ترى أن المرأة والعبي والجنون يرثون الأموال ولا يرثون المراتب ؛ وسواء في الأموال ، كان الابن حارصا^(١) مائرا ، أو بارعا حامعا .

وقيل : وراثته للتسام سبيلٌ وراثته اللواء ، دفع رسول الله صلى الله عليه وآله لواء بني عبد الدار إلى مصعب بن عمير ، ودفع عمر بن الخطاب لواء بني تميم إلى وسكيع بن بشر ، ثم دفعه إلى الأحنف حين لم يوجد في بني زُرارة من يستحق وراثته اللواء ؛ فإن كان الأمر بالنسبة كما كان بين محمد بن علي وأبيه علي بن عبد الله أربع عشرة سنة ، كان علي بمصعب أسود ، ومحمد بمصعب بالحرمة ، فكان القادم يقدم عليهما ، والرائر يأبيهما ، فيظن أن محمد هو علي ، وأن عليا هو محمد ، حتى ربما قيل لعلي : كيف أصبح الشيخ من عائلته ؟ ومتى رجع الشيخ إلى منزله ؟ وأخرى أن أمه كانت العالية بنت عبد الله بن العباس ؛ فقد ولده العباس مرتين ، وولده حواذني العباس ؛ كما ولدته خبهم وخبهم ؛ ولم يكن لأحد من إخوته مثل ذلك . وكان عمر والد محمد أسن من عامة واد علي ، وويد محمد المهدي بن عبد الله المصور والعباس بن محمد بن علي في عام واحد ، وكذلك محمد بن سبيان بن علي ، ولم يكن لأحد من واد علي بن عبد الله بن العباس - وإن كانوا فصلاء بحباء كرماء ببلاء - مثل عقله ولا كعماله ؛ كان إذا دخل المدينة ومكة جلس الناس على أبواب دورهم والنساء على سطوحهن للنظر إليه ، والتعجب من كلاله وبهائه ، وقد قاتل إخوته أعداءه في دفعه للكل إلى ولده غير مكرهين ولا محبرين ؛ علي أن محمد إنما أحد الأمر عن أساس مؤسس ، وقاعدة مقررة ، ووصية انتقلت إليه من أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وأخذها أبو هاشم عن أبيه محمد ، وأخذها محمد عن علي بن أبي طالب أبيه .

قالوا : لما سمعت بنو أمية أبا هاشم مريض فخرج من الشام وقينا^(١) يوم المدينة ، فمرّ بالحامية^(٢) وقد أشفى ، فاستدعى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فدفع الوصية إليه ، وعرفه ما يصنع ، وأخبره بما سيكون من الأمر ، وقال له : إني لم أدفعها إليك من تلقاء نفسي ، ولكن أبي أخبرني عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام بذلك ، وأمرني به ، وأعلمني ببقائي إياك في هذا المكان ، ثم مات فتولى محمد بن علي تجهيزه ودفعه وبث الدعاء حينئذ في طلب الأمر ، وهو الذي قال لرجال الدعوة ، والقائمين بأمر الدولة ، حين اختارهم للتوجه ، وانتخبهم للدعاء ، وحين قال بعضهم : مدعو بالكوفة ، وقال بعضهم : بالبصرة . وقال بعضهم : بالجزيرة . وقال بعضهم بالشام . وقال بعضهم : بمكة وقال بعضهم : بالمدينة . واحتج كل إنسان رأيه ، واعتلّ لقوله - فقال محمد : أما الكوفة وسوادها فشيعة عليّ وولده ، وأما البصرة فعمانية تدّين بالكف ، وقبيل عبد الله المقتول يدّينون بجميع الفرق ، ولا يُعينون أحد ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، والخارجية فيهم فاشية ، وأعراب كأعلاج^(٣) ، ومسلمون في أخلاق النصارى ، وأما الشام فلا يعرفون إلا آل أبي سفيان ، وطاعة بني مروان ، عداوة راسخة ، وجهلاً متراكماً ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، وليس يتحرك معافى أمرنا هذا منهم أحد ، ولا يقوم بنصرنا إلا شيعتنا أهل البيت ، ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وصُدوراً سليمة ، وقلوباً مجتسمة ، لم تنقسمها الأهواء ، ولم تنوزعها النحل ، ولم تشغلها ديانة ، ولا هدم فيها فساد ، وليس لهم اليوم هم^(٤) العرب ، ولا فيهم تجارب كتجارب الأتباع مع السادات ، ولا تحالف كتتحالف القبائل ، ولا عصبية كعصبية المشائير ، وما زالوا يثألون ومُتمّهون ، ويُظلمون فيسكتظّمون ، ويبتغظرون القرج ، ويؤمّلون

(١) الوقيد : المريض المعروف على الهلاك .

(٢) الحامية ، كعينة طلبة اللقاء . (٣) الأعلاج : جمع علاج ؛ الرجل من كبار الصمم :

(٤) ١ : هم .

دَوَلَة ، وهم جنْدٌ لهم أبدان وأجسام ، ومَنَّاكُ وكواهل ، وهامات وكلَى ، وشواربُ
وأصوات هائلة ، ولُغَلَّت نَفْثَة ، تَخْرُج من أحواف مُنْكَرَة .

وبعد ، فسكَّاني أُنْفَاعُ جانبَ الشَّرْقِ فإنَّ مَطْلِعَ الشَّمْسِ سراجُ الدُّنْيَا ، ومَصْبَاحُ هَذَا
الْخَلْقِ . فغَاءَ الأَمْرُ كما دَبَّرَ ، وكما قَدَّرَ ، وبِـ كَالِ الرَّاى الَّذِى رَأَى صَوَابًا فَقَدَّوْا فِى الرِّشَادِ ،
وَطَلَّقَ الْفِصْلَ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ رِوَايَةِ مُتَقَدِّمَةٍ ، فَلَمْ يَتَلَقَ ذَلِكَ الرِّوَايَةَ إِلَّا عَنْ نَبْوَةٍ .

قَالُوا : وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : إِنْ مَنَّا رَحْلًا مَكَّتْ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً أَمِيرًا وَخَلِيفَةً ، فَإِنَّ الْإِمَارَةَ
لَا تَمُدُّ خُرَافًا مَعَ الْخِلَافَةِ ، وَلَا تُقَسَّمُ إِلَيْهَا ، وَنَحْنُ نَقُولُ : إِنْ مَنَّا رَحْلًا مَكَّتْ سَبْعًا وَأَرْبَعِينَ
سَنَةً خَلِيفَةً ، وَهُوَ أَحَدُ النَّاصِرِ بْنِ الْحَسَنِ لِلتَّقْضَى ؛ وَمِنَّا رَحْلٌ مَكَّتْ خَمْسًا
وَأَرْبَعِينَ سَنَةً خَلِيفَةً ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ الْقَائِمُ وَمَكَّتْ أَبُوهُ أَحْمَدُ الْقَادِرُ ثَلَاثًا وَأَرْبَعِينَ
سَنَةً خَلِيفَةً ، فَتُكْهَمَا أَكْثَرُ مِنْ مُلْكِ بَنِي أُمَيَّةَ كُلِّهِمْ ، وَهَمَّ أَرْبَعُ عَشْرَةَ حُلِيعةً .
وَيَقُولُ الطَّالِبِيُّونَ : مَنَّا رَحْلٌ مَكَّتْ سِتِينَ سَنَةً خَلِيفَةً ، وَهُوَ مَعْدٌ بْنُ الطَّاهِرِ
صَاحِبُ مِصْرَ ، وَهَذِهِ مُدَّةٌ لَمْ يَتَلَقَّهَا خَلِيعَةٌ وَلَا مُلْكٌ مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ
وَلَا فِي حَدِيثِهِ .

وَقُلْتُ لَنَا : عَاتِكَةُ بِنْتُ بَزِيدٍ بَكَّتِيهَا خَمْسَةٌ مِنْ الْخُلَفَاءِ ، وَنَحْنُ نَقُولُ : لَنَا رُبَيْدَةُ
بِنْتُ جَعْفَرٍ بَكَّتِيهَا ثَمَانِيَةً مِنَ الْعَمَاءِ ، جَدُّهَا الْمَصُورُ خَلِيعَةٌ ، وَعَمُّ أَبِيهَا السَّفَاحُ خَلِيعَةٌ
وَعَمُّهَا الْمُهْدِيُّ خَلِيعَةٌ ، وَابْنُ عَمِّهَا الْهَادِي خَلِيعَةٌ ، وَبِهَا الرِّشِيدُ خَلِيعَةٌ ، وَابْنُهَا الْأَمِينُ
خَلِيعَةٌ ، وَابْنُهَا الْأَمُونُ وَالْمُعْتَصِمُ خَلِيعَتَانِ .

قَالُوا : وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمُوهُ مِنَ الْأَعْيَاصِ وَالْعَنَابِسِ فَلَسْنَا نُصَدِّقُكُمْ فِيهَا زَعْمُكُمْوه أَصْلًا
هَذِهِ التَّسْمِيَةُ ، وَإِنَّمَا سُمُّوا الْأَعْيَاصَ لِمَسْكَانِ الْعِيصِ وَأَبِي الْعِيصِ وَالْعَاصِ وَأَبِي الْعَاصِ ،
وَهَذِهِ أَسْمَاؤُهُمْ ، الْأَعْلَامُ لَيْسَتْ مُشْتَقَّةٌ مِنْ أَعْمَالٍ لَمْ كَرِمْتْ وَلَا خَسِيسَةٌ . وَأَمَّا الْعَنَابِسُ ،

فَاتَمَّ سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّ حَرْبَ بْنَ أُمَيَّةَ كَانَ أَسْمُهُ عَنَبَةَ ؛ وَأَمَّا حَرْبٌ فَلَقَّبَهُ ، ذَكَرَ ذَلِكَ
الْقَسَابُونَ ، وَلَمَّا كَانَ حَرْبٌ أَمْثَلَهُمْ سُمُّوا بِجَمَاعَتِهِمْ بِأَسْمِهِ ، فَحَقِيلُ : الْمَنَابِيسُ ، كَمَا يُقَالُ :
الْمَهَالِبَةُ وَالْمَنَازِيرَةُ ، وَلِهَذَا اللَّعْنُ مُنَى أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ بْنِ عَنَبَةَ ، وَمُنَى سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ
ابْنِ عَنَبَةَ .

تم الجزء الخامس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وإليه
الجزء السادس عشر



فهرس الخطب •

- ١٠ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية ٧٩ - ٨٠
- ١١ - من وصية له عليه السلام وصى بها جيشا بعده إلى المدوّ ٨٩
- ١٢ - من وصية له عليه السلام أوصى بها معقل بن قيس الرضائي حين أنفذته إلى الشام في ثلاثة آلاف ٩٢
- ١٣ - من كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه ٩٨
- ١٤ - من وصية له عليه السلام لمسكره بصفين قبل لقاء العدو ١٠٤
- ١٥ - من كلام كان يقوله عليه السلام إذا لقي عدوا محاربا ١١٢
- ١٦ - من كلام كان يقوله لأصحابه عند الحرب ١١٤
- ١٧ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتاب منه إليه ١١٧
- ١٨ - من كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس وهو عامله ١١٨
- ١٢٥ - على البصرة .
- ١٩ - من كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله ١٣٧
- ٢٠ - من كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه ١٣٨
- ٢١ - من كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه أيضا ١٣٩
- ٢٢ - من كتاب له عليه السلام إلى ابن عباس ١٤٠
- ٢٣ - من كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصية لما ضربه عبد الرحمن بن ملجم ١٤٣

٢٤ - من وصية له عليه السلام بما يعمل في أمواله ، كتبها بعد

منصرفه بن صفين . ١٤٦ - ١٤٨

٢٥ - من وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصلوات ١٥١ - ١٥٢

٢٦ - من عهد له عليه السلام إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة ١٥٨

٢٧ - من عهد له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر حين قلده مصر ١٦٣ - ١٧٠

٢٨ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً وهو من محاسن الكتب ١٨١ - ١٨٢



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد

—————

فهرس للموضوعات*

صفحة	
٩-٣	القول في أسماء الذين تعاقبوا من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم
١١-١٠	القول في الملائكة نزلت بأحد وقاتلت أم لا
١٩-١١	القول في مقتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه
٢٥-١٩	القول فيمن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد
٤٣-٢٥	القول فيما جرى للمسلمين بعد إصعادهم في الجبل
٤٥-٤٤	القول فيما جرى للمشركين بعد انصرافهم إلى مكة
٤٨-٤٥	القول في مقتل أبي عزة الجمحي ومعاذ بن عمرو بن الجموح
٥١-٤٨	القول في مقتل الجذر بن زياد البلوي الحارث بن يزيد بن الصامت
٥٢-٥١	القول فيمن مات من المسلمين بأحد جملة
٥٤-٥٢	القول فيمن قتل من المشركين بأحد
٦٠-٥٥	القول في خروج النبي صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من أحد إلى المشركين ليوقع بهم على ما هو به من الوهن
٧٢-٦١	الفصل الخامس في شرح غزاة مؤتة
٧٨-٧٢	فصل في ذكر بعض مناقب جعفر بن أبي طالب
٩٧-٩٥	نبذ من الأقوال الحكيمة في الحروب

صفحة	
١٠٢-٩٨	فصل في نسب الأشر و ذكر بعض فضائله
١٠٣-١٠٢	نبذ من الأقوال الحكيمة
١٠٦-١٠٥	نبذ من الأقوال الحكيمة
١١١-١٠٧	قصة فيروز بن يزدجرد حين غزا ملك الهياطلة
١١٦-١١٥	نبذ من الأقوال المتشابهة في الحرب
١٢٤-١٢٠	ذكر بعض ما كان بين علي ومعاوية يوم صفين
١٣٦-١٣٦	فصل في بني تميم و ذكر بعض فضائلهم
١٨٠-١٧١	كتاب المتضد بالله
١٨٧-١٨٤	كتاب لمعاوية إلى علي
١٩٨-١٩٥	منا كحات بني هاشم وبني عبد شمس
٢٥٧-١٩٨	فضل بني هاشم على بني شمس
٢٨٤-٢٥٧	مفاخر بني أمية
٢٨٤-٢٧٠	ذكر الجواب عما نفرت به بنو أمية
٢٩٥-٢٨٥	افتخار بني هاشم

